

Hernán Rivera Letelier

إيرنان ريفيرا ليتelier

Hombres que llegan a un pueblo

رجال وقرى



رواية
ترجمة: محمد الفولي

رجال و قری





للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

العنوان الأصلي:

Hombres que llegan a un pueblo

العنوان العربي: رجال وقرى

حقوق النشر:

© Hernán Rivera Letelier
c/o Schavelzon Graham Agencia Literaria
© 2022, de la presente edición en
castellano para todo el mundo: Penguin
Random House Grupo Editorial, S.A

حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

تأليف: إيرنان ريبيرا لتيلير

ترجمة: محمد الفولي

تدقيق لغوي: د. سعيد عثمان

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الطبعة الأولى: يناير / 2025م

(رقم الإيداع: 33696 / 2024م

الترقيم الدولي: 978-977-992-497-7

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.



تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:
أشرف غالب

جميع الحقوق محفوظة ©



مكتبة ضاد الإلكترونية
t.me twinkling4



امسح الكود وانضم لأسرة ضاد
<https://t.me/twinkling4>

Hernán Rivera Letelier

إيرنان ريبيرا لتيلير

Hombres que llegan a un pueblo

رجال وقرى



رواية
ترجمة: محمد الفولي

تنويه من المترجم

تدور أحداث الروايات الثلاث التي يتضمنها هذا الكتاب في مستوطنات وقرى صحراء أتاكاما لإنتاج الملح الصخري التي اعتمد عليها الاقتصاد التشيلي لفترة طويلة من الزمن، ونشأ المؤلف في إحداها، وتعد المسرح الرئيسي لأغلب إنتاجه الأدبي.

(جل يصل إلى «النعيم السامي»

«وماذا إن اكتشفت قطعة من الخشب أنها كمان؟».

آرثر رامبو

ها هو ذا تريستان الحزنان، أستاذ الموسيقى وعبقري الكمان، حتى
وإن لم يقر بذلك. ها هو ذا يمضي بخطواته الواسعة في قلب الصحراء
نحو عزلته، وهو يتبع مسارًا متوهجًا من التراب.
تخطى الوقت منتصف الظهيرة، وما من نسمة واحدة تُرْفرف وسط
الهواء.

وفوق رأسه الشمس، كحجر مُشتعل.

عمره ثلاثة وعشرون عامًا. يتيم الأبوين، ومن محبي باجانييني.
تريستان سان مارتين وحيد، وصموت، وحالم. لكنه قبل كل هذا حزين.
لا يدعونه تريستان الحزنان من فراغ.
ولديه كمان.

قبل أن يتعرف إلى مارجريتا، لطالما وصف حزنه بأنه شاعري،
وصمته بأنه كمان نائم، ووحدته، بأنها خلوة روحانية. أما الآن، فبعد أن
غدرت به «الخبیثة»، صار يصف حزنه بالنثر، وصمته بالكمان الميت،
ووحدته بقطار الشحن الثقيل.

وهذا لأن تريستان الحزنان حظي منذ فترة قليلة، بحياة، وحب، وكمان. اليوم، لم يبق له إلا الكمان؛ الآلة التي يحملها معه في كل الأنحاء ويتحدث معها كما قد يفعل البعض مع حيواناتهم الأليفة.

«كمان فرنسي. صُنع ضمن خط إنتاج، لكنه أُنهى يدويًا. يرتكز تصميمه على نموذج لأندريا أماتي، من عام 1630. يتميز بقوامه الرشيق وأغطيته شديدة الاستواء وصوته العذب». هذا ما قاله السفير الفرنسي في مكبر الصوت قبل أن يُسلمه له إثر حصوله على المركز الأول في النسخة الأولى من مسابقة الكمان تحت رعاية السفارة الفرنسية. كُوفئ تريستان بجائزة «أفضل عازف كمان في العام» بعد أن أكمل عامه السابع عشر بقليل. مع ذلك، ظل يخجل من أن يُدعى عازفًا للكمان.

لطالما قال: «عازف الكمان الوحيد هو باجانييني».

تمكن تريستان، بفضل هذه المسابقة، من تغيير الكمان الذي اشترته له أمه مستعملًا -من قبل شخص أو اثنين- حين أكمل عامه السابع. إنها أفضل هدية تلقاها قبل تعرض أبويه للحادثة المرورية.



توقف تريستان في وسط الصحراء، في طريقه إلى منفاه، وهو مبهور بهذه السهول اللامتناهية.

ومع أن الحرارة قد تنشق لها الأحجار، فهو مندهش، لأن هذه الصحراء مفرطة في نقائها وشفافيتها، إلى درجة قد يرى معها المرء بمجرد النظر ما يقع على بعد مسافة تتخطى الثمانين كيلومترًا. يترك في لحظة حقيقته على المسار ويصعد رابية صغيرة، ويُظلل عينيه بيديه ويلقي نظرة بزاوية ثلاثمائة وستين درجة. تدفعه دائرة الأفق الرهيبة -ذلك الأفق النقي والبسيط- إلى الشعور بدوار استدارة الأرض.

يقول لنفسه، وهو مُتَّقد تمامًا، إنه لا بُد من جلب الحمقى الذين يؤمنون بأن الأرض مسطحة إلى هذه النقطة تحديدًا.

«ومن بعد الخبيثة، الطوفان». قال تريستان هذا على الأرجح قبل رحيله، لأنه عقب الطعنة التي استقرت في قلبه، لم يعرف ما عليه فعله لكيلا يجن، لكيلا يموت من حسرة الحب. أن يحبس نفسه؟ أن يختفي؟ أن يذهب إلى كوكب آخر؟

لهذا ترك العاصمة ومضى بحثًا عن مكان أقل صخبًا، متاخم لحزنه، وأكثر اتفاقًا مع صمته وتناسقًا مع وحدته. مكان لن يضطر فيه أبدًا إلى الإنصات إلى هذه الدندنة المشؤومة: «يُحبني كثيرًا / يُحبني قليلًا / لا يُحبني أصلًا».

مكان، يا كمانى، حيث لا يعرفني أحد، وحيث لا تنمو زهور المارجريتا. أو بكلمات أخرى كوكب آخر.

سرحت ومرحت فكرة الكوكب غير المأهول في رأس تريستان.

لم يرد أن يغرم مرة ثانية.

ولهذا قرر ترك المدينة، والفرار من الزحام، من الحشود، من الاحتمالية الكامنة لأن تأتي «الغواية» في أي يوم، وسط الناس، كي تأخذه على حين غرّة، فتقدمه إلى فلانة، أو من احتمالية أن تناديه فجأة، متجسدة في صوت علّانة، أو أن يغطي أحد ذات مساء خريفي عينيه ويسأله: خمن من أنا؟ ليتبين أنها «الخبيثة» ذاتها وهي تُنزه «الغواية»

التي تُمسكها من يدها بسلسلة كلب، فحينئذٍ، سيعود كيوبيد، المترصد دائماً، ليرشق سهمه في مؤخرته.

بينما يُخطط لرحيله، أمسك كمانه مرة ثانية (كمانه الذي حبسه في حقيبته منذ يوم الطعنة) وأجبر نفسه على العزف إلى أن انقطعت أوتاره. حاول أن يمحو ذكرى «الخبیثة» بالموسيقى، ومراوغة هبات السعادة التي عاشها معها ومنعته من التركيز. فجأة، وبينما يعزف «سوناتا».. بوم! رأى نفسه وهو يمسك يدها فيما يركض عبر دروب «حديقة الغابة»، ويشترى لها مخروطات المثلجات. رأى نفسه وهما يفردان جسديهما على العشب الرطب، فيما يتبادلان القبلات ويضحكان ويلعبان كطفلين هرباً للتو من دار الأيتام.

دفاعاً عن نفسه أمام هذه الهَبَّات، نصب تريستان متراًساً في ذاكرته، وفيما يتحصن وراءه، رد بطلقات الذكريات السيئة. على سبيل المثال، تكشירתها المنزعجة كلما رآته وكمانه على كتفه، أو كلما خبأته منه، بخبث واضح، وهي تعرف الغم الذي ينتابه إن لم يجده ليعزف، أو كلما ظهرت وزهور المارجريتا تتدلى من تموجات شعرها الأشقر، فتفك إحداها في وسط اللقاء، في أكثر اللحظات المُستبعدة، وتشرع -كأنها مجنونة- في نزع بتلاتها واحدة تلو الأخرى، وهي تُردد تلك الترنيمة الملعونة: «يحبني كثيراً / يحبني قليلاً / لا يحبني أصلاً. يحبني كثيراً / يحبني قليلاً...».

اشترى تريستان الحزنان كمية كبيرة من الخرائط مختلفة الأحجام والأشكال. خرائط للبلد، وخرائط للأقاليم، وخرائط للقرى، وشرع يدرسها كأنها خرائط للنجوم.

بينما يُمسك العدسة المكبرة في يده، قضى الليل في سُهادٍ وهو يُحدد النقاط، ويُدون المسافات، ويحصر الأسماء، لا تلك التي تخص المدن الكبيرة، وإنما على وجه الخصوص القرى الصغيرة والنجوع المتروكة بين يدي الرب. تبين أن كل ما حدده موجود ناحيتي الجنوب والشمال. في تلك الليلة، اكتشف تريستان أن هذا البلد من شدة هزاله، لا شرق فيه ولا غرب.

نام فجرًا وخريطة إقليمية بين يديه وسبابته تشير إلى أرض واسعة ملونة بلون القهوة. لقد حسم قرراه. سيكون مخبأه في الشمال، وتحديدًا في صحراء أتاكاما.

بينما يعلق في حالة من الرضا ويشعر بأنه خفيف كالهواء، تخلص من كل الأشياء المادية التي قد تُثقل هروبه. باع ما تمكن من بيعه وأهدى البقية واشترى تذكرة «القطار الطولي الشمالي». كُتب عليها: «تذكرة لا كاليرا-إيكيلي. 23 يناير 1961 في الرابعة عصرًا».

إنها تذكرة ذهاب بلا عودة.

واشترها حتى إيكيلي، الوجهة الأخيرة للقطار. مع ذلك، تمثلت خططه في النزول في وسط الصحراء، في أكثر قرية ضائعة قد يجدها في طريقه، لكيلا يعثر عليه أحد.

وهناك، سيجد ملاذه.

ويعيش كناسك.

بعد خمسة عشر يومًا من طعنة «الخبیثة»، في يوم الإثنين الموافق الثالث والعشرين من يناير، نحو الساعة الواحدة، استقل تريستان القطار المتوجه من محطة «مابوتشو» إلى «لا كاليرا»، فمن هناك تحتم

عليه أن يستقل «القطار الطولي الشمالي»، أو «إل لونجينو»، كما دعاه الناس. بدأ تريستان رحلة ستغير حياته إلى الأبد، على متن ذلك القطار ذي المسار الضيق، في إحدى عربات الدرجة الثالثة بأوضاعها الشاقة. سار القطار بالبطء الذي قد يدور به كوكب وتوقف في كل واحدة من المحطات. يبلغ عددها، وفقاً للمعلومات التي عثر عليها في إحدى الخرائط، مائة واثنتين وأربعين محطة تمتد على مدار ألف وسبعمائة كيلومتر نحو إيكيلي. صعد الركاب منها جميعاً ولم ينزل أحد، فازدحمت بأكبر من طاقتها.

بدأ القطار، مع شروق الليلة الأولى، يترك وراءه الحقول الملأى بالأبقار الصغيرة والفلاحين مُنحنيي الظهر وتوغل في الأراضي التي تمتد فيها الصحاري، ووسط تقدمه عبر جنوب الوطن، أطاح بكل الخضرة. حين انتصفت الظهيرة بدا المشهد كأن كل شيء قد صار أرضاً جرداء كبيرة لا نهاية لها.

لم يتغير المشهد، كأن أحداً قد لصق صورة للصحراء على كل النوافذ، فأعطى انطباعاً بأن القطار لا يتقدم بأي شكل ملعون.

جاء العوض عن كل هذا ليلاً، حين اخترق القطار عتمة الصحراء. احتاج الأمر إلى أن يحدق مسافر واحد فحسب إلى نورانية السماء كي يقترب كل الباقين من النوافذ ويندهشوا من المشهد المذهل الذي أهدته إليهم شفافية سماوات الشمال.

لم تسمح معنويات تريستان له بالنظر إلى النجوم، فمنذ استقل القطار، في اليوم السابق، التصقت صورة «الخبیثة» بذاكرته، كما التصق المشهد بنوافذ القطار. حينذاك، تذكر تحديداً مساء موعدهما

الأخير أمام «قصر الفنون الجميلة». وجدها غريبة. أم أن السماء التي اصطبغت بلون الألومنيوم هي من منحتها هذه الهيئة المُسْرَمة؟ لم ترد أن تركض معه في الحديقة وهي تمسك يده. لم ترد أن تفرد جسدها على العشب. اختارا في النهاية أن يجلسا بوقار فوق أحد المقاعد. وقبل أن تمر عليهما عشر دقائق وهما يتحدثان عن تفاهات، فكت زهرة المارجريتا من شعرها، وبدأت مذبحة البتلات بجنون أكثر من أي وقت مضى. فعلتها وهي تُدندن الموال نفسه؛ هذه المرة بعد تغييره: «أحبه كثيرًا / أحبه قليلًا / لا أحبه أصلًا / أحبه كثيرًا / أحبه قليلًا / لا أحبه أصلًا». حين قالت البتلة الأخيرة: «لا أحبه أصلًا»، وقفت وبكل هدوء، لكن مع إيماءة قاسية على وجهها، ووجهت له طعناتها.

قالت:

- أنا مغرمة بآخر.

ظل مشدوهاً.

حينئذٍ، وهي غير راضية عن هذا، لَفت النصل في أحشائه، حين شددت:

- مغرمة وحُبلى.

كلما تذكر هذا المشهد، انقبض صدره، ولكيلا يحدث له هذا في العربة، هز تريستان رأسه كما قد يفعل كلب مبتل. قال لنفسه: «كفى!»، وشرع يتأمل السماء، كالبقية، فاندesh، مثلهم من هذه السماوات الشمالية، بأجرامها السماوية التي تقدر بالملايين وبدت كأنها في متناول اليد.

من فرط إلهامه بهذه الرؤية الكوكبية، أمسك حقيبة كمانه برفق أمٌ ولدت للتو. تحدث معه ببطء، ثم أخرجته. سألته راكبة تجلس أمامه لماذا يتحدث مع أدواته الموسيقية كأنها كائن حي.

قال تريستان:

- لآلات الكمان أرواحها يا أنستي!

في تلك اللحظة، صعد القطار بمشقة تلاً رملياً شاسعاً. تقدم ببطء شديد إلى درجة أن بعض المسافرين، نزلوا للسير إلى جوار العربات، لفرد سيقانهم. ومع أن تريستان علم أن هذا التصرف ليس ملائماً، فقد وقف وأسند آلتة الموسيقية بين كتفه وطرف ذقنه، وضبط وضعيته بلمسة أخيرة خفيفة، وشد أوتار الكمان قليلاً، وبدأ يعزف سوناتا لباجانيني.

تغيرت أجواء العربة، أمام سحر الموسيقى، إذ توقف الركاب عن الحديث، وعن تناول الطعام والنوم، وتعجبوا من الجموح الذي عزف به تريستان على كمانه، فيما يتمشى ويتلوى عبر الممر. صعد من نزلوا. وهناك، تكدسوا وهم مقشعرون من فرط الإحساس، وأنصتوا إلى موسيقاه بصمت مهيب، كأنها موسيقى مقدسة، وسالت الدموع من أعين بعض النساء.

في صباح اليوم الثالث، صدر خوار أجش من القاطرة لدى مرورهم عبر محطة مهجورة، فتبينوا أنهم دخلوا إلى أعوص ما في هذه الصحراء: بامبا الملح الصخري؛ الأراضي المتوجة بالقصص الدامية.

بعد أن أصابهم وهن الملل، التصق الركاب بالنوافذ بوجوههم المتربة وملابسهم الذابلة، وهم يحاولون تشتيت أذهانهم عن عفن الحمامات واستيائهم من ضيق مقاعدهم الخشبية، بعد أن تداعوا من دخان القاطرة الذي تسلل إلى العربات. وكل هذا، من دون أن نذكر الرجرجة الرتيبة لتقدمه اللانهائي؛ صوت «تراك، تراك»، الذي ظل يثقب جماجمهم كأحد أشكال التعذيب الصيني.

حين انتصف الصباح، لم يعد المشهد ثابتاً كصورة، ولم يعط انطباعاً بأن القطار ثابت، فالآن وهم يجتازون مناطق الملح الصخري، ظهرت بين الحين والآخر مقابر منسية وبقايا مستوطنات ملحية بدت بتلال رواسبها ومحطاتها الصناعية، كسفن عالقة وسط الرمال.



نحو الثانية عشرة ظهرًا، توقف القطار في محطة وسط العدم. لهثت القاطرة العجوز التي تعمل بالفحم كأنها بغلة. بدت على وشك الانفجار من شدة العطش. لماذا توقفنا في هذه الأراضي الجرداء؟ هكذا تساءل البعض، فقال أعلم من فيهم: هنا تتزود القاطرة بالماء.

عربة تريستان هي قبل الأخيرة في موكب من تسع عربات. لم ينزل أو يصعد أي راكب في المحطة الصغيرة. لم ينتظر أحد فوق الرصيف، باستثناء عجوز يجلس على مقعدها الوحيد، وعلى الرغم من حر الكلاب هذا، فقد ارتدى بدلة مقلمة عفا عليها الزمن، بما فيها سترتها الداخلية، مع حذاء من الجلد اللامع. أمام العجوز لافتة بحروف خشبية يُمكن للمرء أن يقرأ عليها كلمتي «محطة Mirage».

درس تريستان شيئاً من الفرنسية فترجم اسمها على الفور: «محطة السراب».

من فرط تحمسه لاسم المحطة، نزل تريستان ليتفقد الأنحاء. إنها منتصف الظهيرة.

ساعة الصحراء التي تخلو من الظلال.

كان المنظر البانورامي الذي انفتح أمام عينيه باهرًا، فتحت السماء ذات الزرقة المفزعة، امتدت الصحراء بلونها الذي يُشبه العظاء وصخورها التي تشققت من الحرارة، وراء أفق الهضاب الجرداء.

حقًا، لم أخطئ. هذا ما فكر فيه تريستان.
هذا فعلًا كوكب آخر.

ذات لحظة، وهو يُظلل عينيه بيديه، التفت ناحية الشرق وحينذاك
رأها! بدت تلك البيوت الصغيرة من بعيد كأنها يمام منثور هنا وهناك.
أراد أن يسأل العجوز صاحب البدة المقلمة عن اسم القرية، لكنه كان
قد اختفى. لم يظهر في أي مكان. هل جعله السراب أو إنهاك الرحلة
يرى أشباحًا؟

سأل مفتش القطار. أجاب الرجل: اسمها «النعيم السامي»، وهي
مستوطنة ملح صخري. بدت لتريستان كأكثر قرية صغيرة مهجورة
على وجه الأرض.

قال لكمانه: هذا هو المكان.

هنا، حتمًا، لا تنمو زهور المارجريتا.

شرب تريستان رشفة من زمزميته التي ملأها للتو من المحطة.
بلل قفاه قليلًا. نظر إلى السماء. قد يمنح الإنسان، وسط هذه الهضاب
المضطربة، وفي هذه الساعة من النهار، أي شيء من أجل ظل صغير
لسحابة. مع ذلك، ارتضى بإخراج آخر برتقالة من حقييته، ومضى في
طريقه وهو يقشرها بأسنانه.

عند مدخل القرية (لأنه لم يلق بها تسميتها مستوطنة)، تعجب من
أنه لم يسمع نباح كلاب أو صرخات أطفال يلعبون، فهذا أول ما يراه
ويسمعه أي غريب عند مداخل القرى الصغيرة. حين تقدم عبر ما يبدو

شارع القرية الرئيسي، الترابي، اقشعر بدنه من شعور مفاده أنه يدخل مكاناً لا يعرف ما إذا كان مقدساً أم ملعوناً.

خلت البيوت من الأبواب والنوافذ، بل افتقر بعضها إلى الأسقف. سمع نفسه يقول وهو يشعر بلاطمأنينة داخل صدره: «لا وجود لأحد هنا». بعدئذٍ، تذكر أنه قرأ عن مذابح العمال التي جرت في أراضي الملح الصخري، وتخيل أن هذا قد يكون من ضمن الأماكن المشؤومة التي قتلوا فيها الجميع.



حين توغل في القرية، أدرك تريستان أن الزمن والصمت والوحدة هم سكانها الوحيدون. وصل وروحه ساقطة بين قدميه إلى المكان الذي كان سلفاً ساحة للقرية. لم تبق منه إلا بضعة آثار. بعض المقاعد الحجرية الخربة، وهيكل لشجرة خروب فحمته الشمس، وبضع سلاسل لأراجيح تتدلى من قوس حديدي صدئ. مع ذلك، وسط هذه البقايا، ظهر كُشك لعزف الموسيقى من دون أن يمسه سوء. إنه الشيء الوحيد الذي أوحى بأن هذه الأرض البائرة كانت ساحة.

زأرت الشمس فوق رأسه، فيما بدأ الظل، كأنه عنكبوت أسود، ينبت من تحت الأحجار. فكر تريستان في أن الدور العلوي للكشك أفضل مكان لتناول غدائه. بمجرد أن صعد، تفقد حقيقته. تبقى معه خبز بالمورتاديل، وكيلو من الطحين المحمص. سيغدو الخبز غداءه.

جلس فوق الأرضية وأسند رأسه إلى إحدى العوارض الخشبية وأغلق للحظة عينيه، كأنه يصلي. بعدئذٍ، وبأقصى درجات الاعتدال، بدأ يفك لفافة الخبز. أمسكه بيديه وتفحصه بضع ثوان، كأنه يبحث عن نقطة معينة لقضمه. بداية من تلك اللحظة، ظل بين كل قضمة وتلك الأخرى،

ينظر إلى نقطة ما وسط الهواء، وهو يمضغ، ويزدرد، ويبلغ، بدقة ساعة سويسرية.

فرغ تريستان من تناول رغيف الخبز بالمورتاديللا، وهو يستمتع بكل قطعة صغيرة من فتاته، من دون أن يترك واحدة منها تسقط على الأرض، كأنها رغبته الأخيرة قبل تنفيذ حكم الإعدام بحقه. بعدئذٍ، تهيأ لينام القيلولة.

تساءل تريستان عما سيفعله الآن، وجسده مفروود على الأرض الخشبية، وهو يعقد يديه فوق صدره، وكمانه إلى جواره، كأنه زوجته، هل سيذهب إلى الطريق السريع فوراً؟ أم سينام هنا ليرحل غداً؟ فكر، بعد أن أغمض عينيه، كيف سيبدو العزف في حفل بكمان على مسرح كهذا: في الدور العلوي من كشك خشبي لا يزال قائماً وسط ساحة قرية شبحية، في أوحش صحراء في العالم. قال لنفسه: لا بد أنه شيء رائع. عليّ أن أفعلها.

بعد أن صار في الدهليز الواقع بين اليقظة والنوم، تراءت له «الخبیثة». لم يعرف، وهو عاجز عن فتح جفونه، ما إذا كان يحلم أم يتذكر اللحظة التي عرفها فيها. ثمة شُرفة لمقهى، بالقرب من «متحف الفنون الجميلة». كل الموائد مشغولة، وهي بمفردها، تحتل واحدة بمقعدين. بدت جميلة بقميصها الأثني الأبيض وأنفها الأنوف والمارجريت المتدلية من شعرها الأشقر. مضى هو، بكمانه فوق كتفه، وشعره الأسود الذي طيرته الريح. هل يمكنني أن أجلس معك؟ رمقته بنظرة عالمة حشرات، ثم قالت:

- لو خمنت اسمي.

وبسبب الزهرة المربوطة في شعرها، أجاب:

- مارجريتا.

باغتته بنسبها ولقبها وقالت: مارجريتا إتشوارّين بالديبييسو.

الآن، غلبه النوم...

فتح تريستان عينيه. استغرق بضع ثوان لإدراك أين هو. أخبرته السماء المسائية بأنه ليس وقتاً مناسباً للانطلاق نحو الطريق السريع. فكر: عليّ أن أبيت هنا. لكن أين المشكلة إن كانت كل بيوت القرية تحت أمره؟

نهض. تمكن عبر الجزء العلوي من الكشك من رؤية أسقف خمسة شوارع شكلت المستوطنة. وراء البيوت، جنوباً، لا وجود إلا لسهوب البامبا، والأراضي الجرداء، والعدم. شمالاً، الشيء نفسه. شرقاً، المجمع الصناعي بورشه المفككة وآلاته الصدئة، ومحطتا تصنيع ضخمتان، ومن ورائهما تلة الرواسب المعهودة. برز بيت كبير غرباً، مزود بملعب تنس، لا بد أن المدير قد شغله في أيام مجد الملح الصخري. (فكر: سأنام هناك). وراء البيت ظهرت محطة القطار، ومن بعدها شفق هائل في منتصف السماء.

حينئذٍ، أخرج كمانه من حقيبته. لا بُد أن العزف على مسرح كهذا سيبدو كأن يعزف المرء للكون نفسه، هكذا فكر تريستان بصوت مرتفع. ملأته الصحراء بالطاقة. شعر بأنه قادر على استخدام الكمان بأقصى إمكانياته. بحث في فهرس ذاكرته عن ملحن وعمل يليق بهذا المسرح، وبالطبع، لم يجد إلا باجانييني. بالنسبة إلى المقطوعة الواجب عزفها فهي «النزوة الخامسة للكمان المنفرد»، وهي واحدة من أجمل

وأصعب السوناتات عزفًا، وتحد متكامل لأي عازف محترف، وتحديدًا لعازف مثله، حديث التخرج من معهد الموسيقى. ومع ذلك، فهو حاصل على أعلى الدرجات وتنفس معلموه الصعداء حين رأوه يرحل. اعتاد أن يقول بعضهم: من الصعب أن يُعلم المرء عبقرياً.



بينما يواجه الشفق، يضع تريستان الكمان بين كتفه وذقنه ويهمس له:
- مع أنني لست باجائيني، ومع أنك لست جوارنيري وأنا حاولنا مائة مرة الوصول إلى الكمال الفني الذي تتطلبه هذه المقطوعة، فدعنا الآن وهنا نحاول مرة أخرى.

يرفع قوس الكمان ويبدأ في العزف.

بينما تتساقط خصلات شعره السوداء على وجهه الذي يغمره انعكاس الشفق، يعزف تريستان على كمانه بدقة وسرعة وعنف، وهو يتحرك بمهابة محمومة؛ أحياناً، بنعومة الحرير، وفي مرات أخرى كأنه يضرب أدواته بهراوة، فيُعطي انطباعاً بأنها قد تتفجر في أي لحظة من شدة نقاء الموسيقى. كلما عزف تريستان شيئاً لباجائيني، عانى هذا التحول الذي يبدو أنه يجعله على اتصال مع «عازف كمان الشيطان» نفسه.

ينطلق ويتواثب ويتلوى بجسده كأنه ممسوس، وفي أسرع اللحظات تجعل يُمناه القوس يطفر فوق الأوتار، فيتواثب في السلم الموسيقى فجأة من نغمة منخفضة إلى أخرى مرتفعة، أو من واحدة مرتفعة إلى ثانية منخفضة، فيما تظهر أصابع يسراه تمرسها في عزف المقطوعة وهي تتحرك سريعاً كرفرفة طائر الطنان.

من دون أن يتوقف عن التلوي، وهو على وشك إكمال مدة المقطوعة البالغة دقيقتين وأربع ثوان، ينقطع أحد الأوتار. لا يرتبك تريستان.

يستمر في العزف (ففي جزء من الثانية يتذكر أن باجانياني انقطعت منه ثلاثة أوتار وأنهى عزف المقطوعة بوتر واحد). حين تصدر النغمة الأخيرة من كمانه وتقفز كشرارة وسط الأجواء الشبحية لهذه القرية المهجورة، يسمع أحداً وهو يُصفق له.

يشعر بقشعريرة متعرجة تسري في جسده.

ينظر إلى الأسفل، فيجد رجلاً يتشح بالسواد ينحني له موقراً.

غرباً، كان الشفق قد استنفد آخر بصيص له من الضوء. شرقاً، نزل وابل من الظلام، منزلقاً على منحدر تل الرواسب، ليغطي القرية. لقد حل الليل الآن على «النعيم السامي».

بعد أن أدخل كمانه في حقيبته الصغيرة وهو في أعلى الكشك، يقضي تريستان وقته وهو يرتب حقيبته الشخصية من دون أي ضرورة لذلك أصلاً. افترض أنه بمفرده في قرية مهجورة وفجأة يظهر له رجل يتشح بالسواد! هل جلب له سحر موسيقى باجانياني الشيطان نفسه؟ تتنازع رجفتان داخله، الأولى رجفة بهجة، إذ يشعر بأن هذا أفضل أداء له لمقطوعة «النزوة»، أما الثانية، فرجفة خوف. يتذكر تريستان أنه إبان مراهقته، تخيل نفسه كثيراً وهو يعقد صفقة مع الشيطان، مثل باجانياني، ولهذا الآن يكاد أن يُبلل بنطلونه. في النهاية، يحسم قراره. يبدأ، وكمانه في يده وحقيبته في اليد الأخرى، ينزل ببطء، درجة تلو الأخرى.

انتظره الرجل عند نهاية السلم. ارتدى معطفاً أسود طويلاً يصل حتى ركبتيه ولمع حذاؤه، الأسود أيضاً على الرغم من تراب الشوارع. إنه رجل طويل، عظامه بارزة، وأنفه معقوف، ونظرته فاحصة. مع ذلك، ما أقلق تريستان هو شحوبه الذي يليق بجثة وهذان التجعيديان المرسومان

في جبينه كعلامتي الـ «ff» الموجودتين في آلات الكمان. حين تحدث،
بدا صوته كأنه يخرج من مَريئه.

سأله:

- باجانيني؟

- ماذا؟

- سألتك ما إذ كانت الموسيقى التي عزفتها لباجانيني.

قال تريستان باندهاش:

- أجل، بالطبع.

- آها!

- هل تحب موسيقى باجانيني؟

- لم أسمعها إلا حين عزفتها حضرتك وقلت لي إنها لباجانيني.

- وكيف عرفت حضرتك أنها لباجانيني؟

- لأنك تشبهه جسدياً.

- وما الذي تعرفه عن باجانيني؟

برقت في عين الرجل نظرة لا تصدر إلا من مُحب.

- انظر يا حضرة الشاب، إذا كنت تسألني عما أعرفه عن نيكولو

باجانيني بوتشاردو، أشهر عازف كمان إيطالي على الصعيد

العالمي؛ العازف الذي أكدوا أنه عقد صفقة مع الشيطان، العازف

الذي لا يتكرر والذي تمكن في إحدى حفلاته من عزف مقطوعته

الشهيرة «حركة دائمة. العمل الحادي عشر»، بسرعة لا تُصدق هي

اثنتا عشرة نغمة في الثانية؛ لو أن حضرتك تتحدث عن باجانيني

هذا، فأني نعم: ثمة ما أعرفه عنه.

في ظل حيرته، أراد تريستان أن يستمر في توجيه أسئلته، لكن الرجل رفع يده. إن كانا سيستمران في الحديث عن باجانيني، فمن الأفضل أن يذهبا إلى بيته.

- سادعوك إلى شرب الشاي!

«أعيش هنا». قال الرجل عبارته أمام البيت الكبير المزود بملعب تنس. انبثق خيالان أسودان من وسط ظلام المدخل المسقوف، حين سمعاه يتحدث، واستقبلاه بكثير من الفك والأنين. ساد ظلام دامس إلى درجة أن المرء لم يكن ليرى يديه. افترض تريستان أنهما كلبان، مع أنهما لم ينبحا. وبمجرد أن همهم الرجل بعبارة: «اذهبا للنوم!»، اختفى الظلان.

أخرج الرجل كشافاً من جيب معطفه الأسود الطويل الواصل إلى ركبتيه، ووجه فيض نوره إلى الأعلى، ثم فك أداة غريبة معلقة في مسمار الإفريز العلوي. إنه مصباح كربيدي⁽¹⁾. أخرج من جيبه الآخر علبة ثقاب. بعد أن وضع الكربيد في المخزن السفلي، والمياه في المخزن العلوي، أشعل عود ثقاب وقربه من الموقد.

توهج المصباح.

استغرق العجوز ثانيتين في ضبط الشعلة، تمكن خلالهما تريستان من رؤية شيء ما عند أحد جانبي المدخل المسقوف يبدو كومة من الخردة القديمة.

(1) مصابيح بدائية تنتج وتحرق غاز الإسيتيلين، الذي ينتج عن تفاعل كربيد الكالسيوم مع الماء. (المترجم).

قال الرجل: مرحباً بك في داري، ودخل البيت وهو يرفع المصباح. ظلت رائحة الكرييد القوية تُرفرف في أنف تريستان.

فكر: إنها تلتصق بالأنف كرائحة الكبريت!

من الخارج، بدا البيت مهيباً، غير أنه أعطى انطباعاً من الداخل بأنه كان مركزاً للزلازل. الصالة الواسعة التي احتلها الرجل هي الجزء الوحيد القابل للسكن في البيت. أرضيتها خشبية، كحال سقفها المصنوع من عوارض غليظة ظاهرة كلها من خشب صنوبر أرويجون. علق الرجل المصباح فوق عقافة مثبتة في العارضة الوسطى وقال:

- خذ راحتك هنا يا حضرة الشاب. سأغلي الماء.

ترك تريستان حقيبة ظهره وأسند كمانه إليها وارتمى بجسده فوق مقعد صالون جلدي بلون القهوة. كان مهترئاً إلى درجة أنه غطس فيه بالكامل. من مكانه، في أعماق المقعد، بدأ يتفقد ما حوله كمنظار كاشف للأفق: الصالة المطلية بالأبيض لها ثلاث نوافذ تطل على الشارع. قدر -سريعاً- مساحتها بثمانية أمتار من كل جانب. أثاثها زهيد، لكيلا نقول بائساً. الركن الأيسر، هو المطبخ. وقف العجوز حينذاك هناك وهو يُشغل موقداً صغيراً يعمل بالبارافين، ووضع عليه إبريقاً شديد السواد مثل معطفه. إلى جوار الموقد ظهر برميلا زيت يُخزن فيهما الماء. إنهما من تلك البراميل التي تبلغ سعة الواحد منها مثلي لتر. علم تريستان وظيفتهما لأنه رأى الرجل يصب الماء من أحدهما في الإبريق. أيضاً، ظهرت خزانة لم تصنع إلا بالمنشار والمطرقة فحسب لتخزين أدوات الطبخ. اكتمل الأثاث بطاولة خشبية مزودة بمقعدين شديدي القُبح كحال الخزانة.

من المدخل ويميناً، تقع غرفة المعيشة. فيها طاولة صغيرة مصنوعة يدوياً ومقعدا صالون جليديان بلون القهوة لا بد أنهما كانا فارهين وهما

في أيام عزهما. الركن الواقع في نهاية الصالة هو غرفة النوم. برز هناك فراش من الحديد المصقول، وصندوق ديناميت استُخدم ككومود، وثلاث حقائب خشبية ارتصت فوق بعضها. في يسار الركن الواقع في نهاية الصالة، ثمة غرفة مبنية من مواد خام خفيفة. تنتشر بوضوح عن بقية الهيكل البنائي للدار. لم يتخط حجم الغرفة الصغيرة، التي بالأصح قد تغدو مكانًا للتخزين، ثلاثة أمتار عرضًا في أربعة أمتار طولًا. أضفى قفل يحرس بابها الصغير لمسة من الغموض عليها، فجعل تريستان منها لغزه.

وضع الرجل، الذي لم يخلع معطفه أو يقبل مساعدة ضيفه، الخبز والجبن فوق المائدة، وحضر قدهين. ألقى بحفنة من الشاي السائب في كل منهما، ثم صب فوقهما الماء المغلي، فصار الشاي جاهزًا. جلس مُدمنًا الصمت، من دون أن يتحدث، إلى المائدة، وكل منهما وجهه إلى الآخر. في بعض الفترات، نظر كل منهما إلى الآخر بطرف عينيه، لكنهما لم يقولوا لبعضهما شيئًا. لما فرغ تريستان من شرب الشاي، انتظر برهة أخرى وهو ينظر إلى السقف، ثم شكره في النهاية وقال إنه حين كانا في الساحة لم يرتض بإجابة قالها ردًا على أحد أسئلته، ولم يفهمها.

- آها! هات ما عندك يا حضرة الشاب!

- كيف علمت أنها مقطوعة لباجانيني إن لم تكن قد سمعت موسيقاه قبلئذٍ قط؟

نهض العجوز من أمام المائدة، وأشار بيديه كأنه يطالبه بالصبر ورفع القدهين.

- إن كنا سنستمر في الحديث عن باجانيني، فمن الأفضل أن نجلس في غرفة المعيشة.

بينما يغطس كل منهما في مقعده، وهما في مواجهة بعضهما، أخرج العجوز من الجيب الداخلي لمعطفه الأسود الطويل الواصل حتى ركبتيه، علبة من سجائر «بارتيكولاريس»، ثم أخرج من جيبه الآخر علبة ثقاب وأشعل سيجارة. استند بظهره إلى المقعد ونفث ثلاث حلقات مثالية من الدخان. حينذاك، أدرك أن عدم عرض سيجارة على زائره، قد ينم عن سوء التربية.

قال تريستان:

- لا أدخن. شكرًا.

اعتذر العجوز:

- إنها إحدى عادات أن يعيش المرء بمفرده، ولسنوات كثيرة.

- كم عامًا؟

- عشرون عامًا. وبخصوص سؤالك يا حضرة الشاب، فعليًا أن أقول إنني وجدت وجه شبه بينك وبين باجانيني، وليس بدنيًا فحسب، وإنما بسبب السرعة التي أدت بها المقطوعة، التي بدت معقدة جدًا، وبسبب الطريقة التي جعلت بها القوس يتوالت فوق الأوتار، بل وبسبب قفزاتك نفسها، والتواءاتك، وشعرك الأسود الساقط على وجهك. تجعلك كل هذه الأشياء شبيهًا بباجانيني، وكما ينتهي رسم الصورة، فإن آخر شعاع للشفق أحاطك بهالة قد تدفع المرء إلى التساؤل ما إذا كان من يعزف الكمان في الأعلى ملاكًا أم شيطانًا. وهو ما حدث مع باجانيني نفسه.

- في ظل التفاصيل التي تحكيها لي يا حضرة الدون، سيقول أي شخص إن الحظ قد أنعم عليك بالتعرف إلى باجانيني شخصيًا. هل هذا صحيح؟

ظل الرجل صامتًا. ضبط ياقة المعطف، كأنها تزعجه، وارتسمت ابتسامة صغيرة شاحبة تَغْضُنَ وجهه معها، فظهر معًا التجعيديان الموجودان في جبينه اللذان يشبهان علامتي الـ«ff» الخاصتين بآلات الكمان.

قال:

- محاولة جيدة منك، أليس كذلك؟ ليتني عرفته! لكن لا. أنا لست عجوزًا إلى هذا الحد.

- كيف يُمكن لحضرتك إذن أن تقدم تفاصيل شديدة الدقة عن باجانيني، مثل أنه جعل قوس العزف يتواثب فوق الأوتار، ومسألة إيماءاته والتواءاته وهو يعزف، وأن خصلات شعره الأسود تساقطت على وجهه، إن لم تكن قد رأيته يعزف شخصيًا؟

- حسنًا يا حضرة الشاب، اسمح لي أنا أن أوجه إليك سؤالًا: هل كل ما قلته عن باجانيني حقيقي أم اختراع مني؟

- وهنا مكنم العجب! كل ما قلته صحيح.

ارتسمت مرة ثانية ابتسامة صغيرة شاحبة على وجه العجوز وقال:

- وكيف تعرف حضرتك أنه صحيح؟ رأيت باجانيني ذات مرة وهو يعزف؟

أدرك تريستان ما يرمي إليه الرجل: «لو أنني قد تعلمت هذا في قاعات الدراسة، فما الذي قد يمنعه من أن يتعلمه بنفسه بمجرد القراءة؟ يبدو من مفرداته أنه كان قارئًا عظيمًا».

- هل تعزف الكمان يا حضرة الدون؟

- لا.

- وكيف يمكنك التمييز بين أداء جيد وآخر سيئ؟

قرب العجوز وجهه من وجه تريستان، كأنه سيأتمنه على سر وهمس له:

- لأنه مع الكمان، يا حضرة الشاب، يوجد احتمالان فحسب: إما أن

يكون العازف عظيمًا، وإما أن يكون شنيعًا. وأنت لست بشنيع.

قلده تريستان:

- آها!

لم يعرف تريستان إلى أين عليه أن يمضي بتفكيره، فالرجل الموجود أمامه الذي يجلس معه بمفرده في قرية مهجورة، في قلب الصحراء، وسط الليل، ربما يكون مجنونًا حكيمًا، أو شبح باجاني، أو الشيطان نفسه شخصيًا. في تلك اللحظة، انفتح الباب فجأة إلى درجة أن تريستان وثب من فوق مقعده من فرط الرعب.

إنهما كلبان أسودان.

أحدهما أسود من الآخر.

قال العجوز:

- صار هذان الاثنان جائعين!

ومن دون أن يقطع بأصابعه، ومن دون أن يُخاطبهما بصوت آمر ولا نبرة متسلطة، بل ومن دون أن ينظر إليهما أصلًا، قال لهما أن ينتظراهما في الخارج. استدار الكلبان فورًا، وهما يطأطان رأسيهما، وخرجا، لكن حتى الباب فحسب. وقفا هناك ولويا رأسيهما وظلا ينظران إليه. ذهب

الرجل إلى ركن المطبخ، وعاد ومعه طنجرة سوادها شديد كالإبريق.
تركها لهما عند مدخل البيت المسقوف وعاد ليغطس في مقعده.
أخرج العجوز مرة ثانية علبة سجائر «بارتيكولاريس». سحب النفس
الأول وبعد أن نفث ثلاث حلقات، غيّر الموضوع:

- عثرت عليهما عند مدخل الكنيسة وهما لا يزالان جروين. تركوهما
في علبة أحذية. لم ينبجا قط. حالفني الحظ، لأنني من كثرة
السنوات التي قضيتها بمفردي، كنت قد بدأت أنسى الكلام.
أتحدث الآن معهما عن أي شيء. أحكي لهما أكاذيب وأبتكر لهما
نكات. يرفعان آذانهما وينصتان إليّ. مع ذلك، أحاول ألا أوجه
إليهما أسئلة، لأنني حين وجهتها إليهما ظلا يحدقان إليّ بأعينهما
اللامعة وشعرت برعب مرده إلى الارتداد الوراثي ومفاده أنهما
على وشك الرد عليّ.

سأل تريستان، لمجرد السؤال:

- ما اسمهما؟
 - من؟
 - الكلبان؟ هل لهما اسمان؟
- قال العجوز بوقار تربوي:
- ألا تعتقد يا حضرة الشاب أننا يجب أن نتعارف أولاً، إكراماً
لـ«دليل كارّينيو»⁽¹⁾؟ لم نقل لبعضنا اسمينا بعد.

(1) كتاب من تأليف الفنزويلي مانويل أنطونيو كارينيو وعنوانه بالكامل «دليل التحضر والأخلاق الطيبة» ويقدم دروساً ونصائح حول السلوكيات في الأحداث العامة والخاصة. (المترجم).

أقر تريستان بأنه محق وقدم نفسه:

- اسمي تريستان سان مارتين. يسمونني تريستان الحزان. أنا من العاصمة وأستاذ موسيقى لم يمارس هذه المهنة بعد. الآن، أرى نفسي هائئاً.

كرر العجوز:

- تريستان الحزان. اسم جيد لعازف كمان ماهر.

سأل تريستان بخوف واضح:

- وحضرتك؟

في ظل تركيزه على فكرة الشيطان، حسب تريستان أن العجوز سيجيبه: «اسمي لوزبيل أو لوسيفر أو إبليس أو أيّاً كان الاسم الملعون الذي تود أن تناديني به. مع أن «الملعون» أيضاً من ضمن أسمائي».

بعد فترة من الصمت، لف الرجل رأسه ليسعل. بصق ثم رفع طرف ذقنه وبصوته الأجش المنبثق من أحشائه، قال:

- اسمي أورسيثينيو!

لم يسمع تريستان هذا الاسم قبلئذٍ قط، وظل يفكر: أهو اسم آخر للشيطان؟

عاد العجوز مرة ثانية إلى الصمت، بعد أن قدما نفسيهما. حظي تريستان بانطباع مفاده أن العجوز لا يروقه قول اسمه، وإنه لربما فضل أن يظل مجهول الهوية.

سأله بنبرة تصالحية لإخراجه من تقوقعه على ذاته:

- والكلبان؟

جفل العجوز:

- ما مشكلة الكلبين؟

- ما اسمهما.

تنهد دون أورسيثينيو باستسلام:

- أحدهما اسمه 27 أكتوبر والآخر، الأكثر سوادًا، 27 مايو.

ظل تريستان مشدوّهًا. أيسخر العجوز منه؟ بعد صمت استمر برهة، سأله بحذر ما إذا كان هذان التاريخان قد اختيرا عشوائيًا أم أنهما يرتبطان بشأن يخص الكلبين. نفى دون أورسيثينيو بقوله: «لا، فهذان هما تاريخا ولادة ووفاة نيكولو باجانيني. ليرقد في سلام!».

أمام تعجب تريستان، الذي ظل ينظر إليه كأنه كائن فضائي، قال العجوز بنبرة تشوبها السخرية إنه لم يضيف العام المرتبط بكل واحد من التاريخين لكيلا يغدو الاسمان مفرطين في الطول.

ثم أردف:

- أقصد بصفتها اسمين لكلبين.

بعد الصمت الذي استقر بينهما، كجدار زجاجي، تحرك دون أورسيثينيو في مقعده، وأخرج من جيب معطفه الأسود الطويل الواصل حتى ركبتيه ساعة من ماركة «لونجين»:

- منتصف الليل صار وشيكا.

كان رأس تريستان قد بدأ يترنح، لكنه اعتدل في جلسته منتفضًا.

قال العجوز:

- جهز لنفسك فراشًا بضم مقعدي الصالون.

- لدي حقيبة نوم. شكرًا.

- كما ترغب يا حضرة الشاب. أوصيك فحسب ألا تضع حقيبة النوم على الأرضية، فثمة جائحة من فئران الحقول التي تدخل من كل الأماكن ليلاً وقد تأكلك حيًا، حتى وإن استخدمت الحقيبة. أنزل المصباح من فوق العارضة.

- عليّ أن أخرج الآن. سأترك لك هنا شمعة وعلبة ثقاب. شكره تريستان وقال له إنه سيمضي في طريقه غداً، وسيُبكر في خروجه لأن الطريق السريع بعيد نوعاً ما. - وهذا لمحاولة استباق الشمس كما تعرف. لكن العجوز خرج من دون أن يقول شيئاً.

بمجرد أن اجتاز دون أورسيثينيو الباب، انقضّ تريستان على حقيبة ظهره، وأخرج من أحد جيوبها خنجرًا وكشافًا. الليل حالك بقدر سواد معطف دون أورسيثينيو الذي سار بهدوء مسترشدًا بضوء مصباحه، كأنه ذاهب في نزهة. رافقه كلباه وكل منهما على جانب، وهما صامتان كالليل نفسه. افتقرت كل البيوت إلى الأبواب، إلى درجة أن تريستان تبعه، عبر الاختباء فيها، وقلبه يدق في صدره كمطرقة.

حين مر أمام كشك الموسيقى، رفع العجوز مصباحه كأنه يسعى إلى إنارة جزئه العلوي. بعدئذٍ، استمر في مسيرته. تبعه تريستان على مسافة قصيرة. رآه يصل إلى قوس مدخل الكنيسة وسمعه يأمر الكلبين بانتظاره في الخارج، ورآه وهو يرفع مصباحه ويدخل ما بقي من بنايتها.

لماذا الكنيسة؟ لماذا في منتصف الليل؟ ما الذي سيفعله هناك؟ تراجع تريستان لأن دخول الكنيسة مخاطرة، وبدأ يمشي في منتصف الشارع كما فعل العجوز، لأنه قرر ألا يدخل أيًا من هذه البيوت مرة ثانية حتى لو مسه الجنون، بل لن يقترب منها أصلًا، إذ إنه كلما اختبأ في واحد منها، راوده إحساس بوجود أشخاص في الغرف الأخرى. لقد سمع همهمات وضوضاء أطباق، بل شعر بأن مريضًا إلى أقصى حد يسعل، وسمع بكاء طفل. خرج من هذا البيت راكضًا. لماذا قد يتسبب بكاء طفل وسط الليل في مكان منعزل في رعب كبير؟ بعد ثلاثين دقيقة، عاد العجوز. كان تريستان قد ضم المقعدين وجهاز حقيبة نومه عليهما وركد في وضعية جنينية.

قال دون أورسيثينيو:

- جميل! لقد أنصت إليّ! نوّمًا هنيئًا لحضرتك!

قبل أن يغمض عينيه مرة ثانية، انتبه تريستان إلى أن العجوز يرتدي تحت معطفه بدلة لا تشوبها شائبة، بسترتها وكل شيء. ما أقلق تريستان هو المضرب الذي أخرجه من تحت معطفه وتركه إلى جوار فراشه. بالنسبة إليه، فقد أخفى خنجره في مفصل المقعد الذي أركد عليه رأسه، بالقرب جيدًا من متناول يديه.

مع ذلك، نام وهو يشعر بالقلق.

في وسط الليل، بينما يتمرغ في نومه غير الهانئ، استيقظ تريستان على نغمات كمان رنت بنقاء في مسامعه. هل أخرج أحد ما كمانه؟ هل أعاره هو لأحد؟ لا. أبدًا. كمانه شيء مقدس. فتح عينيه. غرق البيت في الظلام. جلس. طقطق أذنيه. النغمات معزوفة بإتقان وتأتي من عند

المدخل المسقوف. قبل أن ينهض للمطالبة بتفسير، توقف الدخيل عن عزفه المتقن، لكن ما بدأ يسمعه لاحقًا تركه مشدوهاً.

إنها مقطوعة باجانيني نفسها التي عزفها في الساحة، لكن الأداء الذي استمع إليه كان بديعاً ورائعاً ورفيعاً. صوت كريستالي وفنيات مثالية بصورة شيطانية. كان من يعزف قد وقف إلى جوار النافذة المطلة على غرفة المعيشة، غرفته، كأنه أراد أن يتأكد من أنه سيسمعه. فكر تريستان ومشاعره تتراوح بين الرعب والانبهار في أنه إن لم يكن عازف الكمان صاحب هذه البراعة الموسيقية هو دون أورسيتينيو، الشخص الوحيد الموجود في القرية، فإنه لا يمكن أن يكون أحدًا إلا روح العظيم نيكولو باجانيني أو، من دون موارد، الشيطان بعينه. وحينئذٍ، غطى نفسه حتى رأسه.



استيقظ تريستان. لم يكن ضوء الصباح الأصفر قد تخطى زجاج نافذته بعد. لا بد أنها كانت نحو السادسة، وهي ساعة مبكرة جدًا للخروج إلى الطريق السريع. بينما يعدل من وضعيته لينام برهة أخرى، تذكر الموسيقى التي سمعها ليلاً. قفز من فوق المقعد ليتفقد آله. تساءل: هل استخدمها أحد؟ أمسك حقيبة الكمان ووضعها في حجره وفتحها. ها هو ذا كمانه: كامل، متكامل، وسالم، ولم يلحق به أي ضرر.

- هل كل شيء بخير مع كمانك؟

جفل تريستان.

ظل دون أورسيتينيو يُراقبه طوال هذا الوقت وهو يجلس إلى الطاولة منتظرًا أن يغلي الإبريق. لم يعد يرتدي بدلة العشيّة الأنيقة. ارتدى الآن

مبذلة عمل وبنطلون جينز باهتًا، وبدلاً من حذائه اللامع، ارتدى حذاء ضخماً قديماً.

- كل شيء بخير. شكرًا.

- تعال لتتناول الإفطار يا حضرة الشاب. لدينا خبز وجبن ومورتاديل.

نهض تريستان وهو ينظر إلى العجوز بشك. يتظاهر بالبساطة وهو عازف كمان استثنائي، وفنياته خارقة للطبيعة!

قال:

- أود أولاً أن أغسل وجهي.

ناولته العجوز طستًا وكوزًا.

- البرميل الأول فارغ، لكن الثاني فيه قليل من الماء. أعتقد أنه سيكفي.

نظر تريستان إلى البرميلين. غطتهما من الداخل طبقة سميكة من الأسمنت بكل تأكيد لإبقاء الماء منعشًا. وضع الكوز، واضطر إلى ملامسة القاع ليخرج بعضًا من الماء.

خرج عند المدخل المسقوف ووضع الطست فوق مقعد يستند إلى جدار. لم يعرف أن الكلبين ينامان تحته، فداس على ذيل أحدهما. تخيل عضة، بل بدا له أنه يشعر بها. مع ذلك، خرج الكلبان في صمت وتوجها بوداعة نحو كومة الخردة، ورقدا إلى جوار قارورة ضخمة بسعة خمسة عشر لترًا، وعربة جر تستند إلى الجدار.

بينما يصب الماء في الطست، رأى تريستان أنه موبوء. إنها عشرات الشراغيف التي سبحت بكل سعادة في الماء. وبهذا الماء يُحضر العجوز الشاي؟

مع أنها تبدو مثل الحيوانات المنوية!

لم يقدر على غسل وجهه. ألقى الماء على الأرض، ورأى لبعض الوقت الديدان وهي تتحرك، كأسمك خارج الماء.

قال تريستان، بعد أن جلس إلى المائدة بالفعل، إنه اليوم لن يشرب الشاي وسيكتفي بأكل الخبز فحسب.

- لا تعرف ما الذي تفوته يا حضرة الشاب. الشاي السيلاني هو أفضل شاي في العالم.

- ربما يا حضرة الدون، لكنه مثل كل أنواع الشاي مدر للبول، وعلى الطريق السريع، حين يمضي المرء وهو يرفع إصبعه كي تتوقف له السيارات، سيكون من المزعج جدًا أن يتبول كثيرًا.

- آها!

- ومن دون مناسبة يا دون أورسيثينيو، يتحتم عليّ الاعتراف بأن حضرتك عبقرى في الكمان. لا أفهم لماذا تتظاهر بعدم إجادتك للعزف عليه.

كان العجوز قد أخذ قسمة من شطيرته، وبينما يمضغها أخذ يهز رأسه نافيًا، وبعد أن بلع اللقمة، مع رشفة شاي، قال لا، إنه لا يُجيد العزف.

- إذن، هل يعيش شخص آخر هنا؟

- على حد علمي، لا.

- أفترض أنك سمعت الكمان في الليلة الماضية.

- أي كمان؟

- كيف لم تسمعه إن كانت قد عُزفت مقطوعة «النزوة الخامسة

للكمان المنفرد» لباجاني، وبفنيات تُثير الخوف!

قال دون أورسيثينيو بطمأنينة، ربما بطمأنينة زائدة:

- إن لم تدرك يا حضرة الشاب، فحضرتك الوحيد الذي لديه كمان هنا، والوحيد الذي يُجيد العزف عليه.

- هل حضرتك متأكد من أنك لا تجيد العزف؟

- انظر يا حضرة الشاب، لو أنني أعزف الكمان، وأعزفه بهذه الفنيات الرائعة التي نتحدث عنها، لم أكن لأصبح موجودًا في مصيدة الفئران هذه، وسط سهوب البامبا، وإنما سأتجول عبر العالم وأقدم حفلات.

- ولماذا تعرف معلومات كثيرة عن باجانييني؟

قال العجوز:

- ثقافة عامة، كما أخبرتك سلفًا.

ثم باغته ببراءة مصطنعة:

- هل أنت عازف كمان مسرّهم يا حضرة الشاب؟

فنظر إليه تريستان كأنه يقول: لا تكن أحمق يا حضرة الدون!

بعد صمت مزعج، ظلا خلاله يختلسان النظر إلى بعضهما، أصر العجوز:

- من المحتمل أيضًا أن يكون حلمًا.

بدا تريستان كأنه قد سلم له أذنه.

- وارد، أو ربما هي روح متألّمة، مثل الطفل الذي سمعته يبكي ليلاً.

- أي قصة هذه؟

حكى له تريستان أنه في الليلة الماضية أراد أن يتجول في القرية،

بعد أن خرج هو مع كلبه، وأنه دخل بيتًا بدافع الفضول الصرف، وسمع

طفلاً يبكي. توقف عند هذا الحد في الحكى، ثم أنهى حديثه بعبارة:

- ورأيت حضرتك تدخل الكنيسة.

طعنه دون أورسيثينيو بنظرته. أدرك تريستان أنه لم يبلغ حكاية الخروج للتجول. بدا كأنه سيقول شيئًا ما حول الكنيسة، لكن عقب صمت خفيف، أخذ خيط الحديث عن الطفل: لو أن حضرة الشاب الصغير قد اندهش من بكاء الطفل، فربما عليه أن يعرف أن هذه الروح المتألّمة أتفه الأشياء التي قد يشهدها هذا المكان، فهو لديه «كُتب المستجدات»، التي يدون فيها كل شيء، سواء أكان طبيعيًا أم خارقًا، وعلى مدار السنوات التي قضاها في هذه المستوطنة، تمكن من ملء أربعة عشر كتابًا. آه لو عرف ماهية الأمور التي رآها وسمعتها وشمها هنا!

- بداية من بكاء طفل، مرورًا بعبير زوجتي، وصولًا إلى التجربة التي لا تُصدق لرؤية تتكرر بين الحين والآخر لسرب من ثلاثة أطباق طائفة تبدو ككرات نارية ضاربة إلى اللون البرتقالي. إنها تهبط هنا، فيما كان سلفًا ملعب تنس السيد المدير. وهذا لكيلا نتحدث عن لصوص المصارف الذين اختطفوني لعشرة أيام بمجرد أن وصلوا للاختباء هنا.

- آها! ولم يلحقوا بك ضررًا؟

- لا! تصرفوا كرجال عصابات أخيار.

أبدى تريستان حماسه:

- هل تعرف يا حضرة الدون؟ سيروقتني أن ألقى نظرة على هذه الكتب. لا بد أنها تضم أمورًا وأشياء أحسب أنها شائقة جدًا.

قال له دون أورسيثينيو إن الكتاب الخامس عشر لا يزال خاويًا لهذا السبب تحديدًا، ففي الفترة الأخيرة لم يحدث شيء جدير بالتدوين.

- لم تحدث أشياء شائقة جدًا، على حد وصفك.

ثم سأله لتغيير الموضوع:

- إذن، هل سيرحل اليوم عازف الكمان الهائم؟

تروق تريستان الطريقة التي يُبعده بها العجوز عن الموضوعات التي لا تُعجبه، كما قد يفعل مصارع الثيران مع ثوره. يستسلم، ويقول أجل، فهو سيخرج ليصل إلى الطريق السريع، فقد اكتشف في إحدى خرائطه الإقليمية أن هذا الجانب من سهول بامبا الملح الصخري، المعروف باسم «المقاطعة الوسطى»، فيه قرى مثل هذه، وإنه يرغب في البقاء في إحداها.

- وكيف ستكسب قوت يومك؟

- لا أعرف. ربما بالعمل كأستاذ للموسيقى. هذا هو الشيء الوحيد الذي أجيده.

- لكن.. أتعرف يا حضرة الشاب تريستان؟ يقع الطريق السريع على مسافة تتخطى عشرة كيلومترات، وما من سبيل للذهاب إلى هناك إلا عبر مسار باقٍ من الأيام التي عملوا فيها في سهول البامبا بعربات تجرها البغال، وهو المسار الذي محاه الزمن والزوابع ولا يُمكن رؤيته اليوم تقريبًا. ثمة مسارات كبيرة قد اختفت بالكامل، وهذا خطير، إذ قد تواجه خطر أن «تتَبَمَب».

- ما معنى «تتَبَمَب»؟

- أن تتيه في البامبا.

ظل تريستان يفكر.

- إذن، يا حضرة الدون، بالأمس، حين أتيت ماشياً من المحطة، كان من الممكن أن أتَّبِيب؟

- لا، ففي هذا الشوط القصير، يرى المرء البيوت والمحطة دائماً، لكن في المسارات الطويلة، إن فقدت الدرب، وغابت العلامات المرجعية، سواء أكانت طبيعية أم بناها الإنسان، فسترى نفسك فجأة عالقاً في دائرة مُجرمة: دائرة الأفق. ستتبخّر الجهات الأصلية. سترى الشيء نفسه أينما نظرت، وستبدأ في السير عشوائياً، وإن لم يُعثر عليك بعد يومين بليّتيهما، فلن يُعثر عليك أبداً. ستكون قد شربت بولك، وكسرت أسنانك بعد أن حاولت مضغ جلد حزامك. وهذا كله من دون أن نتحدث عن سرب النسور، الذي حين يشتم رائحة الموت، سيبدأ في رسم دوائر حول رأسك. سيزداد انخفاضها بمرور الوقت إلى أن تخور قواك وترتمي على الرمال. حينذاك، وبأمر من قائدهم الملكي، ذلك المتوج بريش أبيض في قفاه، سيبدؤون في النزول والاقتراب قليلاً، للتيقن من أنك توقفت عن الحركة. وأنت يا حضرة الشاب لن تتحرك، لأنك ستكون قد تحولت، بسبب برد الليل، وحر النهار، والعطش والإرهاق، إلى جيفة لهذه النسور.

يحكي تريستان أن مفتش القطار قال له إن هذه مستوطنة ملح صخري، لكنه لم يخبره بأنها غير مأهولة.

يُفاجئه دون أورسيثينيو مرة ثانية حين يُخبره بأنه رآه وهو يتحدث مع المفتش.

- الأمر وما فيه أنني أذهب في أيام وصول القطار إلى المحطة لمعرفة ما إذا كان شخص معين ينتظره منذ عشرين عامًا سيصل. أصعد بالمرة إلى القاطرة لأحيي السائق، فهو صديقي. أيضًا بالأمس جلب لي طردًا طلبته منه الأسبوع الماضي. لهذا لدينا خبز وجبن وخامون وشاي سائب، بل وسجائر. وغدًا ستأتي الشاحنة التي ستجلب لي مؤونة الأسبوعين القادمين.

يود تريستان أن يسأله من الذي ينتظره منذ عشرين عامًا، لكنه يتراجع، وينتهي به الأمر بسؤاله من أين يأتون له بالمؤونة.

يحكي له دون أورسيثينيو أنهم يأتون بها من «دون بدرو دي بالديبيا»، ويستأنف موضوع أنه رآه من القاطرة وهو يتوجه إلى هنا.

- انتظرت أن تتقدم بالصورة الكافية لكيلا تراني، وجئت في أثرك.

- ولماذا أردت ألا أراك؟

- لأنني شككت في أن تكون «كشافًا» لإحدى عصابات النهابين.

ابتسم تريستان.

- النهابون؟ وما الذي يُمكن نهبه من هذه الصحراء.

قال دون أورسيثينيو:

- خشب صنوبر أوريجون. إنه خشب ثمين جدًا وعليه طلب كبير.

- وإذا كان غاليًا بهذه الصورة، فلماذا سُيدت المستوطنات كلها بهذا الخشب؟

- حصل عليه أصحاب مصانع الملح الصخري بالمجان. كلما عادت السفن التي تنقل الملح الصخري إلى أوروبا، جاءت خاوية.

استخدموا جذوع أشجار صنوبر أوريجون كصوابير⁽¹⁾. ومع وصولهم إلى موانئ الملح الصخري، تحتم عليهم إلقاؤها لإفراغ مستودعات السفن.

مضى العجوز في حديثه وكلما مر الوقت بدا صوته كأنه يخرج من مريئه بشكل أكبر:

- لدينا «النسور»، وهم أفراد متخصصون في تدنيس مقابر البامبا. يفتحون المدافن والنواويس لسرقة الذهب الذي دفنه الناس مع موتاهم في تلك الأزمنة من خواتم زفاف، وأساور، وقلائد، وأقراط. الأسنان الذهبية هي أكثر ما يطمع فيه هؤلاء المُدنِّسون. ولا تسير أمورهم بشكل سيئ، ففي أوج صناعة الملح الصخري، كان من ضمن أمارات الأناقة بين الرجال، بخلاف ساعات «لونجين» والبدلات السبعة -بمعدل واحدة لكل يوم في الأسبوع- خلع سن سليمة وتركيب سن ذهبية، أو تغطية الأسنان المعيبة. وصل الأمر إلى أنهم تراهنوا، في المقاصف والمطاعم وهم ثملون نوعًا ما، مَنْ لديه قراريط أكثر في فمه.

ظهر بشدة أن دون أورسيثينيو لم يدرش مع أحد منذ قرون إلا كلبه. ينظر تريستان، الذي لم يستخدم ساعة قط، إلى النافذة لمعرفة الساعة.

يفكر بصوت مرتفع:

- لا بد أنها نحو السابعة.

(1) جمع صابورة وهو وزن يستخدم في بطن السفن من أجل موازنتها أثناء الإبحار. (المترجم).

يقول دون أورسيثينيو الذي جاء من المرحاض بسيجارة في فمه:

- إنها السابعة والرابع.

يغطس في المقعد ويشعلها. بعد فقرته المعتادة بإطلاق ثلاث

حلقات من الدخان، نظر إلى تريستان وقال بجدية:

- أردت حضرتك أن تعرف ما الذي فعلته بدخولي إلى الكنيسة

في منتصف الليل. صرت تعرف الآن يا حضرة الشاب. بصفتي

من يعتني بهذه الأطلال، فلا بد أن أجري جولات ليلاً ونهاراً،

وعلى مدار السنوات التي قضيتها هنا، باغت وطاردت بالمضرب

عدة «كشافين». يصل هؤلاء القوم مساءً ويدخلون من أي مكان

ويحددون كل ما يُمكن أخذه، ويختبئون في انتظار حلول الليل.

هل تعرف ما هي مخابئهم المفضلة؟

- عرفت بالفعل: برج الكنيسة والجزء العلوي من كشك الموسيقى.

- بالضبط. لهذا حين رأيتك تصعد الكشك، قلت لنفسي: آها. إنه

واحد منهم.

قال إنه اختبأ في «الجمعية الاستهلاكية» وانتظره أن ينزل ليمارس

دوره في تحديد ما يفكر اللصوص في نهبه، ولأنه لم ينزل، استنتج أنه

نام. حينذاك، ومن دون ضوضاء، صعد بالمضرب في يده، وهو مستعد

لتهشيم وجهه، لكنه حين رآه نائماً إلى جوار كمانه، أدرك أنه ليس لصاً.

أراد أن يتأكد، وفتح حقيبة الكمان كي يرى أن ما في داخله هو ما يجب

أن يكون موجوداً فعلاً. لما رأى الكمان، تحمس إلى درجة تشكلت معها

عقدة في حنجرته. فكر: عازف جوال! وشعر بالحسد، فهكذا أراد أن

تكون حياته.

- وكل هذا حدث من دون أن أستيقظ؟

- لربما كنت قادرًا على تفتيش جيوبك نفسها يا حضرة الشاب.
«الجميلة النائمة» مصابة بالأرق إن قارناها بنومك.
- الأمر وما فيه أن رحلة القطار كانت ملحمة متكاملة.
- ولأنه فكر في أن الشاب صاحب الكمان سيرتاح قليلًا وسيمضي في طريقه بعدئذٍ، تركه ينام بهدوء، لكن مع الغروب، وهو يجلس في مدخل البيت المسقوف ويتحدث بهدوء مع كلبه، سمع فجأة نغمات الكمان. إنها أصوات متفرقة بدت عزفًا دقيقًا ووصلت إلى مسامعه كأنها هبات من نسيم منعش.
- هتفت: بوم! سيعزف! وأمرت الكلبين بألا يأتيا في أثري. لم أرد أن تفرع وهرعت راكضًا إلى الساحة.



- كانت الثامنة صباحًا، حين نهض تريستان من على الطاولة.
- كان يجب عليّ أن أرحل بالفعل، لكنها محادثة جميلة. علي أي حال، سيتحتم عليّ أن أخاطر بالتعرض لضربة شمس، أو «التبمب»، كما تسميها حضرتك.
- ولماذا لا تنتظر القطار؟ القرى الثلاث الصغيرة، كما تسميها حضرتك، لديها محطات، والتذكرة لا تكلف شيئًا.
- وفي أي يوم سيمر القطار؟
- الأربعاء المقبل.
- هل تعرف يا حضرة الدون؟ الأمر وما فيه أنني لا أريد أن أعيش في هذه الأيام على حسابك!
- لا تقلق يا حضرة الشاب، فغدًا كما أخبرتك ستأتي المؤونة نصف الشهرية، وحضرتك تعرف: «اللقمة الهانئة، تكفي مائة». آه،

وبالمناسبة، سيغيرون لي غداً أيضاً مياه البرميلين، وسيمكنك أن تشرب الشاي بهدوء. أم أنك تحسب أنني لم أنتبه؟ مع ذلك، عليك أن تعرف أن هذه الأشياء التي رأيتها في الماء غير مضرّة على الإطلاق. إن كنت أقول لك هذا، فالسبب أنني قد بلعت كميات كبيرة منها.

في الحقيقة، لا يريد تريستان أن يرحل. لقد عثر على أفضل عازف كمان سمعه على الإطلاق ويريد أن يتعلم فنياته الرائعة. وحتى وإن كرر الدون له مائة مرة أنه ليس عازف الليلة الماضية، فلن يصدقه. إن لم يكن هو، فمن هو صاحب هذا العزف إذن؟

بينما يتحدث العجوز، يستمر الشك في إحراق تريستان من الداخل كأنه صرصور مشتعل بالنيران.

- قل لي الحقيقة يا دون أورسيثينيو. حضرتك من عزفت على الكمان في الليلة الماضية، أليس كذلك؟

- أتعرف يا حضرة الشاب؟ أعتقد أنك شخص صاحب خيال كبير. أنا مجرد حارس ليلي بسيط.

- لا يعرف كل الحراس الليليين حياة باجانيني من الألف إلى الياء.

- قلت لك سلفاً يا حضرة الشاب: إنها ثقافة عامة.

- ولا يعزفون الكمان مثلك بالطبع يا حضرة الدون.

- آه! ولا يطيطرون مثل السلاحف!

بعد برهة ظل كل منهما يرمق فيها الآخر بطرف عينه، أعاد تريستان الكرة:

- في الليلة الماضية، حين سمعت حضرتك تعزف، فكرت في أنك ربما تكون الشيطان.

قال العجوز بصوته الذي بدا كأنه يخرج من مريئه أكثر من أي وقت مضى:

- آها! ولو أنني الشيطان فعلاً: فهل ستعقد معي صفقة، كما فعل باجانيني؟

وهنا ظل تريستان صامتاً.

بينما يتمشى الوقت والعزلة يداً بيد عبر هذه الشوارع الخاوية، ساد جو من التوتر داخل البيت. تفقدت عينا عازف الكمان الرجل العجوز، الذي لم يرمش في انتظار رده. بدا تريستان كأنه يبحث عن الكلمات، كأنه يزن ثقلها، ويمعن فيها، تحسباً لأن يكون الدون هو الشيطان فعلاً. في النهاية، فكر في أنه كان ليبرم هذه الصفقة إبان مراهقته -وهو في الثالثة عشرة أو في الرابعة عشرة من عمره- وهي السن التي قد يحلم فيها أي فتى بإبرام صفقة مع الشيطان ليصبح غنياً أو ليحظى بغراميات أو ليسافر عبر العالم، إلخ. لقد حلم وهو في ذلك العمر بأن يصبح أعظم عازف كمان في العالم، وهو ما قالوا إن باجانيني فعله. لكن الزمن ساعده على الشك والشعور بأنها لن تصبح صفقة جيدة. لماذا؟ لم يعرف قط طريقة لشرح الأمر حتى أمس. أجل! الأمر وما فيه أنه في اليوم السابق قد أدرك، بشكل قاطع، بعد أن عزف في كشك الساحة وشعر بما شعره، أنه لا يريد إبرام أي صفقة، لا مع الشيطان ولا مع أحد. ليس فقط بدافع الخوف -وهو ما شعر به أمس فعلاً- وإنما لأنه قد تبين بوضوح أن العزف على الكمان سيفقد كل سحره إن باع روحه.

لن يصبح هو من يتحكم في قوس العزف. الأمر كأن يعرض الشيطان على روائي مقايضة روحه بوصفة الكتابة. إن وافق، فسيمل ملأً عظيمًا، لأنه سيخسر لذة عملية الخلق والمحو والتشذيب والتغيير والتصويب، في سطح النص وأعماقه، بل ومتعة التقدم بينما تملؤه الشكوك لمحاولة سبر أغوار المثالية، وهو يعرف أن المثالية ليست ممكنة أصلًا.

سيحدث الشيء نفسه له. أكثر ما راقه هو تعب التجربة والسعي إلى تحسين فنياته ومحاولة استئصال النغمات من كمانه كأنها دموع، فالיום الذي لا يخرج فيه آله من حقيبتها، حتى ولو لتنظيفها فحسب، هو يوم بائس، وضائع.

- مع صفقة مثل هذه، لن أختبر تلك اللذة التي تجعلني أطفو حين أنتزع صوتًا جديدًا من الكمان، أو حين أعزف مقطوعة صعبة، كما حدث أمس في الكشك. أيضًا، التصفيق الذي يتركني رابط الجأش. سيغدو كل شيء آليًا وميكانيكيًا وأتوماتيكيًا. وأحزن شيء يا حضرة الدون أنني سأكف عن استشعار تلك الطاقة التي تفيض داخلي بمجرد أن أفتح الحقيبة لأرى كمانى هناك، جميلًا، ونبيلًا، وظاهرًا.

وحينئذٍ، صفق العجوز ببرود، بالصورة نفسها التي صفق بها أمام كشك الموسيقى.

امتدت المحادثة مع دون أورسيثينيو، أو الشيطان، أو أيًا كانت ماهية هذا العجوز، وقتًا أطول من اللازم. حين دقت الساعة التاسعة، خرج تريستان ليتفقد الخارج: اشتعلت الصحراء من الشمس في كل الأنحاء. لن يغدو جيدًا بالنسبة إليه أو إلى كمانه السير عشرة كيلومترات

تحت هذه الشمس التي تزار من دون أدنى أمل في أن يُخففها ظل أي سحابة. أيضًا، انتهى ماء زمزميته ولن يملأها من البرميل، مهما كانت هذه الكائنات غير مؤذية.

- سأبقى يا حضرة الدون.

قال دون أورسيثينيو:

- قرار جيد يا صاح! ولكيلا تمل، فسأدعوك إلى جولة عبر أكثر خبايا هذه «القرية الصغيرة»، كما تسميها، تشويقًا.

قطع الرجلان والكلبان «النعيم السامي» بالطول والعرض. سار العجوز والكلبان تحت الشمس، فيما بحث تريستان عن الظل وهو يلتصق بالجدران، كأنه عطاءة. قال دون أورسيثينيو إن الـ«جرينجوس» لم يسموا المستوطنات والشوارع عشوائيًا، وإنما بحثوا عن أسماء تتعارض مع قحولة المكان وترفع من معنويات الناس، وإن اسم «النعيم السامي» ليس استثناء.

- هذا الشارع الذي نمضي فيه اسمه «الحظ الطيب»، وهذا الآخر اسمه «الألف بهجة»، وذلك الذي سنصل إليه اسمه «كرمة البحر». عشت هناك مع أوبرليندا حبيبتي!

قالها بصوت هامس وهو يشير إلى بيت يقع في الزاوية، وقبل أن يتمكن تريستان من السؤال، استمر في السير، وحين وصل إلى الشارع التالي، استأنف حديثه.

- هذا الشارع المطل على الكنيسة سُمي شارع «العذراء». اعتادوا هنا أن يخرجوا في مسيرة بتمثال «عذراء كارمن» في السادس عشر من يوليو. سُمي الشارع الأخير بـ«أبطال لا كونثيثيون». هناك، انتصبت «نقابة العمال». هناك أيضًا، حين اندلعت الإضرابات، نفذ الجيش المتمرس في إطلاق النار على العمال، مجزرة؛ مجزرة أخرى، سقط

فيها عشرات الرجال والنساء والأطفال. بعد هذه الواقعة، غيّر الناس اسم الشارع. بدؤوا يدعونه «أبطال النعيم السامي».

بينما يمضيان في طريقهما، تجولا عبر البنايات الأربع التي تنتصب حول الساحة. دخلوا «الجمعية»، ومروا عبر السينما، الموجودة إلى جوار كشك الموسيقى. في النهاية دخلوا الكنيسة.

بدأت كل البنايات مخلخة بسبب النهابين الذين أمعنوا في قطع العوارض ليحصلوا على خشب أوريجون، فتركوا أسقف البنايات وهي توشك على السقوط. عند الكنيسة، أمر دون أورسيثينيو الكلبين أن يبقيا في الخارج، ودخلا هما إلى صحنها الرئيسي، عبر القوس الذي يخلو من أي باب (وهذا لأن أبوابه المصمتة قد سرقت هي الأخرى). كانت جدران الكنيسة تكتسي بخشب نبيل، اسمه العصا الوردية، وأصله من الهند، كما حكى له دون أورسيثينيو. بدأ النهابون في سرقة منذ فترة قليلة. سرقوا أيضًا جرسها الذي كلفت مؤسسة في إيطاليا بصناعته. كان من البرونز ومن أكبر الأجراس الموجودة في البامبا.

كانت نحو الحادية عشرة حين عادا إلى البيت. ارتدى دون أورسيثينيو مبدلة لحام بالقوس الكهربائي كأنها مئزر، وبدأ يطهو آخر كيلو من العدس. قبل أن يشرع في هذا، مرر الماء ثلاث مرات عبر المصفاة وأظهرها لعازف الكمان:

- كما ترى يا حضرة الشاب. إنها نظيفة كماء من شلال. لا وجود لأي شرغوف.

قال تريستان إنه على أي حال سيذهب إلى المحطة لملء زمزميته. عرض عليه أن يجلب له الماء إن كان لديه شيء ليملأه فيه. كانت هناك

قارورة كبيرة سعتها خمسة عشر لترًا في المدخل المسقوف، لكنها ستغدو ثقيلة جدًا. أخرج الدون من الهيكل الخشبي الذي استخدمه كخزانة مطبخ طنجرة فخارية، واحدة من تلك الطناجر المزودة بحلقة علوية.

استغرق تريستان ساعة بين الذهاب والإياب. لما وصل، كان العدس قد نضج. تناولوا الغداء. وبعد حديث صغير عقب الأكل، ذهبوا إلى غرفة المعيشة. ذات لحظة، بينما يتحدثان عن هذا الشأن أو ذلك (وعقب أن حكى له تريستان بالفعل أغلب ما يتعلق بحياته باستثناء قصة حسرة حبه)، بدأ ينعسان. استيقظا بعدئذٍ بساعتين وهما غارقان في عرقهما. لينفض نعاسه، هز تريستان رأسه ككلب مبلول. لطالما فعل هذا لينفض من رأسه أي شيء يُربكه. بعدئذٍ، أخرج كمانه لتنظيفه وتغيير وتره المقطوع.

- دون أورسيتينيو، هل سيزعجك أن أتدرب هنا في البيت؟
- بالعكس يا حضرة الشاب. كنت أوشك على أن أطلب منك أن تعزف شيئًا ما، لكنني لم أرد أن أطلب منك شيئًا في غير أوانه. كنت أتذكر الآن أن باجانييني انزعج كثيرًا من عليّة القوم، وخصوصًا النساء، إذ كن يدعيه لتناول الطعام في بيوتهن، ويقلن له بالمرّة: «لا تنس أن تجلب كمانك يا مايسترو». اعتاد أن يجيبهن دائمًا: «كمانى لا يخرج من البيت أبدًا يا سيدتي».

سأله تريستان بنظرته.

- ثقافة عامة!

وابتسم العجوز.

بمجرد أن أصلح تريستان وتر كمانه، سأله أورسيثينيو ما إذا كانت الأوتار تنقطع منه دائماً، كما حدث في الكشك، فأجابه تريستان: مع مقطوعات باجانيني فحسب. ولهذا يحمل معه دائماً أوتاراً جديدة. حتى إن لم تنقطع من الاحتكاك الجامح عند عزف أي مقطوعة صعبة، فإن الاستخدام المستمر يُجبره دائماً على تغيير الأوتار دورياً. كذلك، احتفظ معه بغيرات لشعيرات ذيل الحصان التي تشكل شريط قوس العزف.

فرغ تريستان من عملية التغيير وبدأ التنظيف. لما انتهى، ترك الكمان برهة فوق الطاولة الواقعة في منتصف الصالة. ظل العجوز يحدق إلى الكمان بتركيز، من دون أن يرمش، كأنه قد نومه مغناطيسيًا.

- هل كل الأمور بخير يا حضرة الدون؟

- هلا ناولتني إياه بعض الوقت يا حضرة الشاب؟

نظر إليه تريستان بتوجس واضح، لكنه ناوله إياه. أمسكه العجوز برفق كاهن يرفع الكأس المقدسة. نظر إليه من الجانبين، ثم مرر أطراف أصابعه على صندوقه الصوتي بالنعومة التي قد يداعب بها رجل بشرة امرأة، فعلى علامتي الـ «ff»، وعلى لوحة الأصابع. بعد هذا الطقس الصغير، وضع دون أورسيثينيو الكمان بين طرف ذقنه وكتفه بعفوية مفاجئة. وحين رفع قوس العزف بحركة أنيقة، تخيل تريستان أنه سيكشف عن نفسه بعزف الإيقاعات الأولى لـ «سوناتا الشيطان»، مقطوعة باجانيني، التي عدها نقاد عصره واحدة من ضمن أفضل أداؤه. مع ذلك، أعاد إليه العجوز الكمان، قبل أن يلامس قوس العزف الأوتار، ونهض فجأة.

قال وهو يخرج بخطوات حثيئة:

- وقت الجولة!

لم يعد إلا مع حلول الليل. لم يقل شيئاً. لم يسأل تريستان أيضاً. في تلك الليلة، قبل أن يناما، تناولا قدحين من الشاي المُعد بماء المحطة النظيف، وتبقى لديهما بعض منه لإفطار وغداء اليوم التالي.

في صباح الجمعة، تناول الرجلان إفطارهما في صمت، وبمجرد أن فرغ العجوز من شرب الشاي، قال: «عذراً»، وخرج في جولته الأولى. عاد في الثانية عشرة. ترك المضرب في مكانه الدائم، وبدأ يجهز الغداء، وسط صمت تام. لم تبق إلا بضلة واحدة، ولأن تريستان ناوله عبوة الدقيق المحمص (وهو يقول: حضرتك أدري بما ستفعله بها)، كان قد جهز الآن طبخة بالبصل المقلي، وصار هذا غداءهما فحسب.

تحدث دون أورسيثينيو أخيراً وهو يجمع بقايا صحنه:

- ستصل المؤونة مساء.

استغل تريستان اللحظة:

- لماذا لم تتجراً حضرتك على العزف على الكمان؟

رسم العجوز ملامح الدهشة على وجهه.

- لأنني لا أجيد العزف عليه ولأنه ما من ضوضاء أفزع من كمان في

يَدَي شخص لا يجيد العزف.

وفيما يوشك تريستان على الرد عليه، كان العجوز قد شرع يتحدث

في موضوع آخر.

انتظر الرجلان، بقميصيهما الداخليين، حلول الرابعة عصرًا، ونوافذ البيت الثلاثة مفتوحة كحال بابيه، لعل نسمة هواء تدخل. غاص العازف

الشاب في مستنقعات القيلولة، فيما جلس العجوز إلى المائدة بظهر محني، فوق «كتاب المستجدات الخامس عشر»، الذي بدأ يكتب فيه.

بعدئذٍ، خرجا إلى المدخل المسقوف في انتظار شاحنة المؤونة. قال الدون للكليين أن يذهبا ليتظلا تحت عربة الجر، وجلسا هما إلى المقعد، في صمت. يحدق العجوز إلى نقطة ما يجب أن تظهر فيها الشاحنة، فيما يصب الشاب تركيزه على زوبعة عملاقة تتشكل بعيداً، ناحية المحطة. إنها الرابعة عصرًا.

إنها ساعة الرياح في البامبا.

في الرابعة وعشر دقائق ظهرت مركبة تتقدم عبر مسار ترابي وهي تترك وراءها عاصفة من الغبار الأبيض، كأثر لسفينة تبحر عبر بحر متفحم. حين توقفت الشاحنة أمام البيت، وهالة التراب لا تزال تحيط بها، ركض دون أورسيثينيو ليفتح الباب. في البداية، ترجلت امرأة عمرها نحو خمسين عامًا، ووراءها شابة لا بد أن عمرها نحو عشرين عامًا. بدت كلتاهما سعيدة، وبشوشة، وثرثرة. الفارق الوحيد أن الشابة كانت أفرح وأكثر حركة.

على الفور عانق العجوز المرأتين وعانقتهما. ساعد تريستان السائق في إنزال صناديق المؤونة، ومن ضمنها حزمة من الجرائد والمجلات. صعد ونزل تريستان إلى ومن السيارة من دون أن يتوقف عن النظر إلى الزائرتين.

المرأة طويلة وشعرها قصير وارتدت فستانًا بسيطًا من البوبيلين عليه زهور زرقاء. بدا جمالها متأثرًا بصورة كبيرة بالشمس. أما الشابة فشعرها قمحي طويل، على النقيض من أمها، وارتدت فستانًا من قماش

التفتا الأزرق، واسع كجرس من الأسفل، ومن دون كُمين، ما كشف للأعين جلد كتفها، الذي دفع تريستان إلى التفكير في ثمار المشمش. لما انتهت عملية التفرغ، طلب العجوز من السائق أن يجلب إليه بعض الماء من المحطة. قال إنه عليه أن يعتني بزازتيه، كما أن بقية الماء الموجود ملآن بالشرابيف.

- هل لديك شيء لأجلب إليك الماء فيه يا دون أورسي؟
فناوله القارورة الكبيرة التي تبلغ سعتها خمسة عشر لترًا.

حين غادرت الشاحنة، كانت السيدتان قد انتبهتا إلى الشاب صاحب الشعر الطويل. اضطلع العجوز بتعريفهم:

- هذه أختي، وهذه الفاتنة أعدها حفيدتي⁽¹⁾ المفضلة.

قفزت الشابة الصغيرة وهي تبسم:

- هذا لأنني الوحيدة!

- وهذا الفتى صاحب الشعر الطويل هو تريستان الحزان، أفضل عازف كمان في «النعيم السامي» وضواحيها.

حيته السيدتان.

قالت الأم:

- تشرفنا.

وقالت الابنة:

- فرصة سعيدة.

(1) سيتضح سبب تسميته لها بالحفيدة مع أنه يصف المرأة الأخرى بأخته في الصفحات القادمة. (المترجم).

بعد أن دخلوا البيت، تشبعت الصالة بعطر المرأتين الذي أزاح رائحة الكرييد. غطس دون أورسيثينيو وأخته في المقعدين الجلديين وأشعل كل منهما سيجارته ومضيا ليتحدثا. جلس عازف الكمان والشابة على مقعدي المائدة.

جلبت المرأة معها أحدث المستجدات التي جرت في «بدرودى بالديبيا». (سمتها «المستجدات»، وسماها «النمائم»). بعدئذ، حكى لها كيف ظهر تريستان في المستوطنة، وكيف حسبه أحد النهابين، وأنه أوشك على ضربه بالعصا.

- أنقذه كمانه.

لم يعرف تريستان ما إذا كانت السيدتان قد نظرتا إليه بإعجاب أم بشفقة.

لما عاد مع الماء، ألقى سائق الشاحنة الوداع وهو يبلغ دون أورسي بأن شاحنة الصهريج ستأتي في السابعة مساء كي تملأ البرميلين، وتأخذ السيدتين بالمرّة.

بخلاف إمدادات الشركة، جلبت المرأتان معهما على حسابهما الخاص مكونات الشطيرة المفضلة لأهالي البامبا: الخبز المعجون، الزبدة، جبن الماعز وزيتون «آثابا». وجلب إليه سائق الشاحنة كرتونة من سجائر «بارتيكولاريس» للأسبوعين المقبلين وسدد العجوز ثمنها بالطبع.

لطالما قال دون أورسيثينيو: لكل الرذائل ثمنها.

ما إن وصلت الشاحنة بقارورة الماء، حتى شرعوا يحضرون شاي الساعة الخامسة. قالت المرأة لتريستان: «هذه من ضمن العادات التي

تركها لنا الإنجليز الذين امتلكوا مستوطنات كثيرة في مقابل الملح الصخري».

قال دون أورسيثينيو في محاكاة ساخرة لنيرودا:

- أخذوا الذهب الأبيض وتركوا لنا الشاي الأسود.

قالت المرأة:

- هذا صحيح. اعتادوا أن يشربوه في أقداح خزفية صغيرة راقية، مع قطع بسكويت، وملعق من الفضة، وهم يرفعون خناصرهم، وبالتأكيد كان من صبه لهم كبير خدم إنجليزي مغرور يرتدي بدلة سهرة.

خلال الفترة التي استغرقها شرب الشاي، فيما يجلس الكبيران على مقعدي الصالون والشابان على كرسيي المائدة، لاحظ تريستان أن الفتاة تصر على اختلاس النظر إليه. حين قال دون أورسيثينيو إن تريستان أستاذ موسيقى ويفكر في التقدم لشغل وظيفة في مدرسة صغيرة في «كويا سور»، قفزت الفتاة من مقعدها وقالت إن أستاذ الموسيقى في «بدرودي بالديبيا» يفكر في الاستقالة هذا العام، وقبل أن يتمكن تريستان من الرد، قالت أخت الدون إنه إن كان الشاب يجيد عزف الكمان بهذه الصورة، فلماذا لا ينضم إلى أوركسترا.

وضع دون أورسيثينيو ملعقته.

- الأمر وما فيه أن عازف الكمان هذا يميل إلى العزلة والوحدة، بل والصمت، وهذا سبب تسميته بتريستان الحزنان. ويُفضل أيضًا هدوء «قرية صغيرة» ضائعة في الصحراء على أن يعاني ضوضاء وحصار الحشود.

لما فرغوا من تناول الشاي، كانت نحو السادسة مساء. استمر دون أورسيثينيو وأخته، وكلاهما غاطس في مقعده، في الدردشة. في تلك اللحظات، انغمسا في ذكريات الشباب. خرج تريستان ليجلس على مقعد المدخل المسقوف وتبعته الفتاة.

- إذن.. أنت عازف كمان.

أجاب تريستان من دون أن يلتفت لمواجهتها:

- لا أزال أتعلم.

- لا تكن متواضعًا. لو قال الجد إنك جيد، فأنت جيد.

- هل تصدقين كل ما يقوله جدك؟

- أجل.

ابتسم تريستان:

- ألا تعرفين أن العجائز يكذبون ويبتكرون ويتخيلون ويتوهمون ويبالغون دائمًا أكثر من الشباب؟

- إنه لا يكذب أبدًا، وحكيم جدًا.

قال تريستان من دون أن يبعد نظره عن الأفق.

- هل جدك ضليع في آلات الكمان؟

- اسمع.. لماذا لا تأتي معي لنتجول في المستوطنة. لم آت منذ فترة. سأقول لماما ونرحل.

وهما في طريقهما إلى الساحة، قالت الشابة إن الجد في الحقيقة ليس جدها، بل إنه وأمه ليسا أخوين بالدم. كانا صديقين. عرفا بعضهما منذ سنوات كثيرة، وأحبا بعضهما كثيرًا وتعاملا كأخوين، وبينما تنظر إلى تل الرواسب، غيرت الموضوع جذريًا:

- سيروقني أن أستمع إليك وأنت تعزف الكمان.

لف رأسه أخيرًا وتبين أن المنظر الجانبي لوجه الفتاة جدير بأن
يُسك على عملة ذهبية.

قال:

- ألن تملي؟

- هل أنت مجنون. تروقني الموسيقى الكلاسيكية!

وفيما تبتسم له بعينيها، أمسكت يديه. اضطرب تريستان، وأدركت
هي هذا.

- أردت أن أرى ما إذا كانت أصابعك شديدة الطول مثل أصابع
عازفي الكمان المشهورين.

وبينما تبتسم أضافت أنها سمعت هذه المعلومة أيضًا من جدّها.

- وهل عاش جدك دائمًا هكذا؟

كانا في الساحة أمام الكنيسة، وهما يجلسان على المقاعد الحجرية
الخربة.

- وفقًا لأمي، منذ رحلت زوجته مع عشيقها في قطار الجنوب، صار
مجنونًا بالذهاب إلى المحطة في كل أيام وصول القطار، تحسبًا
لعودتها. اعتاد أن يتحمم ويحلق لحيته ويرتدي أفضل بدلة لديه،
وأن يرش على نفسه نصف عبوة من «ماء الكولونيا الإنجليزي»،
ويذهب إلى المحطة. بعدئذٍ، حين أوقفت المستوطنة آلاتها، تمكن
من إقناعهم بأن يتركوه حارسًا. قال إن زوجته ذهبت في القطار
وستعود في القطار، وعليه أن يبقى هنا لاستقبالها.

- حزينة هي قصة جدك.

لمعت عينا الفتاة بالدموع وقالت: حسناً لنترك الجد في حاله. وقفت وطلبت من تريستان أن يساعدها في الصعود إلى برج الجرس. لطالما أرادت أن تصعد ومنعتها أمها.

قالت الشابة وهي تقلد صوت أمها:

- هذا السلم خطير جداً يا بُنيتي!

قال تريستان وهو يقلد الصوت المريئي الخاص بالعجوز:

- آها.

أمسكها من يدها.

قال:

- تحسباً لأن تنزلقي.

توقفت في منتصف السلم

- انتظر قليلاً. لقد تعبت.

- هل أنت مريضة قلب؟

قالت:

- أجل. اليوم فحسب.

ومن دون أن تضيف كلمة أخرى، قبلته. في ظل ارتبাকে، لم يقل إلا:

- أمك محقة. هذا السلم خطير جداً.

في أعلى البرج، حكى لها تريستان قصة الجرس. دمدت هي: لصوص ملاعين! وظل الاثنان وهما يجلسان إلى جوار بعضهما يتأملان الغروب. اصطبغت السماء في الأفق بزرقة طباشيرية، ولم تظهر غيمة صغيرة واحدة قد تتوهج.

قال:

- في يوم وصولي. استقبلني شفق كشفق الأفلام.

ابتسمت:

- بتقنية الـ«تكنيكولور» أم الـ«سينماسكوب»؟

بمناسبة وهج الغيوم الغائب، أراد تريستان أن يحكي لها روايته للطريقة التي تعرف بها إلى جدها، فقالت بصوت خافت:

- احكها لجدي وكلمني عنك قليلاً.

تذرع تريستان بأن قصته مملة جدًّا، ولأنه لكيلا يزعج أحدًا اختار أن يخلصها في تسع كلمات.

- وما هي؟

- ولدت، كبرت، صرت يتيماً، درست الكمان، أغرمت، خانتني، فهربت.

قبل أن ينزلا من برج الجرس، طلب منها أن توضح له شكًّا.

- هل يعزف جدك الكمان؟ أو عزفه ذات مرة؟

تنهدت الفتاة:

- ارحمنا من مسألة الجد! لا أعرف. لا يجري الحديث عن هذا الموضوع تقريباً في البيت. على مدار ثمانية عشر عاماً هي كل عمري، أعدت بناء قصته عبر أجزاء صغيرة من قصص سمعتها، مثل تلك القصة التي قلتها لك، وتفاصيل أخرى، ومنها على سبيل المثال، أن المرأة كان اسمها أوبرليندا ليناريس. بالنسبة إلى آلات الكمان، فأنا لم أسمع شيئاً.

- مارجا!!!!!!!!!!!!!!

مارجا!!!!!!!!!!!!!!

دوت صرخات الأم في كل أنحاء المعسكر. نظر الشابان من أحد التجاويف الهندسية في برج الجرس. ظلت الأم تصرخ وهي في منتصف الساحة، فأشارا إليها.

صرخت الفتاة:

- سننزل الآن!

- انزلا فوراً! الشاحنة على وشك الوصول.

وهما في طريقهما إلى البيت، اعترفت له بأنها مندهشة بأن جدها سمح له بالبقاء، خصوصاً وأنه تصرف دائماً كغول مع الزوار، فابتسم:

- أعتقد أن القديس باجانييني قد صنع معجزة.

توقفت ونظرت إلى عينيه:

- أتعرف؟ «كويا سور» و«بدرو بالديبيا» قريبتان جداً. على بعد ساعة بالحافلة. سيمكنك أن تأتي لمقابلتي.

صدرت إيماءة من رأسه. لم تبد قبولاً، لكنها لم تبد أيضاً رفضاً، وبطريقة الدون، غير الموضوع بمراوغة لا تصد ولا ترد:

- أتعرفين؟ «حافلة» كلمة جميلة جداً. لطالما راقنتي، مثل كلمة «حلوى العسل». تروقني الكلمات بسبب منطوقها الصوتي.

وصلا إلى البيت بالتزامن مع وصول شاحنة الصهريج. بينما يملؤون البرميلين، بدأت السيدتان في إلقاء الوداع. ركبت الأم الشاحنة واعتلى دون أورسيثينيو مسند الصعود ليستمر في حديثه معها. حينئذ، اقتربت الفتاة من تريستان لتوديعه.

قالت وهي تناوله في السر ورقة مثنية فيما تهمس في أذنه:

- تدين لي بسوناتا. هذا عنواني. لو تشجعت وجئت إلى بدرو
بالديبيا، فتعال لمقابلتي. اسمي مارجريتا.
حينئذٍ، تسمر تريستان في مكانه.

جلس دون أورسيتينيو وتريستان على مقعد المدخل المسقوف.
كلاهما صامت. أحدهما سعيد بالزائرتين، والآخر مرتبك مما حدث مع
الفتاة. (لم يرد حتى أن ينطق اسمها مرة ثانية).
تسحب الليل عبر الشرق وتلألأ نجوم المساء البراقة في سماءات
الغرب.

همهم العجوز:

- سأجري جولة.

وخرج من البيت، من دون أن يقول شيئاً آخر وشرع يمشي في
منتصف الشارع وأحد الكلبين على يمينه والآخر على يساره. (كأنه
محبوس بين قوسين).

مع أن الحر كان قاسياً، ارتدى الدون معطفه الأسود القديم الطويل
حتى ركبتيه. فكر تريستان في أن هذا هو زي الجولات. حمل المضرب
داخل المعطف. لم يحمل المصباح. مضى ومعه الكشاف فحسب. لم
يعرف تريستان طريقة إشعال المصباح. لهذا دخل البيت، وأشعل شمعة
وغطس في مقعد الصالون، ورأسه يستند إلى يديه. شعر بالاضطراب.
عجز عن الفهم. ترك المدينة سلفاً هرباً من «الغواية» كمن يهرب من
الطاعون. توغل في أقصى صحاري العالم. عثر على ملاذه في قرية
مهجورة وسط العدم (على بعد أكثر من ألف كيلومتر). وها هو ذا، وسط
أوحش الصحاري، وهو لاجئ في قرية صغيرة (على بعد ألف وثلاثمائة

كيلومتر من سانتياجو)، تتراءى له «الغواية»، وهي تبتسم في عيني
ذهبيتين لفتاة فاتنة.

وفوق كل هذا، اسمها مارجريتا.
لا بُد أن هذا من عمل الشيطان..

وكأنهما بعوضتان، طن شكلان للقلق في رأس تريستان. يرتبط
أولهما بحفيدة العجوز ورفضه لقبول سهولة وقوعه في الغرام مجددًا
حين رآها تترجل من الشاحنة. بالنسبة إلى الشك الثاني، فمرده إلى
دون أورسيثينيو، فهل لديه كمان مخفي؟ سيكون اكتشافه أمرًا جيدًا
لأن الدون لن يتمكن بهذه الصورة من تكذيب أنه من عزف فعلًا في تلك
الليلة، وسيؤكد هو من أنه تجسيد جديد لباجانيني أو الشيطان نفسه.
بينما يغطس في مقعده وأفكاره، لم يدر تريستان في أي لحظة عاد
العجوز، الصامت ككلبه، من جولته. كان يجلس وسط العتمة الجزئية
للمطبخ ومضربه فوق المائدة ويراقبه منذ برهة.

- ما الذي يحدث يا حضرة العازف؟ لماذا هذا السرحان؟
جفل تريستان. بدا صوت العجوز الأجش، الحزين، كأن فيه شيئًا من
خصال العالم الآخر.

قال تريستان وهو يحاول أن يبتسم:

- ربما لأنني حزنان!

تظاهر الدون بأنه لم يفهم دعاية تريستان، فسأل ما إذا كان حضرة
العازف الهائم لا يعرف أن النوم والشموع مشتعلة تصرف مشؤوم.

- آه! فعلًا؟ لم أعرف!

- أتعرف يا عزيزي، توقف عن أكل دماغك ورافقني. سأعلمك كيف تشعل المصباح.

أخرجه إلى المدخل المسقوف وعلمه الخطوات الواجب اتباعها، وأن عليه ألا ينسى أن أهم شيء هو ضبط الشعلة جيدًا.

- لا تجعلها منخفضة جدًا فلا تضيء بشكل كاف، ولا تجعلها عالية جدًا فتسبب حريقًا.

قال تريستان:

- بالنسبة إليّ، فأصعب شيء هو تحمل رائحة الكرييد.

- بعد مرور كل هذا الوقت، لم أعد أشعر به.

قال العجوز وهو يُعلق المصباح الذي أنار الجدران البيضاء، فيما أضفى ضوءه الوهاج على الصالة هيئة تشبه صالات المستشفيات:
- سأحضّر الشاي.

قال تريستان إنه لا يرغب في شربه في الوقت الحالي وغطس مرة ثانية في مقعده، وملامح الارتباك لا تزال تعلو وجهه.

في تلك الأثناء، بدأ دون أورسيثينيو يغلي الماء ويحضّر الشاي، بل وشربه، وكل هذا وهو يستمر في مراقبته. لهذا، لما فرغ من غسل كوب الشاي، ذهب هو الآخر ليغطس في مقعد الصالون المواجه له. بعد أن رفع ساقه، أشعل سيجارة «بارتيكولاريس» ونفث حلقاته الثلاثة وقال بنبرة احتفالية:

- حسنًا.. وما الذي يريد حضرة العازف أن يتحدث عنه اليوم؟ لو أردت أن تتحدث عن باجانيني، فيمكنني مثلًا أن أخبرك أن أصابعه كانت شديدة الطول، مثل ذراعيه، ما منحه ترف تصنيع قوس أطول من الطبيعي، وبهذه الطريقة حصل على مساحة أكبر

فوق الأوتار. لكن إن فضل تريستان الحزنان الحديث عن موضوع الحب البائت والمطروق والتالف، فحينئذ عليه أن يبدأ بنفسه. فلتتفضل.

ارتبك تريستان. ظل صامتًا.

نخز دون أورسيثينيو جرحه بإصبعه:

- يرتبط هذا بمارجريتا، أليس كذلك؟

- أجل يا دون أورسيثينيو. لكن بمارجريتا أخرى. مارجريتا التي كسرت قلبي. بالنسبة إلى حفيدتك، فقد صرنا صديقين لا أكثر ولا أقل.

- وذكرى مارجريتا الأخرى تركتك محطماً هكذا؟ لا تبدو مثل باجانيني في هذا الشأن على الإطلاق. يُقال إنه كان زير نساء أصيل. على الرغم من القبح والتخلع الذي رسموه به في الصور، فقد جذب النساء بشكل كبير، بل إنهن كن يصبن بالإغماء في الحفلات، فيما يهلل ويصفق الرجال له. لقد وصل به إلى الأمر إلى مرافقة شقيقتي نابليون إلى الفراش! وهذا يقول كل شيء.

قال تريستان، في نوبة صراحة، إنه سيحكي له لماذا لا يمكنه، أو لماذا لا يريد أن يغرم بأحد، أبداً، حتى حفيدته. لقد قرر، بمعنى آخر، أن يحكي له عن حسرة حبه، لكن على الدون ألا يحسب أن قصته جديدة بفيلم. ارتاح الدون في مقعده.

- لا يهم. كلي آذان مصغية. فلتعلم أنني مثل أبيك.

ولأنه يعلم أن أي قصة حياة تتجمل حين تُحكى أو تُكتب، حاول تريستان أن يكون صريحًا بأكبر قدر ممكن. بدأ بقول إنه قضى مع «الخبیثة» عامًا، وإنه في هذه الفترة أحبها كما لم يحب أحدًا من قبل، وإن كل معارفه النسائية قبل ذلك كانت عرضية، وإنها حقًا حب حياته الأول الكبير.

حين تعرف إليها، كان يمضي وكمانه على كتفه وفكر أن هذا لعب دورًا أساسيًا في قبولها أن تكون خليلته. تبين أن هذا خطأ كبير، إذ أدرك بعد مرور وقت قصير على علاقتهما، أن مارجريتا لا تروقها الموسيقى الكلاسيكية أصلًا، وأسوأ ما في هذا الموضوع أنها ليس لديها أدنى احترام لكمانه، بل عرف عن طريق إحدى أبناء عمومتها أنها لم تطق رؤيته في الشارع وكمانه على كتفه ولا «غباءه» حين يتحدث معه كأنه كائن حي. وصل الأمر بهاء في عدة مرات إلى الوقوع في عار إخفائه، بل إنها في آخر مرة تركته يعاني ثلاثة أيام وهو غير قادر على العزف، بعد أن اقتنع بضياعه.

مع أن العجوز أنصت إليه بوجه جامد، تعرض لرعشة خفيفة في أحد جفونه في ذلك الجزء من الحكاية.

لما علم أنها أخفته شعر بأنها تترك أمامه خيارين: إما أن ينسى الموسيقى ويكرس نفسه لها وإما أن ينساها ويبقى مع الموسيقى. في تلك الأيام، وهو على وشك الاختيار، جاءت «الخبیثة» ومزقت قلبه بضربة واحدة.

من دون أي تمسكن، وهو يبتسم أحيانًا أو وهو ينشج في مرات أخرى، فرغ تريستان من حكاية كل التفاصيل.

- وكما ترى يا حضرة الدون أورسيتينيو، فإن حسرة حبي لا تصلح لصناعة فيلم قصير أصلًا.

بإيماءة عابسة، أشعل العجوز واحدة من سجائر «بارتيكولاريس»،
وأسند ظهره إلى مسند المقعد ونفث حلقات دخانه الثلاث، في تلك المرة
من دون أي تباه. ثم علق بنبرة بغضاء حقيقية وهو يُوجه حديثه إليه:

- لو أن هذه الداهية ليست مهتمة بالموسيقى الكلاسيكية إلى
درجة كُره كمانك، فهذا لأنها امرأة تافهة وفارغة ولا تستحق رجلاً
مثل حضرتك. من يقول لك هذا رجل عجوز يعرف شيئاً عن هذا
الموضوع. قلبك كبير جداً عليها يا حضرة الشاب! محاولة إفراغ
نفسك من حسرة حبها تصرف ذكي، فهذه إحدى طرق طرد
الأحقاد الحية التي قد يتعفن منها القلب. من يفضلون إخفاء هذه
الأحقاد داخل حناياهم بصفتها شيئاً لا يجب أن يدركه أحد، ينتهي
بهم المطاف بتعظيم هذه الذكرى السيئة، إلى درجة أنهم بين
الحين والآخر يخرجونها برهة لمداعبتها، بعد أن يغشاهم الحنين،
من دون أن يدركوا أن ما يداعبونه في الأصل هو قطعة من الخراء!

بعد أن أنهى اعترافه، استغل تريستان ميل الدون إلى النزعة العاطفية
ليسأله ما إذا كانت رزمة الصحف التي وصلت مع المؤونة تضم صحفاً
من العاصمة، فأكد العجوز ظنه.

- وأين الرزمة؟

- في الحفظ والصون. لماذا؟

- أردت أن ألقى نظرة فحسب. لم أقرأ صفحة رئيسية لجريدة منذ
فترة.

- هل تقول لي حضرتك أنك تقرأ الصفحات الرئيسية للجرائد
فحسب؟

- غالبًا. ولماذا قد أكذب!

- إذن، لا داعي لفك الرزمة. الأمر وما فيه أنني أقرأ حتى الصفحات الاجتماعية. كما ترى يا حضرة الشاب، فأنا ليس لديّ راديو أصلاً، ولا تروقني الموسيقى الحديثة. أفضل قراءة الجرائد، حتى وإن كانت أنباء بائنة.

- والأفضل أن تكون أخبارًا وتقارير عن عازفي الكمان؟

- بالطبع! ويا سلام لو تحدثت عن حياة وأعمال باجانييني. أهذه جريمة؟

- لا، لكنني متعجب من أنك معجب به من دون أن تسمعه، لأن حضرتك، وفقًا لكلامك، لم تسمع موسيقاه.

وكل مرة يبدو فيها دون أورسيتيني في وضع ملح، أخرج علبة سجائر «بارتيكولاريس»، ثم أشعل واحدة بإيماءة مستسلمة، ونفث الحلقات الدخانية الثلاثة ونظر إلى السقف. بعدئذٍ، التفت في اتجاه تريستان بجسامة شخص يوشك على كشف أكثر الأسرار المكنونة وقال:

- أجمعها بدافع الفضول البحث يا حضرة الشاب!

حين رأى إيماءة تريستان المتشككة، أضاف العجوز أنه اهتم بباجانييني حين قرأ في السادسة عشرة مقالًا عن حياته، ومنذ ذلك اليوم شرع يقرأ ويجمع كل ما يرتبط بعبقري الكمان. هكذا، فكما يجمع بعض الناس المناشف الورقية أو علب السجائر وعملات البامبا القديمة، اعتاد هو أن يجمع مقالات وأخبارًا وصورًا ورسومًا كاريكاتورية وكل ما قد يرتبط بباجانييني، ولو أن الأمر بيده، لكان قد جمع تسجيلاته.

يقول تريستان:

- أجل. من المؤسف جدًا أنه مات قبل اختراع وتردد صوت أول تسجيل موسيقي.

يتباهى دون أورسيثينيو:

- لتحري الدقة، فإن أول تسجيل موسيقي جرى في 1860، أي بعد مرور عشرين عامًا على وفاته.

- بالتالي لم يصلنا أي تسجيل ملعون للصوت المتشيطان لكمانه، وإنما الشهادات التي كتبها معاصروه والنقاد والعازفون وأنصار الفنون والمعجبون الذين حظوا بالاستماع إليه أو رؤيته في أي من حفلاته التي أثارت حالة من الهيستيريا. كان إلفيس بريسلي عصره!



في صباح ذلك السبت، نهض دون أورسيثينيو وهو يصفر لحنًا غريبًا جديدًا وبهيجًا. صفره في المرحاض وهو يتبول. صفره في الفناء وهو يغسل وجهه. صفره في غرفة النوم وهو يرتب فراشه، وفي المطبخ، وفيما يجهز البيض المقلي في المطبخ، ظل يصفره أيضًا.

بعدئذٍ، نهض تريستان وكرر تصرفات الدون، لكن من دون تصفير. تحدثا عن بعض التفاهات. سأله تريستان أي لحن هذا الذي صفره. «أنا نفسي لا أعرف»، هكذا أجابه دون أورسيثينيو. ضحكا. قال تريستان إن ثمة عفاريت في الليل تقترب من العازف النائم، وتصفّر أحيانًا في أذنه بدافع التسلية فحسب، وهي الألحان التي يصفرها أو يُدندنها في اليوم التالي من دون أن يعرف أين أتت. قال إن أفضل موسيقى سمعناها كانت قد صُفرت في أذان العازفين من قبل هذه العفاريت الهاوية للموسيقى. واختتم حكايته وهو ينظر مباشرة إلى عيني دون أورسيثينيو:

- وبالطبع هذه العفاريث تُصَفَّرُ ألحانها في أذان أفضل العازفين،
مثلك يا حضرة الدون.

فهتف الدون:

- كفانا من شغل التهريج هذا!

كانت نحو الحادية عشرة. حكى تريستان لدون أورسيثينيو عن
أشياء عاشها في الأيام والليالي التي استغرقتها رحلة القطار.

- تخيل يا حضرة الدون. انطلقت يوم الإثنين الموافق الثالث والعشرين
من يناير ووصلت يوم الأربعاء الموافق الخامس والعشرين، ولا
تزال تتبقى أكثر من خمسمائة كيلومتر للوصول إلى..

قاطعته الدون:

- لحظة يا عازف الكمان! إن كنت قد وصلت في الخامس والعشرين،
فما تاريخ اليوم؟

يقول تريستان:

- السبت الثامن والعشرون.

نهض العجوز من على المائدة بقفزة واحدة.

ليعذر الشاب، فهو مضطر إلى الخروج.

- هل تجيد الطبخ؟

يقول تريستان:

- أنا سيئ حتى في شاي الفتلة.

لكن لو أنه مضطر إلى الطبخ، فسيطبخ!

دخل العجوز غرفة المتحف⁽¹⁾ وخرج ومعه نصف طية من ورق الحرير الأصفر، وقطعة من ورق الحرير الخشن الأخضر، وسلك نحاسي طوله عشرون سنتيمترًا ومقص. جهز القليل من معجون النشا اللاصق وجلس إلى المائدة بكل هذه المواد الخام، وفي ظرف خمس عشرة دقيقة، أزهرت في يده وردة صفراء بكامل رونقها. إنها وردة بساقها وأوراقها الخضراء.

سأله تريستان إلى أين سيذهب.

- إلى المقبرة.

- هل هي بعيدة جدًا؟

- وراء تل الرواسب.

- هل تريد أن أرافقك؟

- لا. هذا شأن شخصي.

دقت السادسة مساء حين عاد دون أورسيثينيو. كان تريستان قد أنهى ثلاث ساعات من التدريب على كمانه، ونعس غاطسًا في مقعد الصالون بقميصه الداخلي وهو غارق في عرقه. لم ينتبه إلى وصول العجوز، إلا حين سمع ضوضاء الصحن.

- أجدت طهو الشعيرية يا فتى! كانت فعلاً بمثل جودة الشعيرية التي أصنعها.

في تلك الأيام الأخيرة، صار الدون يحب سؤال تريستان عن حياته الشخصية. أراد أن يعرف أدق تفاصيلها. برر تريستان أسئلة العجوز

(1) سيتضح لاحقًا المقصود بهذا المصطلح (المترجم).

بتخيل مدى العزلة التي قد يشعر بها المنفيون مثله، حتى وإن كان منقاهم باختيارهم.

حل الليل.

نهض الدون من أمام الطاولة، وارتدى معطفه الأسود الطويل الواصل حتى ركبتيه واحتفظ داخله بمضربه.

- ستكون جولة قصيرة. سأخذ الكشاف فحسب.

عاد بعد نصف ساعة.

كان تريستان قد أضاء المصباح وغطسا مرة ثانية في مقعديهما.

قال تريستان وهو يتذكر درشة اليوم السابق:

- إذن، قضيت خمسين عامًا وأنت تجمع قصاصات عن باجانيني، أليس كذلك؟

سعل دون أورسيثينيو:

- أجل، وعثرت على أغلبها في الصحف والمجلات التي يجمعونها لي في نقابة العمال ويرسلونها إليّ كل خمسة عشر يومًا مع شاحنة المؤونة.

- جميل يا حضرة الدون أورسيثينيو، لكنك لم تقل لي بعد السبب الرئيسي لرغبتك في معرفة كل شي عن باجانيني، لأن «الفضول البحث» إجابة مبهمة جدًا. موضوعك أكبر من هذا. إنه إخلاص تام، أو هوس اندفاعي، كما قد يصفه أي طبيب.

قال العجوز وهو يريد أن يرسم إيماءة متهمكة مع ابتسامته:

- ولماذا يا حضرة العازف الهائم تريد أن تعرف كثيرًا عن حياتي؟ فضول؟ إخلاص؟ أم هوس اندفاعي؟

يتنحى تريستان. يقول إن السبب هو المودة البحتة. مع أنه في البداية حسبه الشيطان بعينه، لكنه بمرور الوقت، صارت لديه قناعة متزايدة بأنه عازف كمان عظيم، بل وبارع، وأنه قرر الاختباء من العالم مثله بسبب حسرة الحب. إنهما مجذومان من الحب جعلاً من هذه الصحراء مستشفاهما للعلاج من هذا الداء.

ظل العجوز صامتاً. وضع يده في جيب معطفه وأخرج ساعته الـ«لونجين».

- إنها العاشرة ليلاً. سأخرج في جولة صغيرة أخرى.

وخرج إلى الليل، ومضربه تحت معطفه الأسود الطويل الواصل حتى ركبتيه، فيما يحيطانه كلباه الحارسان من الجانبين.

نظر تريستان عبر نافذة غرفة المعيشة: منح قمر «النعيم السامي» السماء جلاء شبيحاً. من مكانه المرتفع فوق تل الرواسب. أخرج كمانه من حقيبتة وخرج إلى المدخل المسقوف. كان الليل معتدل الحرارة وهبت موجة هواء فاترة خفيفة لامست وجهه كأنها لسان حيوان ثديي. بينما يقف عند مطلع المدخل المسقوف، تحت السماء البلاتينية، بدأ تريستان حفله بعزف سوناتا لفيثالدي. ترددت نغمات كمانه ودوت بنقاء دوى وسط صمت الصحراء والسكون السمعي للقريبة الخاوية.

بعد أن عزف لوقت معقول، وهو في وسط مقطوعة لباجانيني، بدا له أنه يرى كتلة سوداء تظهر وتختفي بالقرب من البيت. شعر بالفرع. أدرك سريعاً أنه أحد الكلبين. هل حدث شيء ما للدون؟ أوقف العزف وترك الكمان على المقعد وذهب ليتفقد ما يحدث. وجد العجوز بالقرب

من البيت وهو يجلس على الأرض إلى جوار أحد الكلبين، فيما تفيض عيناه بالدموع.

- ما الأمر يا حضرة الدون أورسيتينيو؟ هل حدث لك شيء ما؟

وضع العجوز يده في جيب معطفه الأسود الطويل الواصل حتى ركبتيه وأخرج منديلًا مُكببًا. (لقد رآه تريستان يُخرج أشياء كثيرة من معطف الساحر الذي يرتديه إلى درجة أنه خاف من أن يخرج منه حربة ثلاثية الرأس في أي لحظة). بعدئذٍ، جفف العجوز دموعه بمسحة واحدة.

قال:

- كنت أنصت إلى موسيقاك يا حضرة الشاب. أنت عبقرى في الكمان.

نهض واقفًا وعانقه بقوة، ودخلا إلى البيت وهما يتعانقان.

- حكيت لي قصة حسرة حبك، ومكافأة لك، سأريك شيئًا لم يره أحد قط.

- كمانك؟

- كفانا من هذا الملل يا دون تريستان!

لما دخلا البيت، لم يخلع العجوز معطفه، كأنه يزدرى الحر المهيمن عليه. فكر تريستان في أن العجوز ربما يعرف أنه سيفقد هيئته وحضوره وسلطته، من دون معطفه الأسود الطويل الواصل حتى ركبتيه.

علق العجوز المصباح فوق العارضة وأخرج مفتاحًا من تحت حاشية الفراش، وفتح باب غرفة الأسرار. قبل أن يدخل، قال:

- هذا هو قدس أقداسي.

شعر تريستان كأنه يزدرد حجرًا عبر حلقه. ظهرت ثلاثة جدران مغطاة بالعرض وبالطول بقصاصات: مقالات عن باجاني، رسوم عن باجاني، كاريكاتيرات عن باجاني، بورتريهات لباجاني، مقابلات مع عازفي كمان عظماء يتحدثون عن باجاني. كلها مقصوصة من جرائد ومجلات لامعة. في الجدار الواقع في نهاية الغرفة، ظهرت مائدة كبيرة، مصنوعة من الخشب الخام تراكت عليها جرائد ومجلات.

في وسط الجدار الجانبي الأيمن، ظهر بورتريه كبير لباجاني، مرسوم بالقلم الرصاص. في الجدار الجانبي الثاني، بخلاف القصاصات الملصوقة، استقرت أريكة جلدية بلون القهوة كانت جزءًا من أثاث غرفة المعيشة، وبدت مهترئة أكثر من مقعدي الصالون. إلى جواره، ثمة ما يشبه الضريح. إنها واحدة من تلك الخزانات الأنيقة التي توضع في الأركان واستقر على سطحها تمثال نصفي لباجاني، يشبه تمثال بيتهوفن النصفي الشهير. حوله أيضًا، رقدت بعض الورود الورقية، وبقايا شموع، وشموع نصف مستهلكة.

لفت انتباه تريستان، الذي لم يبلع مسألة الأنفوس المباركة والقديسين أصحاب المعجزات، صندوق التفاح الظاهر تحت الضريح. افتقر إلى غطاء وظهر محتواه وهو «كتب المستجدات» الأربعة عشر.

وحينئذ فكر: يا لرغبتني الجمّة في قراءتها!

بينما يتفقد تريستان الغرفة بنظرته ويقرأ القصاصات الموجودة على الجدران، مضى دون أورشيثينيو وراءه وهو يكاد يلتصق بأذنه فيما يحكي له أشياء عن كل واحدة منها. البورتريه المرسوم بالقلم

الرصا ص هو من رسمه في السادسة عشرة. بالنسبة إلى مكن
تميز تمثال باجانيني النصفى، فهو أنه مصنوع من الملح الصخرى
المصهور. صنع له صديق احتاج فحسب إلى أن يرى صورة من
بورترىه مقصوص من إحدى المجلات.

- حضرتك ترى بالفعل: لذي باجانيني في صورة قديس في مذبج.
قال تريستان، من دون أن يرفع نظرتة من على كتب المستجديات
الأربعة عشر، إنه سيروقه جدًا أن يقرأها.

غير الدون الموضوع جذريًا. قال إن باجانيني قبل وفاته فقد
أسنانه وصوته بسبب أمراض مثل السل والزهرى، ضمن أشياء أخرى،
وإن أسقف نيس، المدينة التي مات فيها، رفض السماح لعائلته بدفنه
في مقبرتها، بسبب اشتهاره بأنه يمارس أعمالًا مع الشيطان. بهذه
الطريقة، ظلت جثته المحنطة ثلاثين عامًا في أحد الأقبية، إلى أن تمكن
ابنه أوليسيس في النهاية من دفنها في مقبرة بارما، المدينة الوحيدة
التي قبلت دفن رفاتة.

بدا تريستان مندهشًا.

تنهد العجوز:

- هذه هي المواد القليلة التي تمكنت من جمعها.

- هل تعتقد يا حضرة الدون أن هذا قليل؟

- لأنني ظلت خمسين عامًا أجمعها، فبالطبع نعم! يكتب عن
باجانيني أقل بكثير مما يستحق.

وأشار إلى أن أغلب ما كُتب تسلى بوصف الأساطير التي ظهرت حول
قامته، وبعضها شديد الافتراء ومنها تلك التي تقول إن باجانيني قتل
عشيقتيه، وإنه أثناء قضاء عقوبته في السجن امتلك كمانًا قديمًا بوتر

واحد، مع إضافة تفصيل مخيف يقول إن هذا الوتر الوحيد صُنع من أمعاء إحدى عشيقتيه.

- وهل فعل باجانيني شيئاً لتكذيب هذه الشائعات؟

- على النقيض، بدت هيئته وسلوكياته في الحفلات كأنها تؤكدھا. تقول تراجم من عصره إنه كان طويلاً ونحيفاً، عالي الجبين وأعقف الأنف، وشاحب كميّ، واعتاد أن يُبرز هذا الشحوب بارتداء اللون الأسود، وإنه في حفلاته، اعتاد أن يركض ويثب ويتلوى بجسده، فيما يتساقط شعره الطويل على وجهه، أثناء العزف على الكمان. جعلت كل هذه الأمور، ومآثره الفنية المبهرة، التي بدت فائقة لقدرات البشر، الناس يصدقون فعلاً في عصره أنه صار أفضل عازف كمان في العالم لأنه أبرم صفقة مع الشيطان.

- الأفضل في هذا العالم، والعالم الآخر يا حضرة الدون!



خرج الرجلان من الغرفة، ليغطسا مرة ثانية في المقعدين. أخرج دون أورسيثينيو واحدة من سجائر «بارتيكولاريس»، وأشعلها وهو يشير إلى مسمار يبرز من إحدى عوارض السقف، ثم نفث حلقات الدخان الثلاث. أصابت الثلاث حلقات هدفها. وبإيماء تنم عن رضا تام، من دون أن يبعد نظرتة عن السقف، سأله كيف بدا له متحفه الشخصي.

- مدهش هي أقل كلمة تصفه. أهنئك. لكن أتعرف يا حضرة الدون، توقعت أن أعثر على كمان.

انفجر العجوز. ألقى سيجارته بعيداً وعادت علامتا الـ «ff» مرة ثانية في جبينه، وهو يقول ما إذا كان حضرة الشاب قد مسه الجنون، أو أن

كل الشباب مجانين. بعدئذٍ، قال بهدوء وهو يحاول السيطرة على نفسه وألا يرفع صوته:

- هل تعرف حضرتك كم قد يكلفني كمان مثل هذا؟
صار صوته أجش وأعمق وأكثر إيلاً بسبب غضبه ورغبته في عدم الصراخ.

قال تريستان بنبرة تصالحية:

- لا أتحدث عن كمان لباجانيني.
وضع العجوز يده في الجيب الداخلي لمعطفه القديم الأسود الواصل حتى خصره.

فكر تريستان: الآن لن يُخرج حربة ثلاثية الرؤوس، بل خنجرًا.
أخرج الدون سيجارة أخرى، وأشعلها، وشرع يدخن من دون أن ينفث حلقة واحدة ملعونة، ثم ذهب لينام.

في ذلك الصباح، استيقظ تريستان الحزان في وقت متأخر. إنه يوم الأحد. دخلت الشمس كفيضان عبر النافذة. بينما ينهض من فوق الكرسيين، بُهت، فعلى الأرضية، وإلى جوار كمانه، عثر على صندوق التفاح وداخله «كتب المستجدات» الأربعة عشر. في ظل حيرته، أراد أن يشكر الدون على مجاملته، لكنه لم يجده، فنهض وتوجه إلى الحمام.

لما عاد إلى الصالة، كان دون أورسيتينيو قد رجع. حياه تريستان بشك، تحسبًا لأن يكون الدون لا يزال مستاء. رد عليه العجوز بكل عفوية. قال إنه قد رجع من جولة سريعة، فقد غلبه النوم قليلًا ولم يتناول إفطاره بعد. بينما ينتظران أن يغلي الماء، شكره تريستان على ثقته به والسماح له بإلقاء نظرة على «كتب المستجدات».

قال العجوز إن هذه طريقته في الاعتذار عن نوبة غضبه الليلة الماضية، فالأمر وما فيه أنه لم يعد معتادًا على أن يكون في رفقة أحد، لكن لا بد أن يتوقف حضرة الشاب الصغير عن محاولة صيد الساحرات، فهو ليس الشيطان ولا تجسيدًا لباجانيني، ولا شيئًا من هذا القبيل، مع أن ثمة شيئًا يرتبط بكل هذا، كما قال وهو يركز على أسنانه.

غلت المياه.

بينما يستعد لإطفاء الموقد قال إنه بسبب حلم رآه في الليلة الماضية، سيكشف له الحقيقة بخصوص هوسه بعازف الكمان الإيطالي.

تناولا الإفطار في صمت. بمجرد أن فرغا منه، قال تريستان إنه سيروقه الإنصات إلى هذه الحكاية الكاشفة. فرغ العجوز من تناول آخر قزمة من العيش، وأسند ظهره إلى مسند كرسيه، ووضع يده في أحد الجيوب التي لا يمكن سبر أغوارها لمعطفه الأسود القديم الطويل الواصل حتى ركبتيه.

فكر تريستان: الآن فعلاً سيخرج مسدسًا ويردني بالرصاص.

أخرج العجوز شيئًا مختلفًا ومد يده عبر الطاولة وناولته إياه من دون أن يقول شيئًا. أمسكه تريستان. قرأه ولم ينطق كلمة واحدة. إنها بطاقة هوية تخص أورسيتينيو نيكولسا باجانيني توريس. تاريخ الميلاد 22 نوفمبر 1890، وصادرة في مدينة باريلوتشي، الأرجنتين.

قال بنبرة جشاء متزايدة:

- أعتقد أنني أنتمي إلى الغصن الأخير من شجرة عائلته.

لم تُسعف الكلمات تريستان. شرح العجوز أن كل ما يعرفه عن أبيه هو أنه أحد آخر المنتمين إلى عائلة باجانيني، وأنه تزوج بامرأة

باريسية، هي أمه، وأنهم هاجروا إلى الأرجنتين، وأنه وُلد بعد عام من استقرارهما في مدينة باريلوتشي الأرجنتينية، لكن أمه لم تتمتع بصحة جيدة، وتوفيت عقب أسبوعين من إنجابهِ. لم يطق أبوه ألم فراقها وعاد إلى إيطاليا بمفرده بعد ستة شهور على وفاتها. تركه في عناية عائلة تشيلية عملت لصالحهما واهتمت به منذ ولادته. خلص أبوه إلى أن أنسب شيء للطفل هو أن يبقى لأنه سيسافر إلى أوروبا بحرًا والرحلة شديدة الطول. يفترض أن رحلة أبيه كانت لها عودة، لكنه واجه مشكلات في أوروبا ولم يتمكن قط من الرجوع. هكذا، ربه هذه العائلة التي تكونت من الزوج والزوجة وابنة تعاني متلازمة «داون»، وكان مسقط رأسها في أوبايي. بعد ثلاث سنوات، عادت العائلة إلى تشيلي واستقرت في «مونتي باتريا»، وهي قرية صغيرة في الريف التشيلي. خلال تلك الفترة، لم يتوقف أبوه قط عن إرسال المال. ولم تتوقف العائلة التشيلية، بناءً على طلبه، عن إرسال صورته إليه سنويًا. لم يدرك أهمية لقبه إلا وهو في عمر الخامسة عشرة. اكتشف أهميته في المدرسة، في إحدى تلك الموسوعات الضخمة. حينذاك، بدأ يسأل في البيت، ويُزعج أبويه بالتبني، إلى أن استسلما.

- هكذا عرفت أن أبي البيولوجي هو بييرتو باجاني، سليل عازف الكمان. أفترض أنه هكذا سيتضح لك لماذا اهتمت كثيرًا بجمع كل هذه القصص. أشهر عازف كمان في العالم هو سَلَفِي! هل تفهم يا حضرة الشاب؟

- لو أنني في مكانك لفعلت الشيء نفسه يا حضرة الدون.
قال تريستان عبارته وهو مذهول من الانكشاف الذي محا أي شك لديه: لا أحد سواه يُمكن أن يكون عازف كمان الليلة الأولى!

كُرس يوم الأحد بالكامل للصمت، هذا الصمت الملائن بالدوي والأصدقاء والجلجلة التي تصاحب القراءة والكتابة. قضى العجوز النهار بطوله وهو يكتب في «كتاب المستجدات الخامس عشر»، ولم يتوقف إلا لتناول الغداء وإجراء الجولات. لم يترك الكتاب فوق الطاولة قط. أغلق عليه بالمفتاح داخل متحفه الشخصي. من ناحيته، انغمس تريستان في قراءة الكتب الأربعة عشرة، ولم يتوقف إلا للذهاب إلى المرحاض أو لتبليل شعره بسبب حر يناير المٌدوخ. قضى اليوم هكذا: أحدهما يجلس إلى المائدة ويكتب، والثاني وهو غاطس في مقعد الصالون ليقرأ. كلاهما بقميصه الداخلي ويتصبب عرقاً.

بدأ تريستان يقرأ الكتب من أحدثها، أي الكتاب الرابع عشر. مع ذلك، لما فرّ بعض الصفحات، عثر على تدوينة تقول:

اليوم، في الساحة، استشعرت مرة ثانية عبير حبيبتي
أ.ل.

شعر تريستان أنه إن أراد أن يعثر على أي إشارة للكمان فعليه أن يبحث عن التدوينات التي تتحدث عن أ.ل. وهما الحرفان اللذان يتماشيان مع الاسم الذي قالته له حفيدة الدون: أوبرليندا ليناريس، المرأة التي كانت سبباً في حسرة قلبه. عثر على أغلب هذه التدوينات في الكتب الأولى. ترك الكتاب الرابع عشر جانباً، وأمسك الكتاب الأول. حكى الكتاب الأول مجموعة كبيرة من المستجدات التافهة، بل ربما كلاماً فارغاً، مثل:

اليوم، قرب الظهيرة، جاء ثعلب أحمر لزيارتي. جعلت
الكلبين يتشاركان طعامهما معه.

بالأمس، الساعة 16.25، مرت زوبعة ضخمة وكورت
معها بغضاء المساء، وأطاحت ببعض أسقف الزنك
الخاصة بالمعسكر.

احتوت أيضًا على تدوينات أكثر تشويقًا مثل:

اليوم بعد السادسة مساء، باغت «كشافًا» من عصابة
لصوص خشب أوريجون. هددني بمطواة. اضطررت إلى
مطاردته بالمضرب. لم تسل الدماء.

أمس، مساء، غطاني إعصار رملي أنا وكلبيّ. غطى
البيت، وغطى المعسكر كله، بل غطى الشمس نفسها،
وصار النهار ليلاً.

لكن وسط هذه التدوينات، ومئات أخرى مشابهة، عثر على ما يتحدث
عن حبه لـ«أل.»، التي لم يذكرها إلا بهذين الحرفين الأولين من اسمها
فحسب.

اليوم، بدا لي أنني رأيت أل. وهي تنعطف عند ناصية
شارع «الألف بهجة».

كان هذا المساء جيدًا في رأيي: جلبت لي رياح الرابعة
الشعر الذهبي لـ«أل.»، وهو منحوت فوق إحدى الغيوم.

اليوم في جولتي الليلية، عادت «أل.» لتدفعني مرة ثانية إلى المعاناة، إذ إنني مررت إلى جوار «كشك الموسيقى»، سمعتها تضحك ضحكتها المجنونة المنطلقة.

مع ذلك، لم تشر أي من هذه التدوينات إلى الكمان؛ على الأقل في الكتاب الأول، الذي فرغ من قراءته في أربع ساعات. قد تستغرق قراءة الكتب وقتاً أقل، لكنه وجد نفسه مضطراً إلى فك شفرة الخط العنكبوتي لدون أورسيثينيو، والتعاطي مع إشكالية أن الكتب الأولى قد كُتبت بقلم رصاصي أسود، وبهتان تدويناتها مع مرور السنين.

لكن ما أدهش تريستان من ناحية أخرى، أكثر من المستجدات نفسها، هو طريقة كتابتها. بدا دون أورسيثينيو كأن فيه شيئاً من خصال الشعراء، حتى وإن لم يعلم هذا. أو ربما الأمر وما فيه أنه يعلمه.

استيقظ تريستان مبكراً يوم الإثنين. ظل ينظر إلى السقف برهة. حسب أنه لو عثر على تدوينة واحدة تشير إلى الكمان، فسيغدو هذا دليلاً لا يُمكن دحضه على أن دون أورسيثينيو هو من عزف الكمان بتلك الطريقة الشيطانية مثل سلفه نيكولو باجانيني.

نهض. إنه يوم الاستحمام. لكيلا يهدر الماء، كان يترك يوماً يمر بين كل يومين قبل التحمّم مجدداً. بالنسبة إلى دون أورسيثينيو، ففعلها مرة أسبوعياً في يوم وصول القطار فحسب. سماه تريستان «حمام المرطبان»، إذ تحتم جلب الماء إلى الفناء في مرطبان زبدة، مزود

بحلقة، وجلب مرطبان حليب «نيدو»، والجلوس عاريًا في طست من الصفيح، وإخراج الماء بمرطبان الحليب من مرطبان الزبدة، كي يصبه المرء فوقه.

بعدئذٍ، رافق العجوز في تناول الإفطار.

حين خرج دون أورسيثينيو، بمعطفه الأسود القديم الطويل الواصل حتى ركبتيه، في جولته الصباحية، انغمس تريستان في قراءة «كتاب المستجدات الثاني». تحلى بأمل أن يطفو من بحاره بلؤلؤة بين أسنانه. لما عاد العجوز، نحو الحادية عشرة، كان تريستان قد صار شامبليون في فك هيروغليفية دون أورسيثينيو وقرأ ما يزيد على نصف الكتاب، لكنه لم يصطد إلا أشياء قليلة، ولم يكن أي منها لؤلؤة. حين رآه متحمسًا في القراءة، سأله العجوز لماذا يهتم بهذه المسألة كثيرًا.

أجابه تريستان بنفس التكشيرة الساخرة التي يجيبه العجوز بها:

- فضول بحت.

- آها.

- أتعلم يا حضرة الدون أورسيثينيو، بصرف النظر عن خطك الذي يبدو مثل الأطباء، فإن كتابتك منضبطة. تكتب بصورة جيدة جدًا. أعتقد أن حضرتك، بكل ما تحكيه في صفحاتك، قادر على تأليف كتاب قصصي جيد، أو حتى بناء رواية.

نظر إليه الدون وعلى وجهه تعبير كأنه يريد أن يقول: ما الذي يقوله هذا الأحمق!

- قصص؟ روايات؟ هل تقول لي يا حضرة الشاب إن الموجود في هذه الكتب كله كذب، وتخيل، واختراعات مني؟

أراد تريستان أن يعتذر:

- انظر يا حضرة الدون: إن كان كل الموجود في هذه الكتب حقيقي، فهو شيء جيد جدًا، لكن إن كان مخلوطًا بالتخيل والخيال وابتكارات منك، فحينئذٍ سيكون جيدًا جدًا بمقدار الضعف.

لم يرد العجوز أن يسمع المزيد منه، فاستدار وبدأ يطبخ صحن الفاصوليا البروليتاري الخاص بأيام الإثنين؛ تلك الفاصوليا التي نفعها سلفًا في الليلة الماضية.

في يوم الثلاثاء، عشية رحيله، استمر تريستان في القراءة طوال الصباح من دون أن يجد شيئًا يشير إلى الكمان. من ناحيته، ظل العجوز يكتب كمحموم في كتاب مستجداته الجديد. أعطى انطباعًا بأن أشياء مهمة قد حدثت في يناير الحار ذلك وأنه قد حان وقت تحديث المعلومات. سيكون شائعًا أن يُلقى المرء نظرة على هذا الكتاب ليرى ما كتبه عن ظهور شاب يحمل كمانًا في «التعيم السامي». غير أن الدون توخى الحذر.

مساءً، قبل شاي الخامسة، حين خرج العجوز في جولة. عثر تريستان على اللؤلؤة. إنها تدوينة في «كتاب المستجدات الثالث» جعلته يقفز من مقعده.

- ها هي ذي! الآن لن يستطيع الدون أن يفلت بذيله!

لم يكن قد فرغ من الاحتفال باكتشافه، وإذا بالسابع والعشرين من أكتوبر، الكلب الأكثر سوادًا، يعود بمفرده من الجولة. وقف أمامه وهو يئن. نظر إليه بعيني كلب متسول وظل يئن.

حدث شيء ما للدون! هكذا فكر تريستان، وخرج وراء الكلب. أخذ من كومة الخردة الموجودة في المدخل المسقوف أنبوباً حديدياً، ومن دون أن يهتف، أو يصدر أي صوت أمر، أو حتى أن يقطع أصابعه، وجه الكلب، الذي لم يتوقف عن إصدار أنينه، بأن يركض. توجه الكلب إلى الساحة، فركض وراءه على بعد مسافة قصيرة. لما حسب أنه سمع صوت مركبة. فكر: اللعنة! لا بد أنهم لصوص خشب أوريجون، ثم بدأ يصرخ:

- دون أورسيثينيو! دون أورسيثينيو! لقد وصلت الشرطة العسكرية! ثم غير صوته:

- أجل يا دون أورسي! وصلت الشرطة العسكرية بالفعل!

تردد صدى صرخاته في كل أنحاء المعسكر. علم تريستان أنهم سيسمعونه، كما حدث معه هو والفتاة صاحبة العينين البشوشتين حين سمعا صراخات أمها وهما في برج الكنيسة. لما وصلا إلى الساحة، التفت الكلب ناحية «الجمعية الاستهلاكية»، وظل هو يصرخ من ورائه:

- نحن قادمون يا دون أورسي!

دخل الكلب «الجمعية الاستهلاكية» وتبعه وهو يصرخ بعلو الصوت، بل بعلو الصوتين. قاده الكلب إلى مستودع يقع وراء قسم البقالة. كان سيصرخ مرة ثانية، حين سمع صوت انطلاق شاحنة. تمكن من رؤية أنها زرقاء وذات صندوق مرتفع، وُضعت فيه بعض العوارض. دخل إلى المستودع، وفي أحد الأركان، وجد دون أورسيثينيو والسابع والعشرين من مايو وهما يفتشان الأرضية، وكل منهما غارق في بركة من الدماء. بينما يرتعش، اقترب من العجوز الذي تبرعت الدماء من جرح في رأسه. جس نبضه. إنه حي! خلع قميصه وربطه فوق رأسه لوقف النزيف. كان الدون لا يزال غير واع حين ركض تريستان إلى

البيت وعاد مع عربة الجر الموجودة في المدخل المسقوف. في البداية، رفع الدون، ثم السابع والعشرون من مايو. مع ذلك، كان الكلب قد مات.

حين استعاد دون أورسيثينيو وعيه، كان راقداً فوق فراشه وتريستان ينظف دماء جرح صدغه الأيمن الذي تفجرت منه الدماء في البداية.

دمدم العجوز:

- واللصوص؟

قال تريستان وهو يضحك:

- اهدأ يا حضرة الدون. لقد رحل الأشرار. أفزعتهم بالصراخ فحسب.

حاول العجوز أن يبتسم، لكن وجهه عجز عن ذلك. حينئذ، سأل عن الكلب وما إذا كان اللصوص قد تمكنوا من سرقة أشياء كثيرة. قال تريستان إنهم تمكنوا من أخذ عارضتين فحسب، وإن الكلب للأسف مات.

اغرورقت عينا العجوز بالدموع. قال إنه يجب أن يذهب لرؤيته، وحاول أن ينهض. قال له إنه لا يمكنه أن ينهض، لأن الجرح لا يزال مفتوحاً. في محاول لإلهائه، طلب منه أن يحكي له كيف حدث كل شيء. قال دون أورسيثينيو وهو يدمدم إنه سمع ضوضاء داخل «الجمعية الاستهلاكية»، وإنه دخل ومضربه في يده، لكنهم كانوا ثلاثة وانقضوا عليه وأخذوا المضرب منه، وفيما يعافر معهم قفز السابع والعشرون من مايو والسابع والعشرون من أكتوبر على اللصوص، من دون أن ينبجا أو يزمجرا، لكن بعدما صدر منهما أحد أشكال الزئير التي لم يسمعها قط. عضا اثنين منهما، لكن الآخر تمكن من أخذ المضرب منه وضرب السابع والعشرين من مايو، أو أكثر الكلبين سواداً، على رأسه. لم يتمكن

من رؤية ما حدث مع السابع والعشرين من أكتوبر، لأنه شعر بضربة فوق رأسه، ولم يعرف شيئاً بعدها.

قال تريستان:

- لحسن الحظ أن الضربة كانت بمواربة. لو جاءت بكامل قوتها، لأصبحت الآن في الجنة مع الكلب، فالجنة لا يُحرّم فيها دخول الكلاب مثل الكنائس.

أكد العجوز أن الرجال لا ينتمون إلى أي عصابة، بل حمقى استغلوا الفرصة، لا أكثر ولا أقل. لا بد أنهم كانوا تائهين ويبحثون عن الطريق السريع ولما مروا من هنا أرادوا أن يأخذوا بعض العوارض كتذكّار. بينما يكبس تريستان الدماء بالماء والملح، سأله ما إذا كان لديه ضمادات وكحول في أي مكان هنا.

قال العجوز:

- لا.

- هل من ملاءة نظيفة؟

- في الحقيبة الوسطى.

- والكولونيا؟

- في الحقيبة الأولى.

قص قطعتي قماش من الملاءة وطهر الجرح بـ«ماء الكولونيا» وأغلقه قليلاً بلاصق علاجي بسيط كان معه في الحقيبة، ثم شرع يلف الضمادة حول رأسه.

بدأت عينا دون أورسيثينيو تدمعان مرة ثانية.

قال:

- لا يُمكنني أن أترك السابع والعشرين، هناك، وهو مُلقى ككلب.

- لا تقلق يا حضرة الدون، الكلب في الخارج، عند المدخل المسقوف.



- انتهينا يا حضرة الدون.

كفت الضمادة للفها حول رأسه عدة مرات إلى درجة بدت معها كعمامة.

- شكرا يا حضرة الشاب.

- ألا تريد مرآة؟ تبدو فقيرًا هندیًا.

- لا. أريد أن أرى كلبي فحسب.

- ليس من الملائم أن تنهض. عليك أن ترتاح. لاحقًا، حين يطيب الجو، سنقيم جنازته.

- بالمناسبة، كيف تمكنت من جلبنا أنا والكلب إلى البيت؟

- الأمر سهل.. ذهبت لجلب عربة الجر وأتيت بكما إلى هنا كشوآلي بطاطا.

بدا العجوز كأنه قد تعرض لصدمة كهربائية، وظل ينظر إلى تريستان بعيني مختل. بعدئذٍ، انفجر باكياً. لم يخطر على بال تريستان أي شيء.

حين يحل منتصف الليل، سيفهم كل شيء.



دفنا السابع والعشرون من مايو في فناء المنزل في وقت الغروب. حفرا مقبرة ملتصقة بالجدار المقابل لملاعب التنس. لم يُجد أي منهما الصلاة. لم يعرف تريستان أصلاً كيفية رسم الصليب. فلترقد في سلام. هذا كل ما قالاه. رسم دون أورسيثينيو صليباً على الجدار بحجر. بينما يفعلها، انفجر في البكاء مرة ثانية.

تناولا العشاء في صمت وغطسا بعدئذ مرة ثانية في مقعدي الصالون. شكر العجوز تريستان على ما فعله من أجله.

- سأكافئك اليوم. سأحكي لك قصة حسرة حبي.

- ومعها الكمان؟

- أنت مثل كلب صيد، أليس كذلك؟ لا تفلت الفريسة أبدًا. حسنًا..

أعطني سببًا واحدًا يجعلك تظن أنني أعزف الكمان.

- يمكنني أن أقدم لك أسبابًا عدة، لكن إن أردت سببًا واحدًا، فهذا هو ذا.

يذهب إلى صندوق الكتب ويأخذ واحدًا:

- هذا هو «كتاب المستجدات الثالث». في الصفحة الثانية والعشرين

بتاريخ الحادي عشر من يوليو من عام 1944، دونت بخط يدك

شيئًا يوضح تمامًا أن لديك كمانًا أو أنك امتلكت كمانًا في وقت

سابق. إن لم تكن تتذكر، فاسمعني: «إلى حبيبتي أ.ل.، بعد ثلاث

سنوات على رحيلك: لا بد أنك الآن قد أدركت يا امرأة أنك قد

استبدلت رداء الأكورديون بنبل الكمان»

- آها! لهذا السبب أردت أن تقرأ كتبي، أليس كذلك؟

- آسف يا حضرة الدون. أفعل هذا لأنني أعتقد أن العالم عليه أن

يعرف موهبة السليل الأخير لباجانيني.

ظل دون أورسيتينيو صامتًا.

بعد برهة، أشعل سيجارة ونفث الدخان، من دون الحلقات، وقال

بتفضل إنه من الواضح أن نوايا عازف الكمان جيدة.

- مع ذلك يا حضرة الشاب، دعني أحكي لك قصة حسرة حبي،

ولنتحدث بعدئذ.

بدأ دون أورسي يحكي:

- كان عمري نحو الخامسة والثلاثين حين تعرفت إليها، أما هي فكانت صغيرة عمرها تسعة عشر عامًا، ولها جسد امرأة عشرينية. وصلت إلى «النعيم السامي» مع صديقة تكبرها بعامين. قالتا إنهما من أوبايي وجاءتا بحثًا عن عمل. تعاقدوا معهما لتعملًا في التغليف في «الجمعية الاستهلاكية». لم تكمل صديقتها شهرين في «النعيم السامي» ثم رحلت إلى أنتوفاجاستا مع رجل له سوابق سيئة. حين عرفتُها، كانت قد قضت أسبوعين فقط في البلدة. حدث هذا في حفل راقص. كانت أجمل امرأة رأتها عيناى، ووصل حسننها إلى أقصى درجاته وهي ترقص. سلوكها، منحنيات جسدها وطريقة رقصها.. كلها أمور أرهبت الشباب في سنها. اسمها أوبرليندا ليناريس. ومع أنه لم يجمع بيننا شيء مشترك سوى أننا من أوبايي -أنا من مونتي باتريا وهي من سوتاكي- تزوجنا بعد مرور ثلاثة أشهر. سألتها ذات يوم ما إذا كان لقبى يبدو لها مألوفًا. لم يكن لديها أي فكرة. قلت لها إنه لقب عازف كمان مشهور، الأعظم في التاريخ، فقالت بأفضل وجه لدُمية تمكنت من رسمه على وجهها: «بالنسبة إليّ، فلا شيء ممل أكثر من موسيقى الكمان». هكذا كانت: مباشرة كرفسة من بغل. قالت أيضًا إن الكمان يجلب لها ذكريات سيئة، وهذا لأنه في دار الأيتام التي هربت منها مع صديقتها كانت ثمة راهبة -وهي أكثرهن قدرة على العقاب- تحسب نفسها عازفة كمان وكان عزفها رهيبًا. (ومسألة الدار والهروب هذه حكتها لي قبل يوم من زواجنا). لم يهمني هذا. كنا سعيدين، أو على الأقل أنا. لم يُكدر سعادتي إلا رفض أوبرليندا أن تنجب لي ابنًا. كلما

جئت على ذكر الموضوع أمامها، قالت لي بدلال: «أنت لن تريد أن تتشوه منحنيات هذا الجسد الجميل، أليس كذلك؟». لقد اعتنت بجسدها كأنه جزء غرضها المتعة فحسب، وأنا لم أرد أن يختفي اسم باجانيني معي.

هنا، صمت العجوز. تنفس بعمق ليكتم نشيجه، وعلى الفور أخرج سيجارة، لكنه لم يشعلها ومضى في حديثه:

- نجحنا في العيش معًا خمسة عشر عامًا. لم تهتم بشيء في الحياة سوى نفسها. أيضًا، تمتعت بسمّة غامضة: كلما تقدمت أكثر في السن، بدت كأنها تصغر مع مرور كل يوم. في آخر أيامنا، لم أعرف ماهية المزاج السيئ الذي أصابها، إذ صارت توبخني لأننا لم نخرج معًا بصورة كافية، وتقول إن قلبها بدأ يذبل، وإنها شابة وتحتاج إلى الخروج، والذهاب إلى السينما بشكل أكبر، وإلى الرقص، وخصوصا الرقص. على المسرح، كان جسدها المغتبط ومنحنياته المثيرة الصغيرة عرضًا في حد ذاته. اعتادت أن تقول: يجعلني الرقص أنتشي. لطالما عوى الرجال حولها. لإرضائها وإبقائها سعيدة، بدأنا ننظم حفلات صغيرة في غرفة معيشة بيتنا. دعينا في كل عطلة أسبوع بعض الأزواج الأصدقاء ورقصنا على موسيقى مُشغل الأسطوانات، في بعض المرات حتى الصباح، وقدم كل زوجين العون بشكل ما. كما قلت لك، كنا على وشك إكمال خمسة عشر عامًا من الزواج حين حدث ما حدث. عملت في المنجم وذات يوم جاء إلى الجماعة شاب من الجنوب. لم يقل من أي مدينة أو قرية، بل من الجنوب فحسب. عرفت كثيرين من صنفه يخلون من ذكر اسم القرية التي ولدوا فيها، لأن القدامى اعتادوا أن يستخدموه لقبًا لهم، إن كان غريبًا

جداً. عرفت بعض الحالات بنفسى مثل «إل بييدرا كولجاه» و«إل بوتوه» و«إل تشيركينو». العامل الجديد شاب مصقول القوام ولطيف جداً. اسمه لورنثو أنابالون، ومع أنني تخطيته فى السن بأعوام كثيرة، صرنا صديقين منذ اليوم الأول. ذات يوم، علمت من أحد زملاء غرفته، أنه يمتلك أكورديوناً، وأنه يجيد العزف عليه. دعوته فى عطلة ذلك الأسبوع للحفل وشرحت له ما نفعه وطلبت منه أن يجلب الأكورديون معه. نجح الحفل، فلورنثو بخلاف كونه عازفاً عظيماً على الأكورديون، تألق كراقص. رقصنا بعضاً من الوقت على موسيقى الأكورديون، والبعض الآخر على مشغل الأسطوانات. فى تلك الليلة، رقص وتحدث وتودد إلى كل النساء، باستثناء حبيبتي أوبرليندا. لم ينظر إليها أصلاً. بدا لى هذا غريباً لأن الرجال فى كل الأنحاء سال لعابهم كى يرقصوا معها. وافقت فى أغلب المرات، لكنها لم تقبل قبض أى رقصات بطيئة. اعتادت أن تقول: «الرقصات البطيئة مع زوجى». فهمت لاحقاً أن سلوك لورنثو أنابالون فى تلك الليلة لم يكن تحديداً احتراماً لشخصى كما حسبت فى البداية، وإنما تكتيك للإغواء. عرفت هذا لاحقاً، ولم أعرفه من أى كتاب، وإنما سمعت ببساطة عجوزاً يعمل فى السكة الحديد يقول: «يجب ضرب النساء الجميلات المتغنجات بسوط اللامبالاة». يبدو أن هذا التكنيك فعال جداً، لأنه حقق نتيجته المرجوة للورنثو فى الليلة ذاتها، وفى نهاية الحفل، فيما يستعد الجميع للرحيل، لم تتحمل خيلاء أوبرليندا الجريئة لا مبالاة الرجل الذى سحر كل النساء أكثر من هذا. «دعونا نرقص الرقصة الأخيرة!»، هذا ما قالت للضيوف، ثم ذهبت إلى مشغل الأسطوانات ووضعت واحدة، وأمسكت يد عازف الكمان واقتادته ليرقص. لم أرها تفعل هذا مع أى رجل، وفوق هذا كانت رقصة بطيئة. فى

تلك الليلة، ظل الجميع يتحدثون عن روعة عازف الأكورديون، فلم نتوقف عن دعوته، إلى أن صار روح هذه الحفلات.

هنا أشعل الدون السيجارة التي أبقاها بين أصابعه. لم يصنع أي حلقة واستأنف حديثه:

- بعد مرور ستة أشهر على وصول عازف الأكورديون، سرت شائعة تقول إن «النعيم السامي» ستوقف آلاتها وتطفئ مداخنها وستتحول إلى قرية شبحية أخرى، وفي أحد أيام يناير، قبل شهر من تحول الشائعة إلى حقيقة، واضطرار الأهالي إلى الهجرة، اختفت زوجتي. في اليوم التالي، أبلغت الشرطة العسكرية مبكرًا. عرفت مساء أنها قد غادرت مع عازف الأكورديون. عرفت الخبر في «الجمعية الاستهلاكية». سرت شائعة أن أحدًا ما رآهما يصعدان القطار المتجه إلى الجنوب. لم أعرف قط مسقط رأس عازف الأكورديون، لهذا لم أتمكن من الذهاب للبحث عنها. لم أرد أن أعثر عليها كي «أغسل عاري»، أو «أستعيد شرفي» - فقد قلت هذه الحماقات لأصدقائي - وإنما لسؤالها ما السوء الذي فعلته، كي أحاول إصلاحه ونغدو مرة ثانية زوجًا وزوجة. حين انطفأ دخان المستوطنة بعدها بأيام، ووجب علينا جميعًا أن نغادر، تصرفت وجعلتهم يبقون عليّ حارسًا، كي أتمكن هكذا من انتظارها. مر على هذا عشرون عامًا وثلاثة أشهر واثنًا عشر يومًا ولا أزال في انتظارها. أعرف أن أوبرليندا حبيبتي ستعود ذات يوم، ولهذا لا يمكنني ترك هذا المكان، ولهذا أيضًا أرتدي أفضل بدلاتي، كل أربعاء، أي في يوم وصول القطار، وأنظف حذائي جيدًا، وأغرق نفسي بـ«ماء الكولونيا الإنجليزية»، وأذهب إلى المحطة في انتظارها. حدث أكثر من مرة أن نظرت إلى امرأة وابتسمت من نافذة إحدى العربات، فإذا بي أرى

فيها صورتها، وأصرخ وأركض كالمجنون كي أعانقها، لكن يتبين دائماً أنها ليست هي. أستمّر في انتظارها لأنني أعلم أنه ذات يوم سيأتي إليّ بها القطار نفسه الذي أخذها.

كان الليل قد أوشك على انتصافه، حين فرغ دون أورسيتينيو من حكاية حسرة حبه. ظل برهة غاطساً في مقعده ورأسه إلى الوراء وهو مغمض العينين. فكر تريستان في أنه سينهي قصته بالبكاء، لكنه لم يبد متأثراً إلى هذه الدرجة. دهس السيجارة بقدمه، وأخرج منديله المتكور، ونظف مخاطه بصوت عال وقال:

- أفترض أنك صدقتني، أليس كذلك؟
- بالطبع يا حضرة الدون! حسرة حبك قوية جداً، لكن الكمان لم يظهر في أي جزء فيها.
- اصبر. لم أنته بعد. ما قلته لك هو النسخة الرسمية التي قبلها الجميع ويستمرّون في تكرارها كلما سنحت الفرصة. الآن سأحكّي لك القصة الخفية لهذه القصة، تلك القصة التي تتخمر داخلي منذ عشرين عاماً ويتعفن معها قلبي ولم أحكها من قبل قط، لأن أحداً لم يُشعرني بالثقة مثل حضرتك يا عازف الكمان. الآن ستصبح الشخص الوحيد، الذي سيخفف عني حسرة حبي بمجرد إنصاتك إليّ.

أخرج العجوز ساعته الـ«لونجين»:

- سيكون هذا كطرّد روح شريرة. إنه منتصف الليل، أي الوقت المثالي لحكايتها.

تحرك تريستان بقلق في مقعده.

- بعد هذا الحفل، الذي رأيت فيه لأول مرة أوبرليندا وهي ترقص وتعانق رجلًا آخر، بدأت أشعر بالقلق. أمكنني تحمل ألا تنجب لي ابنًا وألا تتركني أعزف الكمان (وهو شأن لم أفعله إلا وهي غير موجودة)، لكن أن تُركب لي قرنين... تلك الملامسات أثناء الرقص، وهوس التهامس، والنظرات الساخرة الخاطفة التي رمقتني بها النساء الأخريات، جعلت بطني يستعر. جأرت من فرط الغيرة وأنا بمفردتي، لكن لم أقل لأوبرليندا شيئًا. لم أرد مضايقتها. أقنعت نفسي بأن كل هذه مجرد شكوك، وافتراسات، وعلامات، وأنني ليس في يدي شيء محدد لمواجهة بها، إلى أن جاءت أوبرليندا، ذات ليلة قبل توقف عمل المستوطنة، في وقت متأخر جدًا، بعد فصول القص والخياطة التي التحقت بها منذ خمسة أشهر. كانت الفصول من السابعة إلى التاسعة ليلاً لثلاثة أيام في الأسبوع، كما قالت لي. علمت لاحقًا أنها كانت من السابعة إلى الثامنة. المهم.. في تلك الليلة وصلت أوبرليندا في وقت متأخر جدًا عن هذا، وفيما أعزف على كمانتي، سمعتها تفتح الباب. لم أحظ بوقت لإخفائه. وصلت وهي تشع جمالًا، بصورة لم أرها بها منذ الأيام التي تعارفنا فيها إلى بعضنا. جاءت وهي تشع ضياء. لم تقل شيئًا عن الكمان. لم أتمكن أصلًا من إخبارها بمدى جمالها حينذاك، لأنها قبل أن أفتح فمي، توقفت أمام المرأة الطويلة، ثم استدارت وبينما تنظر إليّ وهي تتحسس ردفها المتينين، قالت، كأنه ليس شيئًا يذكر: «غدا سأرحل». وقفت أمامي، من دون أن تقطب جبينها، وهي شبه مبتسمة. «غدا سأرحل إلى الجنوب مع لورنثو». كانت

كركلة من بغل في الخصيتين. وعلى الرغم من وجهي المفزوع، فقد استدارت ناحية المرأة، وقالت من مكانها، من دون أن تنظر إليّ، إنه يفترض أنني أعلم بالفعل بما بينهما. عجزتُ عن الكلام. قالت إنها ستذهب معه ليس لأنني كنت زوجًا سيئًا، وإنما لأنها ولورنثو أحبا بعضهما من قبل أن يلتقيا، ربما في حياة أخرى. قالت إنها كما أعطتني أفضل سنوات شبابها، فالدور عليها الآن لتستمتع بالشباب الذي يعرضه عليها هذا الرجل. رجوتها وبكيت أمامها وتضرعت إليها وركعت. لكن لا فائدة. بعد أن هُزمت تماما، تنازلت تدريجيًا وفي النهاية استسلمت. مع ذلك، لأنني أحببتها أكثر من أي شيء في العالم، ولأنني لم أرد أن أؤذيها، قلت لها إنني سيروقني الحديث معه. سألت: «لأي سبب؟ ما الذي ستقوله له؟». «ستكون محادثة بين رجلين». «هل ستهينه؟ هل ستضربه؟». على الإطلاق! قلت لها إنني أحبها كثيرًا وسأطلب منه أن يعتني بها وألا يُسيء معاملتها، فهي امرأة جديرة بأن تُحب كما أحببتها. الآن إن كنت لا تتقين.. «بالطبع لا أثق!». هذا ما قالت. «أريد أن أحضر اللقاء وأسمع كل ما ستقوله له»، وكي تثبت لي مدى إصرارها، أخذت محفظتها وقالت إنها ستذهب لجلبه على الفور، فبعدئذٍ لن يُسعفهما الوقت لأنهما سيستقلان قطار الجنوب غدًا. قلت لها: «أخبريه أن يجلب الأكورديون، وأنا سأجهز الجعة». بعد برهة، سمعتهما في الشارع. كانا هما. جاءا وهما يضحكان. دخلا البيت وهما يتعانقان، وجاء هو بالأكورديون. لكيلا أطيل عليك، قتلتها هما الاثنان.

تجمد تريستان. لم يعرف ما يجب عليه قوله أو فعله أمام اعتراف العجوز.

ظل دون أورسيثينيو ينتحب برهة ورأسه إلى الوراء. بعدئذٍ أخرج منديله المتكور ومسح عينيه.

- يبدو أننا نحن معشر المولعين بباجانيني مُبتَلَوْنَ بقتل حبيباتنا، كما فعل المايسترو بنفسه حسبما قالوا. ألا تعتقد هذا يا حضرة عازف الكمان؟

- إن كان هذا ما تقوله يا حضرة الدون..

بعدئذٍ أشعل سيجارة «بارتيكولاريس» أخرى ونفث الدخان من دون أي مرح. اعتدل في جلسته واستأنف الحكى:

- وضعت الجثتين في شوالين من قماش الـ«جانجوتشو» ورفعتهما فوق عربة الجر. وضعت الأكورديون بين الاثنين وفي منتصف الليل ذهبت إلى المقبرة، وهو المكان الوحيد الذي فكرت في أن أحداً لن يبحث فيه عنهما. أخذت معي جاروفاً وحرية..

قاطعته تريستان:

- هل تقول لي حضرتك إنك أخذتهما في عربة الجر نفسها التي جلبتك فيها وأنت نصف ميت؟

أوماً دون أورسيثينيو برأسه.

- الآن صار رد فعل حضرتك مفهوماً.

قال العجوز:

- ألا عيب الحياة!

ثم مضى في حكايته:

- لحسن حظي، انعقد في تلك الليلة مهرجان الملاكمة الإقليمي في المستوطنة. نُصبت حلبة في ملعب كرة السلة، وكان أفضل برنامج شهدته «النعيم السامي»، وبالأخص المباراة الأخيرة التي تواجه فيها بطل أنتوفاجاستا باتريثيو روخاس، الملقب بـ«سفاح الحلبة»، مع ممثل المستوطنة، ومعبودها، إيميليو توريس العظيم، الملقب بـ«البامباوي». حضر المغسكركله إلى الملعب لمشاهدة النزالات، وتردد صراخ الناس وهم يشجعون الملاكمين المحليين في عز الليل البامبوي. بهذه الطريقة، اجتزت الشوارع من دون أن يراني أحد. عملت طوال الليل على حفر المقبرة. حفرتها في إحدى زوايا المدافن، إلى جوار السور الواقع في نهايتها. دفنتهما هناك معًا، ووضعت فوقهما الأكورديون. لما انتهيت من تسوية الأرض، وبدأ الصبح يشقشق، أخذت حجرًا مديبًا ونحت على الجدار الطوبي صليبيًا صغيرًا. كانت هذه حركتي الرحيمة الوحيدة. فعلت كل هذا وأنا أبكي.

قال تريستان الذي سمع كل شيء بثغر مفتوح:

- حدث هذا في الثامن والعشرين من يناير، أليس كذلك؟ وهذا سبب الوردة الورقية وزيارة المقبرة.

أوماً العجوز بنظرته.

- ومسألة دفنهما بالأكورديون، هل جاءت كتعبير عن الرحمة أم الضلال؟

- في الحقيقة، كانت دليلًا لإثبات الغياب، أن يرحل لورنثو بالملابس التي يرتديها فحسب قابل للتصديق، لكن أن يفعلها من دون الأكورديون، فهذا مثير للشبهات، أليس كذلك؟ لهذا دفنته معهما. أخفيت كل مجوهرات أوبرليندا وأحرقته بعضًا من أكثر فساتينها

أناقة للسبب نفسه. ألقيت في النار نفسها بطاقة هويتها. في اليوم التالي، عقب انطلاق القطار نحو الجنوب، جهزت خطة تمويه متكاملة، تحسباً لأن يحققوا في اختفائهما. يعرف الجميع أن زوج الضحية بالنسبة للشرطة هو المشتبه الأول. في الرابعة عصرًا، خرجت لمقابلة بعض صديقات أوبرليندا. اخترت المسحوبات من لسانهن. ذهبت لسؤالهن ما إذا كن قد رأينها، أو يعرفن شيئاً عنها. قلت لهن: لا أجدها في أي مكان. وجهت السؤال نفسه لصديقين قابلتهما في الشارع. ولأن «النعيم السامي» كانت على دراية بأنني أسير وفوق رأسي قرنين، بدأت على الفور تسري شائعة أن أوبرليندا ليناريس مختفية مع عازف الكمان. بعدئذٍ، ذهبت إلى الشرطة العسكرية. سألني رقيب الوردية وعلى وجهه إيماءة ساخرة: «هل أنت متأكد من أنك لا تعرف أين ذهبت زوجتك؟». «لو أنني أعرف لذهبت لجلبها». هذا ما قلته بنبرة أسف. في اليوم التالي، ذهبت إلى «الجمعية الاستهلاكية»، المركز الاجتماعي للقليل والقال البامباوي. فعلتها في الحادية عشرة صباحًا، وهو أكثر الأوقات ازدحامًا. وبينما أنا هناك، رسمت وجهًا مسكينًا، وقلت لشخصين أو ثلاثة إن أحدًا قال لي بالأمس إنه رأى أوبرليندا حبيبتي وهي تستقل قطار الجنوب في صحبة لورنثو، عازف الكمان، وهذا كي تنتشر الشائعة بشكل أسرع، وحين حل المساء، ظل الكل يكررون مسألة هروب العاشقين جنوبًا. بل ظهر شخصان أو ثلاثة وقالوا إنهم رأوا الثنائي وهما يستقلان القطار، بل أكد أحدهم أنه رأى الرجل ومعه الأكورديون. طلبت عطلة ثلاثة أيام من المنجم. تحججت: لتهدئة روحي! منحوني العطلة من دون مشكلة. وإن احتجت إلى مزيد من الأيام فقل لنا! تحدث الجميع معي ونظروا إليّ بتعاطف. في الأسبوع التالي، حين جاء القطار الواصل من

الجنوب، وضعت الكرة التي تزين الكعكة. تحممت وحلقت ذقني وأغرقت نفسي بـ«ماء الكولونيا الإنجليزي» وارتديت أفضل واحدة من بدلاتي وذهبت إلى المحطة. قلت لأول شخص سألني ما الذي أفعله: «أنتظر زوجتي! ذهبت في هذا القطار وستعود فيه». وهي العبارة التي بدأت أكررها مع بعض التغيرات البسيطة. «هذا القطار أخذها وهذا القطار سيعيدها إلي!». فعلت الشيء نفسه في الأسابيع التالية كي يحسب الجميع أن خيانة أوبرليندا ليناريس قد أصابت مخي بالجنون. ولم يبعدوا عن كبد الحقيقة كثيرًا. لقد أحببت هذه المرأة إلى درجة أنني حبست نفسي هنا كي أبقى إلى جوارها. كل ما كتبته في «كتب المستجدات» صحيح تمامًا. لقد أَلَمَتْنِي كثيرًا. شعرت بها تضحك وتراءت لي وأنا أنعطف عند النواصي وشممت عطرها، أو ما استخدمته كعطر، لأنني في مرات كثيرة شاهدها على حين غرة أمام المرأة وهي تدهن برقة ما وراء أذنها بإفرازاتها، وهذا كان سرها لإثارة الرجال. هكذا كانت هي، كأنها من عالم آخر.

سأل تريستان وهو لا يزال مشدوهاً من الاعتراف:

- والكمان يا دون أورسيثينيو؟

- آها! لقد اعترفت للتو بارتكاب جريمة فظيعة وحضرة الشاب الملعون يسأل عن الكمان.

أخرج ساعته الـ«لونجين» من معطفه القديم الأسود الطويل حتى ركبتيه:

- قاربت الثانية فجراً. دعنا نأوِ إلى الفراش، وغدا كوداع، ربما سأحكي لك عن الكمان.

في صباح الأربعاء، أي يوم رحيله، استيقظ تريستان مستاء. لقد حلم طوال الليل بنساء مقتولات وآلات كمان تشتعل.

سمع جيئة وذهاب العجوز في المطبخ. سار وهو يربط منشفة حول خصره. كان قد تحمم للتو. نهض تريستان وذهب مباشرة إلى المرحاض. لما عاد إلى الصالة، بدا دون أورسيثينيو مختلفًا. بخلاف حلاقة ذقنه وتصفيف شعره، غيّر ملابسه. ارتدى بدلة كحلية مقلمة وقميصًا أبيض وسترة بدلة داخلية، وبدلاً من حذائه القديم المترب، ارتدى حذاءً جلدًا لامعًا. صار الأمر مؤكدًا: إنه شبح المحطة.

تناولا الإفطار. تريستان بوجه مستاء، ودون أورسيثينيو بمظهر سعيد، مع أنه لم يستيقظ وهو يصفر. سأله تريستان عن الساعة. كانت توشك على أن تصبح التاسعة صباحًا.

- يمر القطار في منتصف الظهيرة، أليس كذلك؟

- يُفترض، لكن مع «إل لونجينو» لا يعرف المرء أبدًا. مرات قليلة تلك التي يصل فيها في موعده. أتذكر أنه تأخر ذات مرة أربع عشرة ساعة، وظللت طوال الأربع عشرة ساعة جالسًا على الرصيف. إن ذهبنا قبل منتصف الظهيرة بنصف ساعة، فسيكون جيدًا.

- ذهبنا؟ لا تقل لي إنك بعد ما حكيت لي ستذهب لتنتظر أوبرليندا ليناريس؟

نهض العجوز من على الطاولة، ورفع القدحين ودعاه إلى الجلوس في غرفة المعيشة.

- حان وقت حكاية الكمان.

بينما يغطسان في مقعدي الصالون، بدأ بقول إن كل ما حكاه سلفًا عن ولادته، وإن ما حدث مع أبويه البيولوجيين والعائلة التشيلية التي

ربته حقيقي، وبالمثل مسألة أنه عرف وهو في الخامسة عشرة أهمية لقبه.

- المهم أن أبي أصابه مرض خطير وهو في إيطاليا حين أتممت عامي السادس عشر. لما عرف أنه سيموت، أرسل إليّ الحجة الدامغة على أنني سليل لباجانيني.

ظل العجوز صامتاً برهة. بعدئذٍ، أخرج سيجارة «بارتيكولاريس»، ثم أشعلها ونسي أمر الحلقات وقال:

- ألا يريد حضرة الشاب عازف الكمان أن يعرف ما الذي أرسله إليّ أبي من إيطاليا؟

وقبل أن يتمكن تريستان من الرد، جاء دون أورسيثينيو بسؤال آخر:

- يُقال إن باجانيني على مدار حياته، امتلك المئات من آلات الكمان. هل تعرف كم كماناً كان معه حين مات؟ خمسة: كمانان «ستراديفاريوس» وكمانان «آماتي» وكمان «جوارنيري». الأخير هو كمانه المفضل. اعتاد أن يقول: «إنه حب حياتي»، وبسبب قوة صوته أطلق عليه اسمًا: «كمان المدفعي». هل تعرف أن هذا الكمان محفوظ في متحف جنوى؟

تمكن تريستان من الإجابة:

- أجل. أعرف.

- لكن هل تعرف ما حدث مع آلات الكمان الأربع المتبقية. سأحكي لك. ترك باجانيني واحدًا لابنه أوليسيس، والثلاثة المتبقية لأقرب أقاربه. ترك كل واحد منهم كماناً لأبنائه وهؤلاء لأبنائهم. وهكذا، مر كل كمان من جيل إلى جيل. لم يتمكن أي وريث من بيع كمانه، إذ يُقال إن باجانيني في اليوم الذي سبق وفاته ألقى لعنة تسقط

على أي قريب سيتجراً على بيع أي منها، بعد أن ركل الكاهن الذي جاء ليمنحه المسحة المقدسة. لا بد أنك قد خمنت بالفعل الإرث الذي تركه لي أبي، أليس كذلك؟

اتسعت عينا تريستان.

- إحدى آلات الكمان الخمسة؟

- بالضبط. كمان «ستراديقاريوس». إن لم يثبت هذا لك أنني سليل باجاني، فأنا لا أعرف ما الذي قد يثبت لك. بخلاف هذا، أنا آخر سليل لباجاني على وجه الأرض، لأنني نفسي ليس لدي ذرية. ظل تريستان يسمعه بحذر، خشية أن يكون العجوز دجالاً جامح الخيال.

عرض عليه دون أورسيثينيو:

- هل تود أن تراه؟

تبقى القليل على الحادية عشرة. تحتم الانطلاق إلى المحطة. كانت السماء غائمة في الخارج، وهو شيء نادر.

- بالطبع ستروقني رؤيته، لكن لا بد أن تعرف شيئاً يا حضرة الدون، أنا قادر تماماً على تمييز آلات الكمان هذه.

لم يقل دون أورسيثينيو شيئاً، لكنه ذهب إلى متحفه وعاد. قال تريستان:

- حقيقته نفسها بديعة.

قال العجوز بنبرة تعليمية:

- حين لا يُستخدم كمان لفترة طويلة، فلا بد من إرخاء أوتاره وحفظه في حقيبة كمان مبطنة جيدًا، ومحكمة إلى أقصى حد، مثل هذه. كمانى محفوظ منذ عشرين عامًا. منذ رحلت أوبرليندا حبيبتي، لم أستخدمه قط. سترى حضرتك بنفسه. إنه لم يُمس.

وضع الحقيبة على الطاولة المركزية.

- إنه أعجوبة. سترى بنفسك.

فتح الحقيبة وما رآه تريستان كان أكثر من أعجوبة. كان ملاكًا في صورة كمان.

بقي مفتونًا في مكانه.

سمع الدون يقول له:

- أمسكه إذن يا حضرة الشاب.

حين رفعه تريستان، شعر بأنه يمسك شيئًا حيًا في يديه. لو أنه أعمى، لتمكنت حاسة اللمس لديه من الشعور بشيء يُشبه الخفقان الخفيف لقلب عصفور.

- ما رأيك يا حضرة الشاب؟

همس تريستان:

- لا بد أن صوته من السماء. هل يمكنني شد الأوتار وعزف بعض النغمات عليه؟

- بالتأكيد. إنه لك.

نظر إليه تريستان وهو لا يصدق.

- لا تمازحني يا حضرة الدون! لي؟ كيف؟

ولأول مرة خاطبه بلفظ صديقي:

- انظر يا صديقي تريستان. أنا آخر سليل لباجاني في العالم. لا يتبقى في عمري الكثير وليس لدي وريث لأتركه له ولا أريد أن يقع في أيدي مُدمنة تفكر فقط في بيعه، لكن أعرف أن الكمان بالنسبة إليك مقدس، وأنتك لن تبيعه أبدًا.

نهض تريستان من فوق المقعد وبدأ يمشي هنا وهناك. أخذ يشد في شعره وينتحب. لم يعرف ما الذي يجب عليه فعله أو قوله، فكل شيء لا يُصدق بشكل كبير. سيعزف على كمان «ستراديقاريوس»، وليس أي كمان! إنه كمان عزف عليه باجاني بجلالة قدره. فكر: هذا مذهش!
- لقد جئت إلى هنا بالصدفة البحتة.

دحض دون أورسيثينيو فرضيته بسرعة، فهذه ليست صدفة، ولا يجب أيضًا إلقاء الذنب على القدر. لقد آمن بصدق أن الشيطان مارس على الأرجح لعبة متكاملة كي يأتي أفضل تلميذ ممكن لباجاني إلى هذه الصحاري ويحصل على الكمان.

- والآن توقف عن النواح ورتب أغراضك وخذ كمانك، فعلينا أن نذهب إلى المحطة.



خرج الرجلان من البيت في الحادية عشرة وعشر دقائق. حمل تريستان حقيبة ظهره وكمان «ستراديقاريوس»، فيما حمل الدون الكمان الآخر (الذي حين عرض تريستان أن يتركه له، قال له إن التصرف الأمثل هو أن يهديه إلى أي طفل في المدرسة).

سارا فترة طويلة في صمت. كانت سماء البامبا الزرقاء دائمًا غائمة، والجو ليس حارًا، وعلى الرغم من أن المسار كان ترابيًا، فقد انتبه تريستان إلى أن حذاء العجوز ظل يبدو كمرآة.

سار دون أورسيثينيو منغمساً في ذاته بشكل غريب.

فجأة، توقف ونظر إلى عيني تريستان وقال إنه لا بد من انتزاع حشرات الحب بشدة واحدة، مثل رقع الأشرطة اللاصقة.

- لماذا تقول لي هذا يا دون؟

وضع دون أورسيثينيو يده في الجيب الداخلي في معطفه النصفى المغلق، وأخرج منه ظرف خطاب غير مقفول وناولته إياه.

قال:

- سيكون من الأفضل أن تقرأه أثناء الرحلة.

شعر تريستان بالقلق. ما محتوى هذا الظرف؟ أراد أن يراه بالفعل. جلسا في المحطة إلى المقعد. إنهما الوحيدان على الرصيف. فجأة، ومن دون أي مناسبة، ومن دون أن يُبعد نظره عن النقطة التي سيظهر منها القطار، سأله العجوز كأنه ليس شائناً يُذكر، ما إذا كان يفكر في الاستمرار في مقابلة حفيدته.

ارتبك تريستان. لم يعرف ما يجب عليه قوله.

- لماذا يا حضرة الدون؟

توقف دون أورسيثينيو عن الانشغال بالقطار بضع ثوان وأدار رأسه ونظر إلى عينيه:

- هي ليست مثل مارجرىتا الأخرى: حفيدتي تروقه الموسيقى الكلاسيكية.

أشاح تريستان ببصره بانزعاج، ثم قال إن لديه سؤالين. هل بإمكانه أن يوجههما؟

قال العجوز الذي عاد لينظر إلى الناحية التي سيظهر منها القطار:

- تفضل يا أستاذ!

- ها هو ذا السؤال الأول: الآن، بما أننا نعرف بوجود كمان آخر في البيت. هل ستستمر في نفي أن حضرتك من عزفت في تلك الليلة؟
تنهد العجوز باستكانة:

- أكرر: أنا لا أجيد عزف الكمان. لهذا لم تسمح لي أوبرليندا بالعزف.
قالت إن عزفي كشجار قطط. لطالما سخرت مني بقول: أنت أسوأ
من راهبة دار الأيتام. لا بد أنني سليل باجانييني الوحيد الذي لم
يتعلم قط العزف على الكمان.

- إذن، من هو؟

- لو أنك قرأت كل كتب المستجدات لأدركت أن سماع موسيقى
الكمّان ليلاً من ضمن الظواهر الخارقة للطبيعة التي تحدث هنا،
مثل سماع بكاء رضيع، أو سعال مريض، أو ضحكة أوبرليندا
المبتهجة. الليلة الأولى التي أيقظتني فيها موسيقى الكمان واحدة
من الليالي التي نمت فيها على أريكة المتحف. بناء على ما قرأته
بخصوص طريقة عزف باجانييني للكمّان، تخيلت أنها روحه.
بعدئذٍ، وعلى مدار السنين، سمعتها مرتين أو ثلاثاً، حتى تلك
الليلة، التي جاء فيها دورك.

- ألا يمكن أن يكون الشيطان يا حضرة الدون؟

هتف العجوز:

- ها هو ذا القطار!

في البداية، نفث القطار عموداً من الدخان الأسود، ثم تردد فوراً
صوت صافرة القاطرة الجشاء لتعلن عن وصوله. كشف تعبير العجوز
وهو ينظر إلى القطار من بعيد تلك اللفتة التي ينتظر بها المرء

وصول شخص عزيز. استغل تريستان الفرصة للنظر إلى الظرف. سرت رعشة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بسبب ما رآه. جف خلقه واضطر إلى الجلوس. إنها قصاصة من صفحة قسم أخبار المجتمع من إحدى الصحف العاصمية، وتعلن عن زواج الأنسة مارجريتا إتشوارين بالديبيسو بالخبير الاقتصادي فيديريكو ماركيث دي لا بلاتا.

قال الدون وهو ينظر ناحية القطار إنه لا يزال ينتظر السؤال الثاني. بدا تريستان مشدوّهًا. حينما أبطأ القطار حركته وهو يدخل المحطة، فيما يخور كالثور وهو ينفث دخانه، ويدق جرسه البرونزي، تمكن تريستان بصعوبة من صياغة السؤال:

- قل لي يا حضرة الدون أورسيثينيو، لو أن مسألة القدوم إلى المحطة لانتظار زوجتك كانت مجرد استراتيجية لتجنب الشبهات بعد ارتكاب الجريمة، فلماذا لا تزال تفعلها بعد مرور عشرين عامًا؟

توقفت القاطرة، ومن دون أن يتوقف عن تفقد نوافذ العربات، قال العجوز بصوته الذي بدا كأنه ينبع من مريئه أكثر من أي وقت مضى، إنه ينتظر بالفعل زوجته منذ عشرين عامًا وسيظل ينتظرها حتى يوم مماته، وإن روحه بعد مماته ستظل تنتظرها، وإنه «إن توقف قطار» إل لونجينو“ ذات مرة عن السير ورفعوا قضبانه وفككوا محطاته، فستظل روحي جالسة على أي حجر في انتظارها، لأنه ذات يوم، ومن دون مناص، لا بد أن تمر روح أوبرليندا ليناريس على أي من هذه القطارات التي تذهب إلى المطهر».

خاتمة

في أول يوم أحد من عطلته من مدرسة «إكوادور كويا سور»، التي تعاقدت معه لتدريس الموسيقى، قرر تريستان أن يفعل ما خططه سلفًا: زيارة دون أورسيتينيو. لقد مر أحد عشر شهرًا وبضعة أيام منذ ودعا بعضهما في محطة «النعيم السامي».

هكذا، استقل من «إل جالو أثول» الحافلة المتوجهة إلى «بدرودي بالديبيا»، لأنه أراد أن يقابل مارجريتا أولاً ويسألها عن كيفية الذهاب إلى «النعيم السامي»، لكن هذا ليس السبب الوحيد لرغبته في رؤيتها. الأمر وما فيه أن مارجريتا هذه أزاحت مارجريتا الأخرى من عقله خلال فترة منفاه. تقول نظرية علمية زائفة قرأها تريستان في إحدى المجلات ذات الأوراق اللامعة، إن ندبة خيبة الأمل الغرامية كي تلتئم تحتاج إلى نصف الوقت الذي استغرقته العلاقة. مع ذلك، فخلال أشهر إقامته الأولى في «كويا سور»، شعر بأن نزيف طعنة «الخبیثة» أخذ يتراجع يوميًا، إلى أن بدأ يرى وجود إمكانية واضحة للوقوع مجددًا في الغرام. أصاب دون أورسيتينيو: كان خبر زواجها كشدة رقعة من شريط لاصق.

كتب عنوان مارجريتا على يده. لم يستغرق وقتًا طويلًا في العثور عليها. وجدها جالسة على مقعد عند باب بيتها. بمجرد أن رآته يأتي، قفزت لتقف وتستقبله.

قالت وهي تعانقه:

- لك وحشة!

وبنشاطها المرح المعتاد سألته وهي ترمش ما إذا كان يأتي لرؤيتها أم لبحث عن وظيفة شاغرة لمدرس موسيقى.

حكى لها عن منصبه في مدرسة «كويا سور».

قالت وهي تتواثب كطفلة:

- إذا جئت لرؤيتي!

قال تريستان:

- أجل، وأيضًا لمعرفة اليوم الذي تخرج فيه شاحنة المؤونة لجذك. أود زيارته.

انطفأت عينا مارجريتا الذهبيتان على الفور.

- ألا تعرف؟

- ماذا تقصدين؟

- لقد مات جدي.

شعر تريستان بشيء يشبه لكمة في كبده. عجز عن التصديق.

قالت الفتاة:

- حدث هذا منذ ثمانية أيام. عثر عليه سائق شاحنة الصهريج وهو يتدلى من العارضة التي علق عليها مصباحه الكريبيدي. كان بكامل أناقته. يوم وصول القطار.

- هل عُرِفَت الأسباب؟

- بناءً على خطاب وداع تركه، تعتقد الشرطة أنها نوبة جنون. لم تسمح لي أُمِّي برؤية الخطاب. على ما يبدو، أدلى فيه جدي باعتراف رهيب. يقول إن زوجته لم تهجره، وإنه قتلها وعشيقها قبل أن تفعلها، وإنه دفنهما معًا في مقبرة حفرها، في إحدى زوايا المدافن. يقول في الخطاب: «ابحثوا عن صليب محفور على السور». عثرت الشرطة على صليب، لكنهم حفروا ولم يجدوا شيئًا. هل تفهم؟

لم يعرف ما يجب عليه قوله. عانقها.

جففت مارجريتا دموعها فجأة، وظلت تنظر إليه كأنها قد رأتَه للتو. ابتسمت وقالت:

- انظر للمصادفات! بالأمس، وأنا أرتب بعض أشياء جدي، عثرت على شيء تركه لك.

دخلت البيت وخرجت ومعها شيء ملفوف بورق الجرائد ومربوط بحبل خشن ومعه ملاحظة تقول «سلموه لتريستان الحزنان». شكرها مندهشًا وبدأ يودعها.

قالت:

- انتظر. سأوصلك.

سترحل الحافلة عن الساحة في ظرف ساعة. جلسا إلى مقعد تحت ظل شجرة فلفل. بينما يتحدثان وينظران إلى عيني بعضهما، صارت الساعة دقيقة في نظرهما. في النهاية، ودعا بعضهما بقبلة واتفاق: سيأتي لمقابلتها في «بدرو دي بالديبيا» كلما تمكن، وستأتي هي لمقابلته في «كويا سور»، كلما سنحت لها الفرصة.

قالا لبعضهما:

- وسنرى ما سيحدث بعدئذ!

بعد أن ركب الحافلة، لم ينتظر تريستان سان مارتين أن يصل إلى «كويا سور» كي يرى محتوى الطرد الذي تركه له الدون. فك عُقده ومزق الورق. إنه «كتاب المستجدات الخامس عشر»! شعر بالارتباك. فتحه من منتصفه. تصفحه قليلاً. لم تكن تدوينات متفرقة مثل بقية الكتب. احتوى هذا على نص واحد شَغَلَ ثمانية وسبعين صفحة من أصل مائة في الكتاب. إنها ثمانية وسبعون صفحة كُتِبَ عليها من الناحيتين، ويخط «ساق النورس» العنكبوتي. لكنه كان قد صار خبيراً في فكه، ولهذا حين ذهب إلى الصفحة الأولى بدأ يقرأ:

ها هو ذا تريستان الحزان، أستاذ الموسيقى وعبقري الكمان، حتى وإن لم يقر بذلك. ها هو ذا يمضي بخطواته الواسعة في قلب الصحراء نحو عزلته، وهو يتبع مساراً متوهجاً من التراب.

تخطى الوقت منتصف الظهيرة، وما من نسمة واحدة تُرفرف وسط الهواء.

وفوق رأسه الشمس، كحجر مُشتعل...

النهاية

رجل يصل إلى «تريكو لو»

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:
أشرف غالب

جميع الحقوق محفوظة ©



مكتبة ضاد الإلكترونية
t.me twinkling4



امسح الكود وانضم لأسرة ضاد
<https://t.me/twinkling4>

عزري القارئ، إن كنت تقرأ هذه الرواية، أو تحملها من موقع غير (مكتبة ضاد الإلكترونية) على تطبيق تيليجرام، فتأكد من أنك لست في المكان المناسب، لذا يجب عليك الاشتراك في قناتنا الرسمية حتى يتسنا لك تحميل كل جديد بكل سهولة. (@twinkling4).

تنشر الشمس أشعتها في السماء كأنه يوم أحد، مع أنه يوم إثنين. يجلس أنخل سالومون، أمام مقود سيارة «فورد إيه»، موديل عام 1927، ويتقدم عبر صحراء أتاكاما نحو مستوطنة «ألجورتا».

يرافقه «خوان ابن لا أحد» وإيبا لا سكالاً.

يشعرون بالقلق. بدأ محرك السيارة يُدمدم منذ فترة. يتبعون أثرًا لمسار سابق كي يختصروا الطريق ولكيلا يعلقوا وسط هذا الجحيم. إنه أحد هذه المسارات الباقية من الأيام التي عملت فيها عربات تجرها البغال في مستوطنات الملح الصخري؛ المسارات التي ظلت تختفي بفعل مرور الزمن والرياح.

إنها الثانية ظهرًا.

بعد مرور ساعة، تاهوا في البامبا.

يُوقفون السيارة من دون أن يُطفئوا المحرك. ينزل الرجلان. يلقي أنخل سالومون نظرة سريعة على نفسه في زجاج نافذة مقعده. يلمع شعره الأسود الإنكاوي⁽¹⁾ الطويل الواصل حتى خصره والمربوط كذيل حصان، تحت أشعة الشمس، ببريق معدني.

(1) نسبة إلى قبائل الإنكا. (المترجم).

بينما يُجفف عرقه الذي يسيل فوق جبينه، يأمر «خوان ابن لا أحد»، لأنه الأطول، بأن يصعد على سقف السيارة، لعله يرى ما يُمكن استخدامه كنقطة مرجعية. لم يجد شيئاً.

لا وجود لأي تل، أو أي وهدة، أو أي مَعلم طبيعي. ثمة سهل ولا شيء سواه. لا يبصرون أيضاً أي منشآت شيدها البشر، مثل أعمدة التلغراف أو قضبان السكك الحديدية. الدليل الوحيد على الحياة في هذه الأراضي هو خمسة نسور تُحلق في دوائر وسط زرقة السماء.

تقول إيبا لا سكالا:

- تحلق طيور الشؤم هذه فوقنا منذ فترة.

إنها الرابعة عصرًا، ولا يزال ركاب سيارة «فورد إيه»، موديل 1927، تائهين. لا شيء حولهم إلا انعكاس أزرق لسراب ماء يخلقه ارتداد الضوء من فوق الرمال المشتعلة. قالت إيبا لا سكالا قبل دقائق من تيههم إنها تخيلت أن الموت عطشًا سيبدو بمثل هذه الزرقة.

يقول أنخل سالومون:

- لا تقلقا.. نحن صغار جدًا على الموت.

أكمل عامه الأربعين مؤخرًا. بالنسبة إلى صبيه، «خوان ابن لا أحد»، فيتباكى بأن عمره ثلاثة وثلاثين عامًا تقريبًا. بالنسبة إلى إيبا لا سكالا، المطربة الأوبرالية، التي انضمت إلى جولتهما منذ خمسة أسابيع فحسب، فتبدو أهدأهم وترفض رفضًا تامًا الكشف عن عمرها. يقدر أنخل سالومون أن عمرها يتراوح بين خمسة وعشرين عامًا وسبعة وعشرين عامًا.

بدأ الدخان يتصاعد من سيارة «فورد إيه»، موديل 1927. ليس لديهم ماء، لا لهم ولا لمبراد السيارة، التي قد تتوقف في أي لحظة عن التحرك. سيغدو هذا قاتلاً. تستمر المطربة الأوبرالية في مراقبة النسور، وهي تنظر إلى السماء عبر النافذة.

تفكر بصوت عال:

- ما دامت هذه الطيور لم تلمسنا بعد، فيمكننا أن نتحلى بالهدوء. تهز المطبات والارتفاعات والانخفاضات الموجودة في المسار السيارة إلى درجة توشك على تفكيكها. يرجو أنخل سالومون الذي يتشبث بالمقود ألا يتوقف المحرك، ويقود وهو يلعن الحر الخرائي لهذه الأراضي الجرداء الشيطانية، ومعهم هذا المسار الداعر الذي خطر له أن يسلكه، بل وهو يلعن الأم التي أنجبته.

تلوم إيبا لا سكالاً زعيمها على بذاءة مفرداته، وهي نائمة بجسد مفرد في المقعد الخلفي كأنه لا وجود لأي مشكلة. من ناحيته، يجلس «خوان ابن لا أحد»، العملاق الذي تبلغ قامته مترين وسبعة سنتيمترات، ويعاني تأخرًا عقلياً ما، في المقعد المجاور للسائق وهو يراقب الأفق من دون أن يتوقف عن الصلاة.

يمضي أنخل سالومون في سبابه:

- أقدر شيء أننا لا نعرف أين نحن ولا إلى أي مصيبة نذهب! هذا إن كنا نذهب إلى أي مكان أصلاً!

بينما يجتازون أرضاً من سهول البامبا الممهدة، يشير العملاق ناحية شيء ما، إذ يظهر من وراء تموجات الأراضي طرف مدخنة محطة تصنيع. يلمع كفنار في وسط إعصار.

يسأل متعجباً:

- ما هذا؟

يُجيبه دجال الأعاجيب:

- إنها محطة تصنيع!

- لقد نجونا! اللعنة! لقد نجونا!

وبينما يضحكان بانتشاء، يبدآن في استحثاث السيارة كأنها مُهر:

- هيا يا قطعة الخردة الصغيرة! هيا!

ينبثق صوت المطربة الأوبرالية، من المقعد الخلفي، لمضايقة هذا الثنائي الذكوري الذي يوشك على الموت من الخوف، ويقول: «لا بد من التوقف عن الثرثرة يا حضرة الرجلين المحترمين فربما هو سراب. لاحظا أنه لا وجود لأي دخان يتصاعد من المحطة». لكن أنخل سالومون وصبيه لا يسمعانها، لأنهما في تلك اللحظة صارا كغريقين أبصرا ساحلاً.

بعد مسافة قليلة، عقب أن صعدوا تلة صغيرة، يرونها هناك، على بعد مسافة تقل عن خمسمائة متر. إنها مستوطنة ملح صخري، بتلة رواسبها، وكل مشتملاتها!

يستمران في استحثاث السيارة إلى أن يصلا إلى المدخل:

- هيا يا قطعة الخردة الصغيرة!

وهناك، على قوس من النحاس الأصفر يقرآن عبارة:

«مرحباً بكم في تريكولور».

يقول أنخل سالومون، الأضلع بينهم في معارف البامبا، إنه لم يسمع قط عن هذه المستوطنة. يوقف السيارة (من دون أن يُطفئ المحرك) ويقول لصبيه أن يترجل هنا.

يترجل «خوان ابن لا أحد».

يُخرج أنخل سالومون رأسه من النافذة:

- توخ الحذر! تحقق من كل شيء قدر استطاعتك. سنبدأ في العمل بمجرد أن نصل إلى الساحة.

تدخل سيارة «فورد إيه»، موديل 1927، القرية بمشقة، وبآخر أنفاسها تتمكن من الوصول إلى الساحة. هناك، تزفر آخر تنهيدة لها. يبدو أن محركها قد انصهر.

مع ذلك، تقول إيبا لا سكالاً:

- لقد دام كثيراً.

قبل يومين من ظهوره في أي قرية، يُرسل أنخل سالومون صبيه لتوزيع الإعلانات الورقية. بطوله البالغ مترين وسبعة سنتيمترات، ووجهه البريء، وشعره الأسود الخشن المموج كطفل شقي، يُثير «خوان ابن لا أحد» في الناس شعوراً يتمازج فيه الخوف والثقة، فيقبلون تلقي الإعلانات منه:

لقد وصل إلى هنا، الأمير الإنكاوي، أنخل سالومون. قارئ الكف، المستبصر، قارئ الأفكار، وقارئ التاروت، ودكتور الأعشاب الطبية. أستاذ فن طرد الشرور الروحانية، والآلام الجسدية، وأوجاع الروح. يقرأ الكف وأوراق التاروت على انفراد، كوفئ الأمير وكُرم بـ«الوسام الذهبي لأكاديمية الصليبان الوردية» في البرازيل، بسبب مسيرته الطويلة.

كذلك، يتحتم على «خوان ابن لا أحد» أن يبحث عن أنسب مكان كي يتمكن زعيمه من تقديم «استعراضه»، وهو المُسمى الذي يطلقه على الأربعين دقيقة التي يستغرقها في ممارسة دجله. وقد راقه أن يُسميه «الاستعراض الفلكي الثقافي» منذ انضمام المطربة الأوبرالية إليهما. أيضًا، يجب على «خوان ابن لا أحد» التحقق قدر استطاعته من وضعية وأجواء المكان الذي سيصلون إليه؛ أي عدد السكان التقريبي، ووجود الكنيسة من عدمه، وهل المراقبون أشخاص مزعجون أم لا، وماهية تجهيزات الشرطة العسكرية. وبناء على هذه المعلومات، يبدأ رئيسه دخوله المنتصر إلى القرية وهو يعرف جيدًا طبيعة الأرض التي تطوُّها قدمه.

لكنه في تلك المرة، لم يحظ بأي معلومات عن المكان ولم يستبق أحد وصوله، بل إنه لم يعرف قبل وقت قليل بوجود مستوطنة اسمها «تريكلور» أصلًا، وهكذا تحتم عليه أن يعمل من دون أن يعرف أين ستطأ قدمه وماهية ما قد يجده.

قبل أن يترجل من السيارة، وفي ظل شعوره بالقلق، يقول لإيبا لا سكالاً إنها عليها اليوم أن تقدم أفضل ما لديها من رصيد مسرحي وأن تغني بكامل روحها، فتقطب جبينها:

- هذا ما أفعله دائمًا. أنا محترفة!

- حسنًا، والآن عليك أن تتفوقني على نفسك. كرمي اسمك وفكري كأنك تغنين مرة ثانية على مسرح «لا سكالاً» في ميلانو.

بمجرد أن نزل أنخل سالومون من السيارة وخطا بقدمه فوق الأرض، داهمه إحساس غريب. الأمر عجيب. لا يبدو يوم إثنين على الإطلاق! يستشعر بغريزته -الشبيهة بحاسة الشم لدى كلب صيد- أجواءً في

الهواء تبدو احتفالية، أو أنها تتعلق بشيء أقوى ولا يجد له تعريفًا. يقول للمطربة الأوبرالية أن تنظر إلى الساحة:

- متى رأيت ساحة في يوم إثنين وهي فائرة بالناس هكذا؟ وإن ركزت جيدًا، فكلهم متأنقون كأنه يوم أحد. أيضًا، تعكس تعبيراتهم ولمعة أعينهم المقاتلة تلك النشوة التي قد تسيطر على الناس مثلًا عند إعلان الحرب. انظري إليهم جيدًا: يبدوون كأنهم قد يطلون وجوههم ويشعلون محرقة ويبدؤون في العواء حولها في أي لحظة.

تبتسم إيبا لا سكالاً:

- ألا ترى أنك تتعامل بجدية شديدة مع دورك كمستبصر يا زعيم؟

لم يعرف الزوار القادمون في سيارة «فورد إيه»، موديل 1927 -أو لم يقدروا على معرفة- أن سبب هذا الحماس وهذا الوهج المحارب الذي رأوه فينا هو أننا في فجر ذلك اليوم تجرباًنا على إعلان الإضراب. إضراب عام مفتوح لم يتوجه فيه أي شخص إلى العمل.

مر أسبوع على وجود قياداتنا النقابية في أنتوفاجاستا للتفاوض بخصوص مطالبنا، وعلى ما يبدو لم يكونوا قد حققوا شيئاً. سرت شائعات بأنهم حققوا مكاسب في الاجتماعات الأولى، أو بالأصح أن الشركة قدمت لهم تنازلات في بعض النقاط الضئيلة من مطالبنا. بعدئذ تبين أن هذا السخاء مجرد استراتيجية، لأنهم في تلك الجمعة، لما طرحوا على الطاولة جزئية زيادة الراتب الأساسي، ضحك المحامون العاصميون الثلاث الذين تعاقدت معهم الشركة في وجه قيادتنا، وقالوا بنبرة رسمية إن زيادة العشرة في المائة التي نطالب بها محض خيال،

وإن علينا أن نشعر بالذنب، لأنه في ظل الوضعية الاقتصادية للبلاد، تمثلت الفكرة أصلًا في خفض الرواتب، لكن كبادرة حسن نية من الشركة، فهم يطرحون عليهم زيادة بنسبة واحدة بالمائة من الراتب الأساسي.

وعدُّوا هكذا الاجتماع منتهيًا.

علاوة على ذلك، ففي تصرف أبوي غريب، تضمن الربت على الظهر وأمر كهذه، رافق المحامون العاصميون قادتنا، الذين رفضوا هذه الزيادة البائسة، حتى باب الخروج وهم يُدوخنهم بفصاحتهم القانونية. قَبِل قادتنا، عند باب المبنى، بعد أن استحثتهم خيلاء وكلمات المحامين الصعبة، دراسة مقترحهم على الأقل. حينذاك، منحهم المحامون مهلة حتى الإثنين لإقناع العمال، وكأنها رصاصة رحمة. إن لم يقنعوهم، فستراجع الشركة عن النقاط التي وافقت عليها في العريضة، بما فيها نسبة الزيادة البالغة واحدًا في المائة.

حين علمنا بأمر مقترح الشركة السافل، وبأن قادتنا الضعفاء يفكرون في دراسته، فارت عزة أنفسنا نحن معشر العمال وأرسلنا من يقول لهم: اللعنة! لا وجود لشيء كي يُدرس أصلًا! فليعودوا فورًا إلى المستوطنة! يوم الإثنين ستتوقف محطة التصنيع عن العمل ونقطة! إنه إضراب عام!

يُغير أنخل سالومون وإيبا لا سكالاً ملابسهما في السيارة. هو في الأمام وهي في المقعد الخلفي. ليس لديها مانع من تبديل ملابسها أمامه، أما هو فقد خمن منذ اليوم الأول أن العلاقة الوحيدة التي ستجمعهما ستكون إما مهنية، وإما مجرد صداقة على أقصى تقدير.

تخلع المطربة الأوبرالية بنطلونها الجينز وقميصها المضلع، فيما يخلع سالومون المبدلة البيج التي يستخدمها للقيادة. ترتدي تنورة بيضاء خفيفة طويلة تصل إلى كاحليها واستخدمتها سلفاً -وفقاً لكلامها- في بعض دور الأوبرا. يرتدي هو بنطلوناً وقميصاً أسود وسترة قصيرة، سوداء هي الأخرى، مطرّراً عليها صقر ذهبي يفرد جناحيه فوق ظهره بالكامل. بعدئذٍ، تُغير هي حذاءها الرجالي وترتدي صندلاً متقشفاً. يخلع هو حذاءه الرياضي القماشي ويرتدي حذاء بائساً برقبة من جلد البغال. تُطوق رأسها بإكليل الزهور -وهذا شيء لا تفعله دائماً- فيما يربط هو حزامه المزود بمسامير نحاسية وإبريم ضخمة على شكل قفل. هكذا، أصبحا مستعدين.

ما يُبرز حُسن إيبا لا سكالاً هو شعرها القصير بحلقاته الملوبة الذهبية التي تتساقط كالطر على كتفيها، أما ما يرفع من هيئة أنخل سالومون كأمر إنكاوي فهو شعره الطويل الذي يعتني به جيداً ويربطه كذيل حصان، بلونه الأسود، الذي يكاد يكون أزرق.

يقول:

- هو علامتي المميزة، فمن دون ذيل حصان، سأفقد حضوري، سأفقد سلطتي، سأفقد قوتي كشمشون.

لا يبغض شيئاً بقدر أن يلمس أحد ما شعره. لا يطيق أمراً كهذا، حتى وإن كان بغرض مداعبته.

في السادسة والنصف مساءً، يتجول أنخل سالومون عبر الساحة بحثاً عن مكان مناسب للعمل. يجده إلى جوار تمثال نصفي لأوهيجينز⁽¹⁾. بخلاف هذا، يقع أمام «الجمعية الاستهلاكية»، حيث يوجد أكبر قدر من الناس.

(1) برناردو أوهيجينز: أحد أهم قادة عملية استقلال تشيلي. (المترجم).

تساعد إيبا لا سكالاً زعيمها (وهكذا يرونها أن تدعوه: زعيمى) على إنزال حقيبة صغيرة من الخشب المصقول من السيارة وطاولة قابلة للطي والفرد وكيس جلدي بنى، مع أن هذا فى الأصل عمل «خوان ابن لا أحد». يضعون كل شيء على الأرضية، بين التمثال النصفى للقامة العظيمة، وسياج لشيء يحاول أن يبدو كحديقة.

يفتح الحقيبة ويخرج منها خرقة مخملية بنفسجية مجمدة تمامًا ويفرشها على الأرض. بعدئذٍ، يخرج عصا معدنية وبعض العينات من بضائعه التى يضعها على الخرقة. من ناحيتها، تفرد إيبا لا سكالاً الطاولة الصغيرة وتضع عليها كوب ماء. يظل الكيس البنى مغلقًا. حين يغدو المسرح جاهزًا، تختفى إيبا لا سكالاً.

يقف أمام بعض الفضوليين الذين ينظرون إليه بشك. وفى الوضعية التى يتخذها الهنود للابتهاال إلى إله المطر، يرفع ذراعيه إلى السماء كأنه يطلب مباركة الرب، وحينئذٍ، يبدأ:

- سيداتى وسادتى، من يحدثكم فى مساء الإثنين هذا (لأن اليوم هو الإثنين، أليس كذلك؟) هو أنخل سالومون، الأمير الإنكاوى. غير أنني قبل أن أتحدث عن الهبات والعطايا التى جلبتها لكل واحد من حضراتكم، سأقدم لكم فقرة فنية فلكية ثقافية من الطراز الأول. مطربة أوبرالية، شابة تردد صوتها الملائكى فى أفضل المسارح، لا فى بلادنا فحسب، بل فى الخارج. فنانة تشيلية تشرفت بالغناء على مسرح «لا سكالاً» فى ميلانو وحققت نجاحًا مجيدًا. أعرف أن أحدًا من حضراتكم يتساءل: وإذا كانت ناجحة هكذا، فما الذى تفعله بالغناء فى الساحات؟ دعونى أقل لكم يا سيداتى ويا سادتى إنكم محظوظون، لأن فنانتنا الشابة ستصور فيلمًا عن مطربة من العصور الوسطى تجوب فيه وهى على متن عربة تجرها الأحصنة

قرى في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا ودول أوروبية أخرى لتغني في ساحاتها. أرادت فنانتنا قبل تصوير الفيلم الذي سَيُنْفذ بتقنيتي الـ«تكنيكولور» والـ«سينماسكوب» أن تعيش تجربة التجول عبر البلاد، لكن ليس على متن عربة تجرها الأحصنة، وإنما في سيارة «فورد إيه»، موديل 1927، لتغني في الساحات والأسواق، كما كان يحدث في تلك الحقبة. وبعد أن بددنا كل الشكوك، دعونا لا ننتظر أكثر من هذا، وهيا بنا نستمتع بصوت غنائها الملائكي.

السيدات والسادة، أقدم لكم: إيبا لا سكالا!

تبدأ المطربة الأوبرالية، التي كانت قد تماهت مع الجمهور، ظهورها وسط الدائرة التي تشكلت بقفزة راقصة أنيقة. تغني ثلاث أغنيات ويتشكل حولها جمع مذهل من الأشخاص. في ظل اندهاش أنخل سالومون من كل هؤلاء الناس الذين تراجموا أمامهم، يجد نفسه مضطراً إلى دفعهم إلى الوراء، وتحديد الأرضية بعصاه المعدنية:

- رجاء، ابقوا خارج الدائرة من فضلكم.

في منتصف ظهيرة أربعاء غائم، تعثر أنخل سالومون في إيبا لا سكالا. حدث هذا في ساحة «أرماس» في مدينة «أوبايي»، عقب أن أنهى خطبته المسهبة المكونة من أربعين دقيقة. وكما يحدث في كل الأنحاء، اقترب بعض الناس منه بعد خطبته طلباً لجلسة خاصة لقراءة الأوراق أو الكف، أو لسؤاله عما عليهم فعله لصرف العفاريت التي سكنت بيوتهم، أو ببساطة لشكره، لم يجد هو داعياً لكل هذا الشكر، خصوصاً أن ما يفعله هو الاحتيال عليهم.

لم يكن مزاج أنخل سالومون جيدًا حينذاك، لأن ما باعه سيكفيه لتناول الغداء في السوق فحسب. وبينما هو هناك، ظهرت من بين القوم شابة ترتدي بنطلون جينز وقميصًا رجاليًا بوجهها الطفولي الذي يؤطره شعرها الأشقر الملآن بحلقات شعر ملولبة. سألته بشخصيتها المهيمنة، كأنها تعرفه طوال حياته، ما إذا كان من دجالي الأعاجيب المستقرين أم أولئك الرحالة الذين يمضون من مكان إلى آخر.

قال:

- من الرحالة. لماذا؟

أمسكته الفتاة من ذراعه وانتحت به جانبًا.

- وهل يمكن معرفة من أين جئت وإلى أين ستذهب؟

- تجولت عبر الجنوب وسأذهب الآن إلى الشمال. لماذا كل هذه

الأسئلة وكأنك شرطية؟

لم ترد أيضًا على سؤاله:

- وإلى أين تفكر أن تصل؟

- إلى حيث تقودني الريح. الآن، على سبيل المثال، سأتوجه إلى

مستوطنات الملح الصخري.

في تلك الأثناء ظهر «خوان ابن لا أحد» وهو يرتدي ملابس مختلفة عن تلك التي ظهر بها حين كان أول المشتريين. ارتدى قميصًا يبدو كمنامة وقبعة بيسبول، على أساس أن هذا سيُصعب التعرف عليه، لكن سألت الشابة دجال الأعاجيب بمجرد أن رآته:

- أليس هذا هو الرجل ضخم الجثة الذي كان أول من اشترى من

طلاسمك؟

وعلى الفور، فتحت عينيها الشرقيتين، وقالت وهي تخفض صوتها:

- بالطبع! إنه سَنِيْدُكَ! لم أر شيئًا مثل هذا من قبل.

شرع «خوان ابن لا أحد»، الذي فعل كل شيء بوداعة حيوان شِيال للأحمال، يُرتب أغراض العمل ليرفعها على كتفه ويذهب بها إلى نزلهما. قال أنخل سالومون:

- إنه صبيبي وأفضل سَنِيْد في العالم، لكن الأمر وما فيه أنه لا يجيد التخفي فحسب.

بعدئذٍ، طالبتها:

- لكن قل لي هيا: ما الذي تريدينه؟

- لا شيء. فقط أريد أن أمضي مع حضرتيكما في جولتكما.

حينذاك، اتسعت عيناه هو الآخر:

- هل أنت دجالة أعاجيب أيضًا؟

- أنا مطربة أوبرالية.

- فعلاً؟ وما الذي يُفترض أن يفعله دجال للأعاجيب بمطربة أوبرالية؟

قالت الشقراء ذات الشعر الملولب إنه إذا كان حضرة الرجل المحترم لا يعرف، فإن المشعوذين المرتحلين مثله -من يبيعون الهواء مثله- كانوا يجوبون القرى الأوروبية على متن عربات تجرها الأحصنة، وحظي كل واحد منهم بفرد يؤدي فقرة فنية كقطع لجذب الجمهور، كي يتمكن هكذا من بيع دوائه الذي يُطيل الشعر، وإكسيره الذي يُعيد القوة الجنسية، وعبوات ماء «نبع الشباب الأبدي»، وإلى آخره. رافق بعضهم بهلوانات، وأجر بعضهم ممثلين، وقدم أغلبهم مطربات أوبرا، بل إن خالعي الضروس أنفسهم اعتادوا أن يأخذوا معهم مهرجًا لتسلية المرضى وهم يخلعون أسنانهم بالكماشات.

- لو أنك مطربة أوبرا، فلماذا لا تتقدمين للعمل في «المسرح البلدي»؟

قالت الشابة من دون أي انزعاج:

- قدمت حفلين في «المسرح البلدي» بالفعل. غنيت أيضًا في مسرح «كولون» في الأرجنتين وفي عدة مسارح مهمة في دول أخرى. اسمي إيبا لا سكالا. هل تعرف لماذا؟

- لا تقولي لي لأنك غنيت في «لا سكالا» في ميلانو! أومات برأسها.

- بسيرة مثل هذه لا أعرف لماذا تريدين أن تغني في الساحات كفقرة افتتاحية لدجال للأعاجيب.

- اسمح لي أن أقول لك إن هذا شأن يخصني. أعرض على حضرتك أن أغني لصالحك من دون أن أقبض منك شيئًا.

قال أنخل سالومون إنه لا بد من وجود سبب وجيه لرغبتها في فعل هذا، وإنها إن كانت تأمل في أن تنضم إلى الجولة، فمن حقه معرفة السبب، وإلا فلن يبقى له إلا التفكير في أنه أمام مجنونة أو فتاة مسكينة تعاني هذيانًا عظيمًا.

حكى له الشابة عقب فترة من الصمت قصة الفيلم الذي سيُصوّر في إسبانيا وأن دورها سيكون لمغنية جواله، وأنها لهذا السبب تحتاج إلى خبرة الغناء في الساحات والأسواق، كما فعلوا سلفًا في تلك الأزمنة. الشغف الفني البحت! هذا ما قالته.

استسلم أنخل سالومون. ما سمعه كان لا يُصدق بصورة كبيرة تنفي في الوقت نفسه كونه كذبًا.

- قدمني، وأنا سأغني أغنيتين أو ثلاثًا، وأترك لك الحلقة وهي ملأى
بالناس.

- سنرى هذا.

- جربني، هل ستعود غدا إلى الساحة؟

- سأعود اليوم، في السادسة مساء.

- اتفقنا. ستجديني هنا. لا تقلق.

حققت تجربة الأداء نجاحًا. على الأقل، كانت قدرتها على الغناء
حقيقية. غنت إيبا لا سكالاً كالملائكة، وجمعت حولها عددًا مذهلاً من
المتفرجين.

ومع أن الشك ظل يراوده بخصوص مسألة الفيلم، قال أنخل
سالومون لها إنها سترافقه، لكن عليه أن يخبرها بأن الجولة ليس فيها
أي رفاه، وأن الجانب الأكبر منها سيكون عبر إيقاف سيارات على
الطريق ومطالبة سائقها بإقلاقهم، إذ إنهما دائماً لا يكسبان ما يكفي
لاستقلال الحافلة.

قالت إيبا لا سكالاً:

- لا تقلق يا زعيم. الآن سنمضي في سيارتي.

وهنا ظهرت سيارة «فورد إيه»، موديل 1927.

- كما يزفر الفم هواء فاتراً لتبريد الحساء وهواء حاراً لتدفئة اليدين،
فبالصورة نفسها ومن الفم نفسه تُتلى أبيات الحب وأبيات
الهجاء؛ ويخرج التجديف ويخرج التهليل؛ وتنبثق الحقائق
وتنبثق الأكاذيب. لكن اليوم، سيداتي وسادتي، أنا لم آت إلى هنا
لأتلو أبيات حب ولا هجاء. لم آت للتجديف ولا للتهليل. لم آت لبيع

ولا لتوزيع عطايائي. باختصار، سيداتي وسادتي، لم آت لأحكي الأكاذيب ولا لقول الحقائق، وإنما لنقيض كل هذا. أنا أنخل سالومون، الأمير الإنكاوي، أستاذ فن طرد الشرور الروحية والآلام الجسدية وأوجاع الروح. قارئ الكف، قارئ الأفكار، المستبصر، قارئ التاروت ودكتور الأعشاب الطبية، بسبب مسيرتي الكبيرة في مدن ودول أجنبية، كوفئت وكُرمت بـ«الوسام الذهبي لأكاديمية الصלבان الوردية».

بهذه الثثرة، سواء أزادت بعض الكلمات أم نقصت، يبدأ أنخل سالومون مراسم طقوسه في الشارع، وهو يضع مستمعيه في حالة سُبات بكلامه المخدر وفهرس أكاذيبه وشائعاته وخدعه، وهي ركيزة كلامه المبهرج، إضافة إلى صوته الزاعق كبوق سفينة الذي ورثه من أبيه، بائع آنية المطبخ المتجول.

تجذب ثرثرته في الأسواق والساحات العامة الأنظار. ثمة من يتوقفون للاستماع إليه لبعض الوقت دائماً ويشترون منه تعاويذ الحظ الجيد وميداليات عذراء «مونسيرات» المباركة، أو أكياساً بحجم الكتفية⁽¹⁾ ملأى ببذور وأغصان من جبال برية يبيعها على أساس أنها «أحجة» ضد كل أشكال الشعوذة، والسحر المؤذي، واستحضار الأرواح.

يمضي الآن وهو يروج لدهان إنكاوي يقول إنه اكتشف على يد علماء إحاثة فرنسيين كانوا قد حفروا داخل كهف في بوليفيا وعثروا على مومياء لامرأة في حالة حفظ جيدة إلى درجة بدت معها كأنها نائمة. إلى جوارها، وجدوا جرّات ملأى بهذا الدهان، الذي يُعد مزيجاً سرّاً من ثقافة اختفت ويُقدر عمرها بآلاف السنين.

(1) رداء معين يرتديه بعض الكهنة. (المترجم).

- ولهذا الدهان سيداتي وسادتي قدرات شفائية استثنائية، بل إن الأمر أكثر من هذا! يُقال إن من ضمن مكوناته ماء «نبع الشباب»؛ ذلك الذي صار الكثير من المغامرين عظامًا في ظل بحثهم عنه.

يبرز أنخل سالومون، الأمير الإنكاوي، بين كل دجالي الأعاجيب في البلاد، كأفضل ممثل لأبناء هذه الصنعة، فهذا الرجل قادر بلسانه على بيع أي شيء، لأي إنسان، في أي جزء من العالم، سواء احتاج إليه أم لا. يُقال إن هذا الملعون قادر على الاتجار بأكياس ثلج في أنتاركتيكا، بل وبيع مناظير بعيدة المدى في نادٍ للعميان.

يعرفه الجمهور عامة بلقب «دجال الأعاجيب ذو اللسان الذهبي»، وإن كان البعض يُزعجونه بمناداته بـ«دجال الأعاجيب ذو الأفعى الذهبية»، وهذا لأنه في الفترة التي سبقت مجيء المطربة الأوبرالية اعتاد قبل بدء خطبته المسهبة، أو كلما رأى اهتمام جمهوره يتراجع بشكل أكثر من المقبول، أن يضرب حقيقته البنية بالعصا المعدنية، كأنه يُوقظ أفعى كي يجذبهم ويقول:

- هيا يا حضرة الأفعى فيديليثيا! إلى العمل، فالوقت من ذهب!
وحتى الآن لم ير أحد هذه الأفعى الداعرة!

كان وضعًا يرثى له، فخلال أسبوع المفاوضات عُومل قادتنا النقابيون بفوقية وتعرضوا للإذلال من قبل محامي الشركة الذين أضاعوا كل حججهم بمفرداتهم ومصطلحاتهم التشريعية. مع ذلك، قال بعض منا إن أداءنا الهزيل -إن أمعنا النظر في الموضوع- كان مفهومًا بالطول وبالعرض. تقمصوا دور محامي الشيطان، بقولهم إن القادة قد شق عليهم غالبًا التناطح مع غطرسة وتحذلق المحترفين العاصمين؛

وإن هذا متوقع، خصوصًا أن أيًا من القادة الثلاثة لم ينه تعليمه الثانوي، على النقيض من محامي الشركة، الذين عملوا في أهم مكاتب العاصمة ودرسوا في أفضل الجامعات الأجنبية، وبالتالي صار الفارق بينهما مهولًا. لقد نشزوا عن كل شيء وهذا لأن العاصميين شعروا في رفاه قاعة الاجتماعات، بأن كل شيء على هواهم، أما قادتنا فأصابهم جلوسهم على طاولة المفاوضات -وهي طاولة كبيرة من خشب الماهوجني- بالدوار. في أيام المفاوضات في أنتوفاجاستا، أقام ممثلونا الذين ارتدوا أكثر أطقم ملابسهم أنيقة (بنطلونات جينز وقمصان بولو الـ«بيتلز») في أي نزل، أو ناموا على أريكة أي من أقاربهم. لم يأكلوا في مطاعم، وإنما في أكشاك في سوق مجلس البلدية. بالنسبة إلى الشرب، فبدلًا من الويسكي، تناولوا الماء مع الدقيق المحمص، أو في أفضل الأحوال كوبًا كبيرًا من نبيذ «سونريسا دي ليون».

أما محامو الشركة، الذين تعاقدوا معهم من العاصمة، فجلبوههم بالطائرات وحجزوا لهم أجنحة في أفضل الفنادق. ارتدوا بدلات فائقة الحياكة، وأكلوا في أفضل مطاعم وسط المدينة وشربوا أغلى أنواع الويسكي. وهذا من دون الحديث عن مستحققاتهم، التي لا بد أنها كانت هائلة. لنقل إن البدلات التي حصل عليها هؤلاء الملاعين قد تخطت بمفردها مرتب الجوعى الذي كسبناه من العمل طيلة اثنتي عشرة ساعة يوميًا على مدار أيام الأسبوع السبعة، فلماذا إذن لن يحق لهم أن يتعاملوا مع قادتنا المساكين بفوقية!

على الرغم من الجمهور الغفير الذي تركته إيبا لا سكالاً، وعلى الرغم من كل لفافات الأوراق والميداليات التي يمارس بها خداعه في فقراته، وعلى الرغم من شعوره بأن أدائه لم يكن مجرد خطبة مسهبة، وإنما

واحدة من أفضل خطبه منذ فترة طويلة، فقد تحتم على أنخل سالومون الاعتراف بأن هذا المساء، في «تريكلور»، لم يكن من أفضل أمسياته. إن تحدثنا بصراحة، فقد كان من الأسوأ ضمن مسيرته.

في الحقيقة، لا يفهم الأمير الإنكاوي ماهية ما حدث. لقد رأى بنفسه القوم وهم منغمسون في الاستماع إليه، بل وهم مفتونون به، كأنهم صاروا عالقين في مصيدة كلماته، بل إن إييا لا سكالاً نفسها، من فرط حماسها من الاستماع إليه، تقدمت بنفسها (وهو شيء لم تفعله من قبل) ولفت على حلقة الجمهور مرتين لتعرض البضائع. مع ذلك، فبعد أربعين دقيقة استغرقتها الفقرة، كان الوحيد الذي اشترى ميدالية «عذراء مونسيرات» المباركة، هو سَنِيْدُه «خوان ابن لا أحد».

على مدار أربعين دقيقة، جعلهم يضحكون ويبكون وينفعلون، وكل هذا لأي سبب؟ كي يرحلوا في النهاية من دون أن يشتروا شيئاً!

- هل تعرفين كيف أشعر يا «لوالب»؟ أشعر كأنتي رجل يُعَلِّمُ بومةً الكلام، وحين يسأله أحد: يا صاح، هل تعلمت البومة الحديث؟، يقول له: ولا أي كلمة داعرة يا صديقي، لكن البومة توليني اهتمامها!

بينما يُحمَلُ الأغراض في السيارة، قال «خوان ابن لا أحد» لزعيمة إن المستوطنة في حالة إضراب، لهذا لم يشتتر أحد شيئاً.

- أردت أن أبلغ حضرتك، لكن حين وصلت إلى الساحة كنت قد بدأت بالفعل هذا الشيء الذي تفعله.

لم يتمكن العملاء من قول مصطلح «العرض الفلكي الثقافي».

أكد الأشخاص الذين اقتربوا للتحدث معهم عقب انتهاء الفقرة أنهم فعلاً في حالة حرب، وأنهم لا يفكرون في التراجع إلا بعد أن يحققوا مطالبهم، فهي ليست شيئاً من عالم آخر. «حتى وإن أطلقوا علينا

عساكرهم، كما يطلقون الكلاب على اللصوص. نحن مستعدون للموت،
إن كان هذا ضروريًا».

في تلك اللحظات، بينما ينتظره صبيه والمطربة الأوبرالية في
السيارة، تقترب منه سيدة بوليقيّة عمرها نحو خمسة وثلاثين عامًا،
ومكتنزة نوعًا ما، لكن من دون أن تفقد قوامها. تقول المرأة، التي تتمتع
بجمال جبلي غامض إنها تريد قراءة يد خاصة.

يقول:

- ليس لديّ مكان.

- في منزلي إذن. سنحظى بالهدوء هناك. أنا أرملة وأعيش بمفردي.
تناوله ورقة كُتِبَ عليها عنوانها:

- سأنتظرك غدًا.

- أي ساعة غدًا؟

تقول وهي ترمش بعينيها:

- في أي ساعة تروق حضرتك.

قبل وصول «خوان ابن لا أحد» إلى الساحة لأداء دور السّنيّد، تأكد من
بعض الأشياء التي قد تنفع زعيمه: العمال في إضراب، و«تريكولور» ليس فيها
نزل أو فنادق للنوم فيها، وأرخص مكان لتناول العشاء هو كازينو العمال.

يمضي ثلاثتهم إلى كازينو العمال في تلك الليلة. «خوان ابن لا أحد»
بملاسه التمويهية السخيفة التي تبدو كل قطعها قصيرة وضيقة عليه،
وأنخل سالومون وإيبا لا سكالاً، وهما يرتديان ملابس فقرتهما. الفارق
الوحيد أنها خلعت إكليل الزهور وعلقت في رقبتها.

كازينو العمال ملآن. حين يدخلون، تهز الشقراء «لوالب» - كما يدعوها زعيمها- المكان. يكادون يجعلونها تطفو في الهواء بصافراتهم. تتسع الموائد، أو بالأصح الموائد الكبيرة، لثمانية أشخاص. يُقدَّم الطعام الموجود في القائمة فحسب. يجلسون إلى مائدة يشغلها عاملان. لا يتأخرون في تقديم الأطباق، فهناك أكثر من عشر نادلات. تتذوق إيبا لا سكالاً قطعة كبيبة نيئة تطفو في حساء سيئ الرائحة وتقول إن هذه الحانة الصغيرة هي الأرخص لهذا السبب. تترك الطبق جانباً وتطلب شيئاً. لمعارضتها فحسب، يقول أنخل سالومون فيما ينظر حوله، إن الطاهي على الأرجح ليس بمثل هذا السوء، خصوصاً في ظل وجود كل هؤلاء الزبائن. يسأل أحد العاملين الجالسين إلى الطاولة لمجرد السؤال، وهو رجل سمين وقصير نوعاً ما، ما إذا كانوا أفراداً من سيرك ما.

يبتسم أنخل سالومون:

- شيء من هذا القبيل.

يقول رفيق السمين، وهو رجل ذو مظهر رسمي، شاربه رفيع كسلك، وبسنة ذهبية، إن عليه ألا يكون وقحاً، فكيف يخطر على باله السؤال عن مثل هذه الحماقات.

يقول الرجل وهو يوجه حديثه إلى إيبا لا سكالاً الجالسة إلى جواره:

- عذراً يا أحباب، لكن هذا السمين كارثة.

تسأل هي:

- وحضرتكما؟ ما هي وظيفتكما هنا؟

يقول صاحب الطابع الرسمي:

- نعمل في قطاع المناجم يا آنستي. زميلي جرّاف وأنا رئيس عمال

السكة. دعيني أقدم نفسي. اسمي خوسيه سانتوس.

تُجيبه:

- تشرفنا!

وعلى الفور تسأله ما إذا كان هذا هو المكان الوحيد لتناول الطعام.

يقول خوسيه سانتوس:

- في «تريكولور»، لدينا ثلاثة كازينوهات

ومقصف، لكن المقصف أفضل للشرب. بالنسبة إلى الكازينوهين المتبقين، فأحدهما للموظفين والآخر للـ«جرينجوس». لا يمكننا نحن العمال أن ندخل كازينو الموظفين، ولا يُسمح للموظفين بدخول كازينو الـ«جرينجوس».

يُعلق سالومون:

- التمييز الداعر!

يقول «خوان ابن لا أحد»:

- ما معنى التمييز؟

يسأل أنخل سالومون دون خوسيه ما إذا كانت ثمة ورشة سيارات هنا.

يقول الرجل:

- الورشة الوحيدة الموجودة في «تريكولور» تخص الشركة.

لدى خروجهم من الكازينو، يقفون عند إحدى النواصي للدردشة قليلاً مع رئيس عمال السكة. الليل حار. يسير الكثير من الرجال بقمصانهم الداخلية. بينما يتحاورون، يدخل العمال ويخرجون وهم يحيون دون خوسيه باحترام كبير.

- وهذه هي الحال يا صاحبي. قد يستمر الإضراب شهرًا.

تفزع المطربة الأوبرالية:

- إلى هذا الحد؟

يقول دون خوسيه:

- استغرق إضراب في المقاطعة الوسطى تسعين يومًا تقريبًا منذ فترة ليست بالبعيدة.

يسأل أنخل سالومون:

- لكن هل لديكم قادة جيّدون؟

- كي أكون صريحًا يا صاحبي، لن أراهن على أي من ثلاثتهم. الأمر وما فيه أن الناس يختارون هنا من يزعم في التجمعات قائّدًا.

تتدخل إيبا لا سكالّا:

- حتى وإن كان كل ما يقوله مجرد حماقات؟

- هكذا تجري الأمور للأسف يا آنستي. الآن، تجعلك كثرة الصراخ مؤهلًا للرئاسة.

يسألون دون خوسيه وهم يودعونه أين يمكنهم أن يناموا، لأن «تريكولور» ليس فيها فنادق أو نزل. يقول لهم الرجل أن يذهبوا إلى النقابة، فربما يقدرّون هناك على مساعدتهم.

بينما يمضون إلى النقابة، يقول «خوان ابن لا أحد» إن الشماليين قوم طيبون جدًّا.

يقول أنخل سالومون:

- هذا لأنهم جنوبيون.

فيظل صبيه يرمش بعينه.

تعمل نقابة عمال «تريكلور» حتى العاشرة مساءً. أغلقت منذ عشر دقائق. تفتح لهما السيدة إرمينيا، المسؤولة عن المكان، وتنصت إليهما بسيجارة تتدلى من شفتيها. تقول لهما، بطريقة حادة نوعاً ما، إنها آسفة، لكن بما أن القادة ليسوا موجودين، فهي ليس بيدها حيلة. المرأة طويلة وعظامها بارزة، وعمرها نحو أربعين عاماً. ترتدي معطفاً منزلياً باهتاً، وشعرها قصير، وصوتها غليظ، بسبب السجائر بكل تأكيد. مع ذلك، نشزت الزرقة السماوية لعينيها بحُسنها عن كل هذا.

بينما يتأهب أنخل سالومون لتوظيف قدرته على الإقناع، تحديق المرأة إلى إيبيلا سكالا التي كانت قد انتحت جانباً وهي تتأمل صورة لإلياس لافيرتي⁽¹⁾.

- هل هي الشابة التي غنت في الساحة؟

لما عرفت أنها هي، برقت زُرقة عينيها ولانت عظام وجهها، ونعمت نبرة صوتها إلى حد المداهنة.

قالت وهي تمسكها من يديها:

- أنا محظوظة برؤيتك عن قرب!

استمرت في التحديق إليها، ثم مضت في حديثها من دون أن تبعد السيجارة عن فمها:

- لا تغنين مثل الملائكة. لا يا سيدتي! الناس مخطئون، بل تغنين

مثل عرائس البحر. أقول هذا لحضرتك لأننا حين كنا في الجمعية

الاستهلاكية وسمعنا صوتك، وقعنا في شباك أحد أشكال السحر

(1) عامل سابق في مستوطنات الملح الصخري وسياسي شيوعي ترشح لانتخابات الرئاسة عامي 1931 و1932 وأنهى المرة الأولى في المركز الثالث والمرة الثانية في المركز الخامس، وكان عضواً في مجلس الشيوخ التشيلي بين عامي 1937 و1953. (المترجم).

وتركنا من دون أن نحسب التبعات أماكننا في الصفوف، كالبحارة الذين يهجرون سفنهم، وخرجنا إلى الشارع وركضنا فيما يسحبنا سحر غنائك، بحثًا عن مصدره، وحين عثرنا عليك، أو حين عثرت عليك أنا على الأقل، تمكنت من رؤيتك من بعيد. لقد جلب صوتك الخلاب الكثير من الناس حولك.

في تلك الأثناء، يدخل شاب يرتدي ملابسه ويصفف شعره على طريقة جيمس دين.

تقدمه السيدة إرمينيا:

- ابن أخي.

يُحييهم الشاب ويسألهم ما إذا كانوا أصحاب سيارة «فورد إيه» المركونة في الساحة، ويخبرهم بأن رجال الشرطة العسكرية يبحثون عنهم.

تقول لهم أن يأخذوا حذرهم وألا يقعوا بين يدي النقيب «فلفل»، أكثر الضباط تعسفًا في المستوطنة. بعدئذٍ، تعترف بأن النقابة لديها غرفة صغيرة بفراش تخيم، لشخص واحد.

- إن أردتم، يمكنها أن تمكث هنا. لكن لا يمكنني أن أسمح ببقاء ثلاثتكم.

إنها الحادية عشرة ليلاً. يتبقى قوم قليلون في الساحة. يجلس أنخل سالومون وصبيه على أحد مقاعدها وهما يتأملان سيارة «فورد إيه»، موديل 1927، الراقدة كجثة. ناما فيها ذات مرة، في بايينار، حين لم يكفهما المال إلا لسداد تكلفة إقامة المطربة الأوبرالية في غرفة، ولهذا يعرفان مدى ضيق السيارة. في هذه المرة، نام أنخل سالومون في

الجزء الأمامي، في وضعية جنينية، وترك الجزء الخلفي، الأوسع نوعًا ما، لصبيه ضخم الجثة، لكن العملاق، لكيلا يخرج نصف جسده من السيارة، اضطر إلى ثني جسده ككمان.

- أوراقك يا غريب منك له!

ظهر رجلا الشرطة العسكرية، كأنهما جاءا من العدم، ففكر أنخل سالومون: لا بد أن ذلك الذي تطل السفالة من وجهه هو المدعو «فلفل». يقطب السافل جبينه، وهو يُمسك أوراق كل منهما، ويسألهما عن اسميهما كي يتحقق مما يقرؤه. يقول أنخل سالومون اسمه ويظل «خوان ابن لا أحد» صامتًا.

- اسمك يا عم العملاق!

يتدخل سالومون:

- إنه لا يتحدث.

ينظر الشرطي العسكري إلى «خوان ابن لا أحد» بريية، لكنه حين يرى حماقة وجهه، تتوقف ريبته.

لقد اتفق سالومون و«خوان ابن لا أحد» على أن يصمت الثاني وأن يتحدث الأول كلما أُلقي القبض عليهما، وهو ما حدث لهما كثيرًا في سانتياجو.

قال الشرطي العسكري الآخر:

- عليكم أن تأتيا معنا.

يسأل دجال الأعاجيب:

- والسبب؟

ينبح السمين بينهما:

- امش وأنت ساكت يا عبيط وستعرف في القسم!

ثم يمسكه بقوة من ذراعه ويكتفه وذراعه وراء ظهره قبل أن يكبله بالأغلال.

يقفز «خون بن لا أحد» كأنه زنبرك ويضع جسده بطوله الذي يبلغ مترين وسبعة سنتيمترات إلى جوار زعيمه.

يقول دجال الأعاجيب:

- اهدأ يا خوانيتو. يقدمان لنا خدمة! أي زنزانة قد تكون أوسع من السيارة!

يسمح لهما «خوان ابن لا أحد» بتقييده.

حين يصلون إلى القسم، الواقع على بعد أربعة مربعات سكنية من الساحة، يخلعان رباط حذاء «خوان ابن لا أحد» وحزام أنحل سالومون المزود بمسامير نحاسية ويلقيان بهما في الحبس.

بمجرد إغلاق الزنزانة عليهما، يفرد «خوان ابن لا أحد» ظهره على لوح الخشب المشحم الواقع في وسط الزنزانة، ويعقد يديه على صدره، كأنه ميت، من دون أن يهتم برائحة بول وقىء السكارى المثيرة للغثيان، وينام كأنه في أفضل واحد من النزل القذرة التي يرتادانها.

في وقت مبكر من اليوم التالي، يدخل ثلاثة من أفراد الشرطة العسكرية الزنزانة فجأة. يأخذ اثنان منهما أنخل سالومون بالقوة ويكبلانه ويغطيان رأسه ووجهه بلثام ويأخذانه معهما، وكل هذا فيما يصوب الثالث مسدسًا إلى «خوان ابن لا أحد» الذي كان قد نهض من قفزة واحدة مستعدًا للدفاع عن زعيمه.

- حركة واحدة وسأقتلك يا غوريلا!

يُخمن أنخل سالومون، من تحت اللثام، عن طريق الأرض الترابية ورائحة المكان، أنه قد اقتيد إلى مستودع ما إلى جوار الإسطبلات.

يجلسانه على كرسي، من دون أن ينزعا لثامه، قبل أن يُضرب بقوة، وهو مقيد، بلكمة في معدته.

- ستجيب عن كل الأسئلة التي ستوجه إليك. مفهوم يا عبيط؟
تيقن عبر صوته من أنه «فلفل».

يتلقى لكمة أخرى في معدته تجعله ينثني وهو جالس على مقعده.

- وبإجابة نموذجية، مفهوم يا تيس؟
ويضيف وهو يخاطب أحدًا يدخل المكان:
- كله لك يا سيدي.

وحينئذٍ، يبدأ صوت ما في استجوابه بلكنة الـ«جرينجوس».

تمكن قادتنا من السفر مبكرًا من أنتوفاجاستا في آخر حافلة تصل إلى «تريكولور» في عز الليل. خشوا من أن يتعرضوا للاستهجان والسباب، بل والضرب من قبل بعض العمال عكري المزاج، وهم ليسوا قلائل.

في ظل هذه الأجواء، انتظرهم البعض منا نحن معشر العمال في المحطة. شعرنا بالقلق بمجرد أن نزلوا. لم يبد محياهم جيدًا. أعلنوا فورًا، بمجرد أن خطت أقدامهم فوق الأرض وعقب أن رأوا الاستياء الذي يعلو وجه مجموعتنا التي انتظرتهم، عن عقد اجتماع في منتصف ظهيرة اليوم التالي، الموافق الثلاثاء، فحينذاك سيقدمون تقريرًا عن رحلتهم. على أي حال، تلقوا بعض الدفع من أصحاب الخُلق الضيق الذين أصروا على معرفة نتائج المفاوضات فورًا.

بمرور الوقت تصاعد الفوران الساعي إلى معرفة ما إذا كان الأسبوع الذي قضوه في المدينة للتفاوض على المطالب قد استحق العناء.

أيضًا، أردنا أن نعرف ما إذا كان صحيحًا أن الأقل سوءًا بين الثلاثة يُفكر في الاستقالة، لا فقط من إدارة النقابة، بل أيضًا من عمله في الشركة، فهذا أمر مثير للشكوك، إذن إننا عرفنا جميعًا أن التحديد من ضمن استراتيجيات شركات الملح الصخري، حيث تعمل من خلاله على إبعاد الأكثر حدة بين القادة؛ أي الشوكة التي تقف في حلقهم، ولا يقبل دعواتهم إلى العشاء ولا يسمح لأحد بأن يربت على ظهره.

وأفضل طريقة للتخلص منه، أو على الأقل تحييده، تتمثل في عرض مبلغ مالي عليه. مع ذلك، وللتحلي بالصراحة، عرفنا جميعًا أنه لم تكن ثمة حاجة إلى شراء الكثير منهم، لأنهم باعوا أنفسهم بمفردهم، ومن أجل أشياء تعد مدعاة للعار، مثل دعوتهم إلى كباريه (حتى وإن لم يكن من أفضل الكباريهات)، بل وعدم شعورهم بأي خجل من أن يدفع لهم أحد ثمن ممارستهم للجنس. لم تلتخطهم ممارسات مثل هذه بالعار، بل مرغتهم فيه، لأنهم صاروا معها مساكين مغفلين لا يدركون قدر انحطاطهم، لأن الرجل الذي كُلّه رجولة -كما يُقال في البامبا- لن يطبق أبدًا تحمل إهانة أن يدفع له شخص آخر ثمن علاقاته الجنسية.

مع ذلك، تعلقت مشكلة قادتنا بشيء آخر، وهي أنهم لم يملكوا أسلحة يدافعون بها عن أنفسهم، فلغتهم كانت بدائية وافتقروا إلى الخبرة، واستمر المحامون في هزيمتهم، إلى درجة أن الشركة لم تزعج نفسها أصلًا بالتفكير في شرائهم.

ومع أن كل المؤشرات قالت إنهم قد فرموهم في العاصمة، انتظرنا أن يقدموا لنا ملخصهم في الاجتماع، لنقرر ما إذا كنا سنتركهم في منصبهم، أم نطردهم ثلاثتهم بركلهم في مؤخراتهم.

- من أين تأتيان يا حبيبي أنت وهو؟
- من سانتياجو.
- وما هو عملكما؟
- أنا مروج للدهانات والكريمات ونظائرها وكل منتجات الصحة الجسدية والروحية.
- والعلاق الغبي صاحبك؟
- إنه صبيبي.
- يتلقى ضربة أخرى في معدته:
- أتحسب نفسك كاهناً يا مغفل؟
- أقصد مساعدي.
- والمرأة التي تغني؟ ما الذي تفعله؟
- تغني!
- لكمة أخرى قوية.
- من دون استظراف يا مغفل!
- يتنفس بعمق بعد كل لكمة يتلقاها في معدته لاستعادة أنفاسه. تنقل رائحة روث الأحصنة الدبقة أنخل سالومون إلى «تيموكو» في حقبة طفولته.
- سألتك عما تفعله!
- وقلت لك: تغني! إنها نمرتي الفنية!
- أين هي الآن.
- ليس لدي فكرة.
- يفكر أنخل سالومون في أنه من الأفضل ألا يأتي على ذكر النقابة:

- إنها مثل العصفور. تطير فجأة وتعود فجأة.
- بالأمس زار ثلاثتكم الكازينو.
- أجل، لكنها تحمست لمرافقة عامل شاب نظر إليها كثيرًا أو ربما خرجت مع إحدى النادللات التي ابتسمت لها كلما مرت بجوارها. واختفت. لا بد أنها تبحث عنا الآن. هكذا هي.
- ولماذا جئتم إلى «تريكولور»؟
- نحن في جولة. نقدم منتجاتنا بكل شرف. الأمر وما فيه أننا تهنا في البامبا ووصلنا إلى هنا بالصدفة.
- يعرف أنخل سالومون أن أفضل طريقة لخداع أحد بكذبة هي إضفاء لمسة من الحقيقة عليها.
- شوهدتم وأنتم في الكازينو فيما تتحدثون مع عامل مرتبط جدًا بالنقابة. ما الذي تحدثتكم عنه؟
- عن مدى سوء طعام كازينو العمال. في الحقيقة، إنه مقرف. لكن إن أردت الصراحة، أكلت ما هو أسوأ منه.
- ماذا عن الإضراب؟
- لم نتحدث عنه على الإطلاق. تحدثنا فقط عن الطعام، وسألناه ما إذا كانت ثمة ورشة ميكانيكي هنا.
- وما الذي قاله لكم؟
- إن هناك ورشة، لكنها تابعة للشركة، لكنها مغلقة بسبب الإضراب.
- بسبب الإضراب. ما الذي قاله لكم عن الإضراب؟
- يُخمن سالومون أن من يستجوبه هو مدير المستوطنة الـ«جرينجو»، الذي قال دون خوسيه سانتوس عنه إنه أسوأ من طاغية، فيبدأ فقرته.
- دعني أكرر: ما الذي قاله بخصوص الإضراب؟

- قال إن المحامين الذين أجرتهم الشركة أوغاد أبناء عاهرة.
- وماذا قال أيضًا؟
- ماذا؟ أبدو هذا لك قليلًا؟
- لكمة قوية أخرى.
- يقول صوت الـ«جرينجو».
- لا داعي للتحاقق! ما الذي قاله بخصوص الإضراب.
- لو أنكم تتابعوننا فلا بد أنكم تعرفون أننا لم نحظ بوقت طويل كي يقول أمورًا أخرى.
- ينقض «فلفل» عليه ويهزه بقوة:
- يلعن أمك! ما الذي قاله أيضًا؟ أجب جيدًا!!
- يتذكر أنخل سالومون حينذاك شيئًا قرأه منذ فترة قليلة، وفيما يقبض معدته جيدًا ليتلقى الضربة بشكل أفضل، يقيء إجابته في وجهه:
- حسنًا. أجل. قال شيئًا آخر. قال إن ملاك شركات الملح الصخري يدفعون راتبًا يجوع العمال، بينما يسافرون هم ومديروهم عبر العالم وينشئون قصورًا فارهة برخام كرا..
- يتلقى ركلة في صدره تقلبه هو ومقعده. لا يعرف ما إذا كان «فلفل» أم الـ«جرينجو».
- بالعودة إلى زنزانته، لم يتمكن أنخل سالومون من التحدث إلا بصعوبة. يسأل مرة ثانية وهو يتحمل ألم صدره، لماذا أُلقي القبض عليهما. ينزل «فلفل» عليه بالسبب واللعنات. بعدئذٍ، عقب إغلاق الحبس، يقول له عبر القضبان إنه لو تبين أنهم نشطاء سياسيون، فسيُنقلون إلى سجن أنتوفاجاستا.
- وإلى متى سنظل في الزنزانة؟

- إلى أن تُغني المثانة!

تستيقظ إيبا لا سكالاً على طنين. ما هو؟ من أين يأتي؟ يشق عليها خلال بضع ثوان تذكر أين هي. حينئذ، تدرك أن هذا الطنين دمدمة أناس قادمة من القاعة. بالطبع، إنه الاجتماع. تنظر إلى ساعة يدها. إنها العاشرة صباحاً. لقد ظلت إيبا لا سكالاً تتحاور مع مسؤولية النقابة حتى مطلع الفجر تقريباً.

ترتدي ملابسها سريعاً. للذهاب إلى مطبخ السيدة إرمينيا تضطر إلى عبور القاعة كلها بالعرض عبر الممر الفاصل بين الصف الأول ومقدمة المسرح. لا تزال ترتدي تنورتها البيضاء المتربة الطويلة حتى كاحليها، وصندلها المتقشف، وإكليل الزهور يتدلى من رقبتها، فيما تتحرك لوالب شعرها الأشقر في كل الأنحاء. حين تجتاز القاعة بخفة، على أطراف أصابعها، وهي تطفو تقريباً، يرتبك العجائز الجالسون في الصف الأول. يرفع أكبر من فيهم سناً قبعته ويحك رأسه:

- هل رأيتم ما رأيته يا أصحاب؟

انتظرتها السيدة إرمينيا لتتناولا الإفطار معاً، ولأنها ثرثرة، بنفس قدر وحدتها، قصت عليها طوال الليل بين شرب المنة وتدخين السجائر الفيلم الذي تتشكل منه حياتها، وهو فيلم طويل بالأبيض والأسود، مدته ثلاث ساعات قريباً، ملآن بتفاصيل حميمية عويصة وغير ضرورية إلى درجة أن الرقابة السينمائية كانت لتصنفه لمن هم أكبر من أربعين عاماً. باختصار، مسقط رأسها يانكيوي. وصلت إلى البامبا في عمر الخامسة عشرة مع إحدى خالاتها وتزوجت وهي في عمر السادسة عشرة وبعد ستة شهور انفصلت. تبين أن زوجها الموظف المكتبي، الرجل المثقف

صاحب الصوت الناعم والأخلاق الراقية، أستاذ في إساءة المعاملة، ووحش بعيداً عن أعين الناس، بل شيطان حقيقي. حوّلها في ظرف ستة أشهر إلى حثالة، إنسانياً وجسدياً واجتماعياً. حين باتت بمفردها ولم تجد مكاناً لتعيش فيه - فقد عادت خالتها إلى تالكا- اضطرت إلى العمل عاهرة في أجنحة العزاب، لكن قيادياً نقابياً قديماً أنقذها من هناك، وتعاقد معها كي تعمل في النقابة. ظلا عشيقين لمدة عامين. كان سائق قاطرة وتوفي في حادث بين قطارين. بعدئذٍ، جاء أخوها الوحيد من تالكا مع ابنه الأكبر. لقد انفصل عن زوجته وجاء بحثاً عن عمل. تعاقدوا معهما، لكن الأخ، وهو رجل عرييد لا يقبل التقويم، لم ترقه الأجواء وعاد إلى أنتوفاجاستا. ابنه هو الشاب الذي يحسب نفسه جيمس دين.

تقول السيدة إرمينيا بنبرة أمة وهي تمرر إليها شراب المنة الأول في الصباح:

- الآن أريد أن تحدثيني عن نفسك.

أدركت إيبا لا سكالا أن هذه المرأة تُشوش تفكيرها. تدفعها زُرقة عينيها والنبرة الحسية التي تتحدث بها إلى الشعور بفوران بارد في بطنها. أين هذان المغفلان ولماذا لم يأتيا لأخذها؟ لم تجد بُدّاً، وهي تحت حصار وسوسة هذه المرأة، من أن تحكي لها جانباً من حياتها، وهي تختصر قدر استطاعتها، مع إخفاء الأجزاء الحميمة.

ولدت في لا سيرينا وهي ابنة بلا إخوة. أبوها مدقق حسابات، وهو رجل حذر ومقتصد في كلامه، أما أمها فنقيضه (وربما لهذا السبب أحبا بعضهما كثيراً)، فكانت تحب الكلام ومبتهجة ومازحة. اعتادت أن تغني. ورثت منها موهبة الغناء الأوبرالي. من سوء الحظ أنها ماتت وهي صغيرة جداً من سرطان عانته مدة عامين. أنفق أبوها أكثر من طاقته على علاجها، بل ذهب بها إلى الولايات المتحدة كي يُعالجها أفضل المتخصصين، لكن

ما باليد حيلة! حين ماتت أمها، كان عمرها ستة عشر عامًا، وفي عمر السابعة عشرة، ذهبت إلى سانتياجو لتجرب حظها في الغناء. سارت أمورها جيدًا. تغني الآن منذ تسع سنوات عبر مسارح العالم. مات أبوها مؤخرًا واضطرت إلى العودة لحل شؤون ترتبط بالميراث. لم يترك لها أبوها، الذي أفلس بالكامل، إلا بيتًا طويلاً آيلاً للسقوط، وسيارة «فورد إيه»، موديل 1927، وهذا لأنه، لسداد مصاريف علاج أمها في الولايات المتحدة، اضطر إلى بيع بيت أكبر وسيارة «فورد تي»، موديل 1908، وهي واحدة من ضمن سيارتين ورثهما من مجموعة أبيه ولطالما أفرط في الاعتناء بهما إلى حد الغيرة. اعتنى بهما إلى درجة أنه أقنعها لفترة طويلة أثناء طفولتها أنها ستصاب بصدمة كهربائية إن لمست أيًا منهما. في تلك اللحظة، يُقاطع حديث إيبا لا سكالاً صوت إنذار حريق، فتجفل من الصوت القوي.

تُهدئها السيدة إرمينيا:

- إنه جرس الثانية عشرة.

تشعر المطربة الأوبرالية بالقلق. منتصف الظهيرة ولم يظهر رفيقاً رحلتها بعد. ترسل طفلاً لترى ما إذا كان صديقها في السيارة. ليسا موجودين.

تتنهد السيدة إرمينيا:

- سيظهران! إنها قلة ذوق الرجال المعروفة!

بينما توشك إيبا لا سكالاً على الخروج بحثاً عنهما، تتفجر صافرات الاستهجان لتعلن عن وصول القادة. يبدو الأمر مسلياً. تُقرر ألا تخرج إلى أن يأتيهما من أجلها. ستبقى وتسمع ما سيجري في الاجتماع.

شخر صبيه وسال لعبه كعجوز بلا أسنان في تلك الليلة في الزنزانة. راقبه أنخل سالومون برهة معقولة، لا من دون تعاطف، فالعمللاق -كما يناديه في بعض المرات- نام في الوضع نفسه الذي رآه عليه في أول مرة تحت أحد جسور نهر «مابوتشو».

حدث هذا في أحد أيام السبت من شهر فبراير، عشية عيد العشاق. لحسن الحظ، باع سالومون صلباناً وميداليات أكثر مما باعه طيلة الشهر، وفي ظل امتلاء جيبه بالمال، لم يرد أن يحبس نفسه في الغرفة التي أجرها في «نيونيوا»، بالقرب من «الملعب الوطني». أبقى على متعلقات عمله الأساسية في مكانها الدائم، وهو كشك صحف ومجلات، وذهب ليتجول عبر الحانات بشكل عشوائي، في أي مكان قادت إليه حاسة شم مزاجه المحب للجنة، ولما انتصف الليل، وصل إلى خمارة في حي «مابوتشو»، بالقرب من «السوق المركزي».

خدمته هناك صهباء تضحك من أي شيء ومفاتنها العلوية إجرامية. قضى قرابة الساعتين هناك وهو يتابعها بنظراته، فيما يشرب ويأكل وينفق المال كأنه خليفة زمانه كي يبهرها، حتى تمكن في النهاية من اصطحابها، أو أنها بالأصح من أخذته في النهاية إلى غرفة صغيرة تُغير فيها النادلات ملابسهن عقب انتهاء ورديتهن. فعلا ما عليهما فعله وهما واقفان. لم يكن قد مارس الجنس منذ فترة طويلة، لهذا لم يستغرق أربع دقائق أصلاً. لما انتهى وبينما يرفع ملابسه التحتية وتنزل هي تنورتها، قالت المرأة:

- مائتا إسكودو.

وأمام الاندهاش الذي اعتلى وجهه، سخرت منه النذلة:

- ما الأمر يا قلبي؟ أظننت أن هذا سيكون مجاناً، وكأنك خوليو خاراميو⁽¹⁾.

لما خرج أنخل سالومون إلى الشارع، تيقن من ثلاثة أشياء. أولها أن النادلة مارست معه سطوًّا مسلحًا. ثانيها: أنها الرابعة فجرًا وفي تلك الساعة لا وجود للحافلات، وثالثها أنه لم تتبق معه أي عملات لركوب سيارة أجرة، ولهذا لم يعرف أين سيقضي الليل.

فكر في الذهاب مشيًا، لكنه بهذه الطريقة سيصل إلى غرفته قرب السابعة صباحًا وهو مضطر إلى الاستيقاظ في الثامنة، لأن عليه أن يصل إلى وسط المدينة في التاسعة مرة ثانية، ففي تلك الساعة يصل الأعرج صاحب الكشك الذي يحتفظ فيه بأدوات عمله. لو تأخر، فسيرمي أغراضه في الشارع.

أشعل سيجارة وبدأ يمضي من دون وجهة. سيقضي ما يتبقى من الليل في التمشية. فجأة، وجد نفسه يجتاز أحد جسور نهر مابوتشو.

- وماذا إن نمت تحته قليلاً مثل باعة الصحف الجوالين؟
كانت ليلة دافئة ولم يشعر بالبرد.

بينما يُشعل الطريق أمامه بأعواد الثقاب، بدأ ينزل، وبمجرد أن وصل إلى الأسفل، كاد يتعثّر في رجل يفرد جسده فوق مجموعة من الورق المقوى ويستخدم حجرًا كوسادة. نام على ظهره، بطوله الكبير، وهو يعقد يديه على صدره. استيقظ فجأة، وبقفزة سنورية لا تتماشى مع ضخامة جسده، نهض واقفًا، وهو يضم قبضتيه.

- ما الأمر يا صاحبي؟

وجد رجلًا عملاقًا يتخطى طوله مترين وجسده مثل المصارعين.

(1) مغنٌ إكوادوري شهير حظي بشعبية كبيرة في أغلب أنحاء أمريكا اللاتينية.
(المترجم).

ومع أنه هو من شعر بالفزع، قال أنخل سالومون:

- لا تخف يا رجل. أبحث عن مكان لأمدد جسمي وأنام قليلاً. هذا كل شيء.

حينئذٍ أخرج علبة سجائر «أوبرا» وأشعل واحدة من دون أن يعرض واحدة على العملاق. انتظر أن يطلبها منه، كي يمكك بهذه الطريقة بزمام الحديث.

- هات واحدة يا رجولة!

ابتسم أنخل سالومون، وقبل أن يناوله السيجارة سأله عن اسمه. أجاب الآخر وهو يُبعد عنه نظرتَه فيما ينتظر النكات المعتادة:

- «خوان ابن لا أحد».

أدرك أنخل سالومون أن العملاق طفل كبير. كائن بسيط وأخرق نوعاً ما.

- اسم جميل لمتشرد. أنا أنخل سالومون.

كرر المتشرد:

- اسم جميل.

مر على هذا عام ونصف. هكذا، أخرجه من تحت الجسر و«أجرّه» كي يصبح سَنِيْدًا له، وهو العمل الذي أتقنه «خوان ابن لا أحد».

تقرر عقد اجتماع الثلاثاء في الثانية عشرة ظهرًا. بدأنا نحن معشر العمال وصولنا في العاشرة. أردنا أن نحصل على مكان جيد. بهذه الطريقة، قبل أن تدق الثانية عشرة، كنا قد ملأنا قاعة النقابة. لم نرد أن نفقد أي تفاصيل سيقولها القادة. تراكم الزملاء الذين لم يلحقوا المقاعد

في جوانب القاعة، في حين ظلت بقيتهم في الخلف، وسدت المدخل، فيما وقف كثيرون غيرهم في الخارج.

صار الفوران ثخيناً إلى درجة أن أحداً كان ليقدر على حكه بملعقة. لما انتصفت الظهيرة، وبعد تأخرهم عشر دقائق، ظهر القادة. اضطروا إلى الدخول من باب الزقاق، وبمجرد أن صعدوا إلى المنصة، تردد صوت صفير استهجان يصم الآذان، وتحت أمطار الإهانات وبعض البيض الذي ألقيناه عليهم، أراد المساكين أن ينسحبوا، لكن سد العمال كل الأبواب.

- لم أر شيئاً مثل هذا يا زعيم!

هذا ما قالت إيبا لا سكالاً لاحقاً لأنخل سالومون.

لم يسمحوا لهم بالحديث، إلى أن أخذ أحد ما مزهرية من فوق رف وصعد فوق كرسي وحطمها فوق الأرضية. دفعهم الصخب إلى الصمت والتفتوا إليه، وهم يتوقعون أن يروا رجلاً خشناً يشمر كُمي قميصه وله مظهر متبجح، لكنهم وجدوا الطلة المطمئنة لدون خوسيه الذي بدأ يطالبهم بإنهاء هذا الشجار، لأنهم يبدون كلاباً مسعورة.

- بهذه الصورة، لن نصل إلى أي مكان. ما علينا فعله الآن أن نعطي انطباعاً بالاتحاد والقوة أمام الشركة، وأن نثبت لهم أننا كتلة واحدة، وأننا لن نتفرق، وأننا مستعدون لكل شيء. تقديم انطباع جيد أمر جوهري. ولو أنكم لا تعرفون، فدعوني أقل لكم إن ملاك الشركة سيعرفون اليوم تحديداً بأمر هذا العرض الحزين الذي تقدمونه هنا. وهل تعرفون السبب؟ لأنهم على الأرجح قد اخترقونا. هذه طريقة لعبهم القذرة، ولطالما مارسوا هذه اللعبة. أقولها لكم لأنني عملت في شركات أخرى، وبمجرد أن ينتهي هذا الاجتماع سيعرفون ما قيل هنا وما لم يقل وما حدث وما لم يحدث. وسيفركون أياديهم بتلذذ لأن هذه الجلبة التي أثرناها سيعدوننا

مؤشراً على أنه لا وجود لأي اتحاد بيننا، وأننا بالتالي لسنا في
وضعية تسمح لنا بالإبقاء على الإضراب. لهذا، علينا أن نسيطر
على أنفسنا، وأن نظهر لهم أنهم مخطئون وأننا فريق واحد قادر
على مواجهة الصراع، وأننا لن نسلم لهم أذننا بسهولة، أيًا كان ما
سيحدث في الإضراب، وأيًا كانت المدة التي سيستغرقها. هذا كل
شيء يا أصحاب، وشكرًا على إنصاتكم إليّ.

بعد التهليل الذي تلقاه دون خوسيه، هدأت الأمور قليلًا وتمكن
القادة من تقديم تقرير عن نتائج رحلتهم التي لقول الحقيقة كانت
والعدم سواء. لما فرغوا من تقديم التقرير، اتسمت صافرات الإستهجان
التي هاجموهم بها بطابع متوحش إلى درجة اضطرارهم إلى الاستقالة.
بالتالي، وجب إجراء تصويت سريع لاختيار قيادة جديدة.
في مساء اليوم نفسه ظهر على لوح النقابة تكليف مكتوب بالطباشير:

غداً في الحادية عشرة
تصويت لاختيار قيادة جديدة.

تقدمت قائمة مكونة من ستة مرشحين، وكان دون خوسيه سانتوس
واحدًا منهم.

كانت قد مرت بضعة أسابيع على تعارفهما حين ألقى القبض عليهما
معًا لأول مرة في سانتياجو. حينئذ عرف أنخل سالومون أن «خوان ابن
لا أحد»، ليس كنية سنيده، وإنما اسمه الحقيقي. بعدئذ ببضعة أيام،
وهما جالسان في ساحة إحدى قرى الجنوب، في انتظار انتهاء المطر

كي يبدأ عملهما، خطر على باله سؤاله عن الكيفية التي عُمد بها بهذا الاسم.

بمجرد أن بدأ الرجل الضخم يحكي كيف حدث هذا، ندم أنخل سالومون فورًا. إنها قصة كي يقطع المرء أوردته، كما اعتاد أن يقول أبوه، بل أحزن من كل المسرحيات الإذاعية التي تُبث في ساعة القيلولة وتدفع المرء إلى بكاء لترات من الدموع. يكفي قول إن هذا الرجل لم يُولد، وإنما ظهر هكذا! الأمر كما سمعتموه! أدركت رئيسة الممرضات في ذلك اليوم في المستشفى أن قسم التوليد فيه ست نساء انتهين من الولادة وسبعة أطفال سيكون، أحدهم من دون ملابس وعار بالكامل، ولا تزال تغطيه المشيمة، وحجمه أكبر من بقية الأطفال. لم تلد أي من النساء توائم سواء متطابقة أم لا. تحدثت بعض الممرضات الأكثر إيمانًا عن معجزات الروح القدس، فيما ارتكزت فرضية غير المؤمنات على أن هذا الطفل قد وُلد في حمام المستشفى وترك بشكل ما في قسم التوليد. ركضت الممرضات والقابلات عبر المستشفى وهن يصرخن للسؤال عن أهل هذا الطفل. لم يجب أحد. لم يقل أحد: إنه طفلي. لم يُطالب به أحد. حين لزم تسجيله في «السجل المدني»، خطرت للممرضات فكرة تعميده باسم «خوان ابن لا أحد». تركوه فترة في المستشفى، لعل أمه تظهر، أو لعل إحدى الطبيبات أو السكرتيرات أو الممرضات تتشجع وتتبناه. لم يحدث أي من هذا. خفن كلهن منه، فهذا الطفل كبير جدًا. وحينذاك، أرسل إلى دار الأيتام.

لم يرد أنخل سالومون أن يسمعه يحكي قصة حياته في دار الأيتام. كفاه وزاد ما قاله له قبلئذٍ ببضعة أيام حول الرعشة والرغبة في القيء التي يعانيتها كلما سمع كلمتي «صبي الكاهن»، وهذا لأن هاتين الكلمتين جلبتا له دائمًا ذكرى كاهن في دار الأيتام اختاره دائمًا ليكون صبيه،

ومعها أيضًا ذكرى الأشياء التي فعلها معه عقب العظة. كان هذا السبب الرئيسي وراء هروبه وهو في عمر الثانية عشرة، ومنذ ذلك الحين صار الشارع بيته.

قال أنخل سالومون إنه لا بد من إنهاء هذا، وإن كلمة واحدة لا يجب أن تُفسد عليه حياته، وإن أفضل طريقة لطرد هذه الذكرى السيئة من جسده، كأنها روح شريرة، هي تكرارها وتكرارها كأنها تعويذة «مانترا»، أو أن يكررها أحد على مسامعه يوميًا إلى أن تفقد هذه الكلمة كامل معناها ويبطل. ومنذ ذلك اليوم، لم يناده بكلمة «مساعدي» وإنما «صبيي». في الأيام الأولى، ارتعش «خوان ابن لا أحد» كلما سمع الكلمة. بعد مرور بعض الوقت، حين صار يسمعها يوميًا بشكل متكرر، أصبحت الكلمة مرة ثانية مجرد كلمة أو صوت غير مؤذ من الأحرف المتحركة والساكنة.



قبل ظهور المطربة الأوبرالية، كان من المُسلّم به أن يقيم أنخل سالومون في المدن والقرى التي يزورها في أرخص زرائب خنازير وأقذر نُزل يجدها، لأن الحياة الحقيقية، كما اعتاد أن يقول، موجودة هناك بكل فورانها. اعتاد أن يصفها تحديدًا بـ«الواقع الواقعي». وكلما سارت الأمور بشكل جيد وتمكنا من الخروج للاحتفال ليلاً دعا «خوان ابن لا أحد» وبحث عن أعفن الخمارات. لم يدع صبيه لأنه شخص طيب، وإنما أخذه معه لأن العملاق لطالما دافع عنه في شجارات الحانات، وهو شأن تكرر كثيرًا.

لم يُجد الشجار طوال حياته، ولطالما أنهى شجارات طفولته وهو ينزف. مع ذلك، وعلى الرغم من تعرضه للضرب والنزيف، فإنه لم يتوقف عن توجيه اللكمات والانقضاض على خصمه كثور أعشى. لم يستسلم

قط، إلى أن يأتي أحد ويفصل بينه هو وخصمه، أو إلى أن يُصاب الآخر بالإرهاك ويفقد رغبته في الشجار. لهذا احترمه أطفال الحي، إذ علموا أن خصمه لن يخرج سالمًا تمامًا من الشجار، حتى لو خسره سالومون بعد ضرب مبرح.

ذات مرة وهما في إحدى خمارات «كوباييكو» أدرك أنخل سالومون ما يُثيره حضور صبيه. في ذلك اليوم، عشية عيد الفصح، كان قد باع صلبانًا وميداليات كثيرة، إلى درجة انتهاء مخزونه، فاضطر إلى الإرسال لجلب طلبية أخرى من سانتياجو. حقق مكاسب كبيرة إلى درجة أنه شعر لأول مرة بالكرم وأخذ معه «خوان ابن لا أحد» ليحتفل. لم ير أنخل سالومون صبيه حتى تلك اللحظة إلا كحمار شيال للأحمال.

اسم الخمارة التي دخلها «حيث يموت الشجعان»، واشتعلت كما النار حينذاك بسكارى صارخين وسكارى مُزعجين وسكارى مشاكسين، ونحو منتصف الليل، بدأ أحد رواد الخمارة، الأكثر ثملًا وتبجحًا بينهم -وهو رجل له شارب كثّ وعنق ثور ووجه دامٍ وتباهى طوال الوقت بأنه أفضل سائق شاحنات في البلاد- بالتحديق إلى أنخل سالومون. لم يرفع بصره من عليه من مكانه في الطاولة الواقعة في الركن. فجأة، ومن دون أي مقدمات، وقف وسار وهو يترنح في اتجاه المائدة الكبيرة التي استند إليها هو وصبيه. بينما يلهث كثور، ومن دون أن يتوقف عن النظر إليه، اقترب منه إلى درجة أنه أوشك على ملامسته بأنفه.

سأله فيما يسيل لعابه:

- أأنت أنت الدجال صاحب الشعر الهندي؟ أأنت أنت ابن العاهرة الذي يخدع النساء العجائز بخلطاته السحرية وصلبانه الإعجازية. قل لي يا روح أمك، أنت هو، أليس كذلك؟

حين أمسك السكير سالومون من ياقته لينطحه برأسه، جاء رد فعل «خوان ابن لا أحد»، فوقف إلى جواره قافزاً، ومن دون أن يحتاج إلى قول كلمة واحدة، أفلته السكير. تراجع وهو يسب ويلعن، حين رآه يضم قبضتيه ويقف في وضعية الملاكمة.

منذ تلك اللحظة، صار «خوان ابن لا أحد» حارسه الشخصي أيضاً، بخلاف كونه صبيه وسنيده ومرساله. ومع أنه حتى لحظتذاك لم يقدم له راتباً، وإنما فقط الطعام ومكان للنوم (وهو شيء شكره عليه صبيه كثيراً)، بدأ منذ ذلك اليوم يعطيه أيضاً بعضاً من المال ليضعه في جيبه الشخصي.

تتوجه إيبا لا سكالاً إلى السيارة بعد الاجتماع، لأنها تبينت أن رفيقي رحلتها لم يأتيا بحثاً عنها. تثق بصورة شبه كاملة بأن الشرطة العسكرية قد أوقفتها. السيارة كما هي وكل شيء في مكانه، من دون أي نقصان كما يبدو. تتنهد:

- يحدث هذا في البامبا فحسب!

حين تفتح الدرج الذي يحتفظ فيه كل منهم ببطاقته. تجد بطاقتها فحسب، ما يؤكد شكوكها.

تفتح صندوق السيارة، وتبحث في حقيبتها، وتخرج بضع وثائق وتذهب مباشرة إلى القسم. تطلب في قاعة الانتظار التحدث مع الضابط المسؤول. يرافقونها إلى «فلفل». حين يرى المطربة الأوبرالية، يسألها السمين وهو يبتسم:

- هل أتيت لتسلمي نفسك يا شقراء؟

قالت بحزم:

- أنا محاميتهما.

ولم تكد تمر نصف الساعة، حتى جرى الإفراج عن الرجلين.

يقول أنخل سالومون قبل أن يحييها:

- بأي طريقة ملعونة فعلتها؟

- أنا ساحرة.

- لا تمزحي يا «لوالب»! كيف نجحت؟

تقول إنها تعرف أمورًا عن القانون وإن اعتقالهما لم يكن قانونيًا على الإطلاق. يجيبها أنخل سالومون بأن أي شخص قادر على معرفة «أمر عن القانون»، وأن أفراد الشرطة العسكرية لن يستمعوا إليهم لسبب مثل هذا، وخصوصًا إن كانوا مثل «فلفل».

تنظر إيبا لا سكاللا إلى زعيمها ثم إلى صبيه. تقول: «حسنًا. يحق لكما أن تعرفا». تحكي أنها منذ عام حصلت على ليسانس حقوق، لا لشيء إلا لإرضاء والدها، لكن من دون أن تتوقف عن السفر والغناء. درست عامين في جامعة كومبلوتينسي في مدريد وعامين في جامعة بوينوس آيرس الوطنية، وأنهت مسيرتها في جامعة تشيلي، حيث حصلت على الليسانس. بهذه الطريقة، تحمل رخصة جديدة بصفتها محامية، مع أنها لا تمارس المهنة. كذلك، تتمتع أيضًا بعضوية نقابة المحامين في تشيلي.

- كيف تعاملت مع «فلفل»؟ خنقته بالقوانين واللوائح والمواد الدستورية التي لم يعرف أنها موجودة أصلًا. حين شعر بأنه محاصر، أدخلني مكتبًا مجاورًا وأجرى مكالمة هاتفية، وبسبب النبذة الخائفة التي تحدث بها، أعتقد أنه تحدث مع ضابط بنجوم كثيرة. لا بد أنهم أصدروا من الجانب الآخر أمرًا بالإفراج عنكما.

يقول أنخل سالومون:

- لا بد أنه اتصل بالمدير، الـ«جرينجو»، الذي استجوبني ويعامل الشرطة العسكرية كأنهم أتباعه.

تقول إيبا لا سكالاً:

- إن كانوا يتلقون أوامرهم منه، فهذه ماهيتهم.

- وما الذي قاله «فلفل»؟ لا بد أنه صار مثل الهريسة!

يسأل «خوان ابن لا أحد»:

- ما هي الهريسة؟

ليلاً، عقب تناول العشاء، في كازينو العمال (الذي لم يريا فيه خوسيه سانتوس) يذهب الرجلان للاحتفال بنيل حريتهما في المقصف. تفضل المطربة الأوبرالية أن تنام. عرضت عليها السيدة إرمينيا أن تقيم لديها في كل الأيام التي ستمكثها في «تريكولور»، ولا تريد أن تستغل سخاءها بالوصول في وقت متأخر فيما تفوح منها رائحة الجعة. فيوصلها الرجلان إلى النقابة وهما في طريقهما إلى المقصف.

المقصف ملاّن. تتردد في لحظة دخولهما أغنية ريفية لأنطونيو أجيلار ويعلو صوتهما صخب السكارى: «والسرير من حجر ورأسه من حجر...».

يقول أنخل سالومون لصبيه:

- هذه الأغنية كُتبت لك! هل تتذكر؟

لا يفهم «خوان ابن لا أحد» قصده.

يقتربان من إحدى موائد الزنك. حين يطلبان جعتهما الخامسة، يقترب منهما عجوز نحيف أشيب ضئيل الحجم، ويرتدي بدلة بستره ومتكلف جدّاً. يعتقد أنخل سالومون أنه رآه سلفاً.

يُقدم الرجل الضئيل نفسه باسم خيلتبرتو روساس وبصفته شماس المستوطنة. يقول لأنخل سالومون إنه سمعه وهو يتحدث في الساحة في ذلك اليوم، وإن كلماته استقرت في أعماق قلبه.

- خصوصًا حين أقسمت بأرمدة أم حضرتك على صحة شيء ما لا أتذكره. جعلني هذا أبكي، لأنني أيضًا فقدت أُمي الحبيبة. من أي شيء ماتت يا دون أنخل؟

يتساءل أنخل سالومون، وهو ثمل نوعًا ما فيما يوشك على الضحك، من أين ظهر هذا العجوز المتصنع.
يقول:

- اعذرني يا حضرة الشماس، لكنني أتمتع وأنا في الأربعين بميزة أن أُمي الحبيبة لا تزال حية. لو رأيته، فستعرف أن العجوز أمامها عمر طويل، على الرغم من كل هذه الأمراض التي تخرعها لنفسها.

- إذن، لماذا أقسمت بأرمدتها؟
يقول بتأفف وهو مندهش من أن هذا العجوز لا يعرف نكتة أقدم من ذاته شخصيًا:

- لأنها حريقة سجائر!
ينظر إليه العجوز بوجه يعلوه الغباء. هل سينفجر في البكاء أم سيتغوط على نفسه من الضحك؟ ما يفعله في النهاية هو الانفجار ضحكًا إلى أن تسيل دموعه، وبينما يضحك ويبكي، يحاول أن يقول له إنه لا يصح استخدام الأمهات في أشياء كهذه يا مغفل!
يضيف العجوز بصوت منغم كالناي:

- حضرتك مهرطق مدان! لكن لا بد من الاعتراف بأنها لعبة حلوة!
لم أضحك هكذا قط. قل لي شيئاً يا دون أنخل، بخلاف شغل
الأعاجيب، ما هي مهنتك الأخرى؟

- لا شيء آخر يا سيدي!

- ومن أين حضرتكما؟

- من سانتياجو.

- وما الذي تفعلانه هنا في زمن الإضراب؟

- لا شيء. ننتظر فقط إصلاح سيارتنا.

- علمت أنهم حبسوك. هل قضيت وقتاً سيئاً؟

- المعتاد.

- هل تعرف من استجوبك؟

يرفع أنخل سالومون كتفيه. إنها أسئلة كثيرة. أيضاً، يدرك أن
العجوز ضئيل الحجم ليس ثملاً كما يتظاهر. كيف يعرف هذا العجوز
الملعون بشأن الاستجواب؟ أين رآه قبلئذ؟

حين يخرج من المقصف، يقول أنخل سالومون لصبيه إن السيارة
كلها له لينام فيها، وإنه سيصل صباحاً. يمضي بحثاً عن عنوان الأرملة.
يقع المنزل ضمن بيوت العمال في آخر شوارع المعسكر، ومن ورائه
تمتد البامبا. ينظر إلى الساعة. إنها الثانية والنصف صباحاً.

يقول لنفسه بوقاحة:

- حسنًا.. لقد قالت في أي ساعة تروقني.

تستيقظ إيبا لا سكالا يوم الأربعاء -يوم اختيار القادة الجدد- وهي تشعر بالسعادة. تنهض من قفزة واحدة وتدخل تحت الدش وهي تدندن أغنية التصقت بلسانها: «واحد من كثيرين»، لثيثليا، وهي مطربة بدأت تلمع في السماء الفنية الوطنية، كما يقول مذيعو الراديو.

وهذا لأن إرمي (وهو الاسم الذي طلبت دونيا إرمينيا أن تُناديها به) أخرجت في الليلة السابقة مع سجائرها وشراب المتهمة، مشغل الأسطوانات لسماع بعض أغنيات «الموجة الجديدة»، إلى درجة أنهما رقصا التويست.

توقعت إيبا لا سكالا أن الرجلين لن يأتيا بحثاً عنها قبل موعد الغداء، وأنهما على الأرجح ينامان وهما متكوران في السيارة، ولهذا مكثت في النقابة لحضور التصويت المقرر في الحادية عشرة، ومع أنها التاسعة، فقد بدأ بعض الناس ينتظرون.

على مدار تينك الليلتين، حكّت لها إرمي عما يحدث بين القادة ومحامي الشركة.

- يستخدم هؤلاء الديدان العاصميون مصاصو الدماء لغتهم القانونية كدهاسة لتسويتهم بالأرض. ولا داعي لذكر أن المعاملة التي يتلقونها منهم كأنها من مالك أرض لمستأجر.

يبدأ التصويت في موعده.

كل الأمور هادئة.

قبل الواحدة، اختير القادة الثلاثة. بعدئذٍ، فيما بينهم، انتخبوا دون خوسيه لترأس النقابة. بعد توليه المنصب، يصعد الرئيس الجديد على المنصة ليشكرهم على الثقة التي أودعوها فيه وليقول بعض الكلمات عن كيفية وطريقة إدارته. حين يفرغ الرئيس النقابي الجديد من خطابه

القصير، ترفع إيبا لا سكالاً، الجالسة إلى جوار الباب المفضي إلى إحدى غرف إرمي، يدها أمام اندهاش الجميع لتطلب الكلمة.

يتعرف عليها دون خوسيه سانتوس فوراً، وهو ما حدث مع الكثير من الحاضرين الذين بدؤوا يهتفون:

- فلتغني! أطربينا!

تنتظر أن تصمت الأصوات. احتاج الرئيس الجديد إلى رفع يده فحسب كي يتحقق المراد. تبدأ إيبا لا سكالاً حديثها بالاعتذار عن تدخلها، لكن الأمر وما فيه أنها تعتقد أنه ما إذا كان أصحاب الشركة قد وكلوا ثلاثة محامين من العاصمة -وهم مثل ثلاثة كلاب روتفايلر كما تنامي إلى علمها- فمن المهم جداً أن يفعلوا الشيء نفسه، حتى وإن تعاقدوا مع محام واحد فحسب كي يقدم إليهم المشورة أمام العاصميين، لأنه سيفهم مصطلحاتهم ويتحدث معهم ويرد عليهم بلغتهم نفسها، أو بمعنى أصح، سيتعارك معهم على أرضهم.

يقول خوسيه سانتوس إن هذا يبدو جميلاً جداً. مع ذلك، فبخلاف أنهم ليس لديهم موارد كافية لسداد نفقاتهم، فإن محامي أنتوفاجاستا يخافون مواجهة العاصميين.

تقول وهي تنفخ صدرها:

- أنا محامية، وأعرض عليكم خدماتي، ومشورتي، وتمثيلكم أمام هؤلاء المحامين من سانتياجو.

ينفجر بعضهم ضحكاً. يرفع الرئيس يده مرة ثانية ويطلب التحلي بالاحترام، فهو يعرف السيدة، وتحظى بكامل ثقته. «فلنستمع إليها!»

تقول إيبا لا سكالاً إنها لا بد أن تتحلى بالأمانة وتخبرهم أنها لم تمارس المحاماة، مع أنها حائزة على رخصة مزاولةها، وهذا لأنها كرسَتْ وقتها كله للغناء. لكن، توجد مرة أولى لكل شيء.

- وأود أن أبدأ بالدفاع عن قضية طيبة، مثل قضية حضراتكم. جربوني. لن تخسروا شيئاً.

يطلب عامل الكلمة ويقول إنه يُصدق المغنية، فقد ألقت الشرطة العسكرية الليلة الماضية القبض على رفيقي سفرها وذهبت إلى القسم وواجهت «فلفل» بمفردها.

- حكى لي الأمر ابن عمومتي الذي احتجزوه مدة ساعتين في قاعة الانتظار، حيث رأى وسمع كل شيء، والآنسة الموجودة أمامنا، أفحمت المغفل «فلفل» في أقل من نصف ساعة بالقوانين واللوائح، وتمكنت من الإفراج عن صديقها.

يُسمع صوت يأتي من نهاية القاعة:

- وكَم ستكلفنا هذه المِنة؟

تقول:

- لا شيء. لن أقبض شيئاً.

ستحكي إيبا لا سكالاً لاحقاً لزعيمها:

- أعرف أنها كانت نوبة من الجرأة المتفجرة، وبادرة تجاسر

تضامنية غير واعية تقريباً، لكنها وُلدت داخل أحشائي.

فيسأل «خوان ابن لا أحد»:

- ما هي الأحشاء؟

تسأل إيبا لا سكالاً:

- ما هو موعد الاجتماع المقبل؟

تتجاوز مع القادة الذين جرى اختيارهم مؤخرًا.

يقول دون خوسيه سانتوس:

- لم يتحدد موعد أي اجتماع حتى الآن.

تشير إيبا لا سكالاً:

- ستغدو استراتيجية جيدة أن ننتظر أن يطلبوا هم الاجتماع، لا نحن. ليشعروا أننا لسنا في عجلة. في تلك الأثناء، وكى نثبت لهم أننا مستعدون وجاهزون لمواجهة عام من الإضراب، إن كانت هذه هي رغبتهم، فما رأي حضراتكم أن نبدأ في التخطيط لبعض الفعاليات؟

يجيبها دون خوسيه:

- جميل، بالطبع. بدأ بعض الناس ينظمون بطولات في ألعاب الألواح، واجتمعت بعض النساء لبدء فعاليات طبخ مشتركة. تضيف:

- قد ننظم سهرات فنية يُغني ويرقص ويمثل فيها العمال ونسائهم وأطفالهم، وكل هذا لإبقاء معنوياتهم في قمته، ولكيلا ينطفئ حماس المقاتلين الذي يلمع في أعينهم. سأغني في السهرة الأولى لإثارة حماس الناس كي يشتركوا في الفعاليات التالية. آه، ولا بد أن رفيقي سيودان أن يقدم فقرتين، واحدة لكل منهما.

قال دون خوسيه بحماس إنه لا بد من عقد السهرات في السينما، لأن هذه القاعة صغيرة جدًا.

يصل أنخل سالومون في الواحدة ظهرًا إلى السيارة. تبين أن الأرملة، وهي منحدره من عرق «أيمارا»، بمثابة مقاتلة كومانشية⁽¹⁾ في الفراش. لم تسمح له بالنوم طوال الليل، ولم يغلق عينه إلا حين شقشق الفجر.

يسأله صبيه، الذي انتظره بصبر للذهاب إلى الغداء، لماذا يبدو بمثل هذا الشحوب، فيقول هو شيئًا عن حلبة بأربع زوايا و«كومانشية» مشتعلة ويضحك. يبتسم «خوان ابن لا أحد» أيضًا، مع أنه لا يعرف السبب.

يمران في الواحدة والنصف لمرافقة إيبا لا سكاللا. تقدمهما لرئيس النقابة الجديد. يهنئه الرجلان بمعانقته.

يمزح أنخل سالومون:

- أتمنى ألا تكون نلتها بالصوت العالي.

يقول دون خوسيه:

- على الإطلاق!

يقول أنخل سالومون:

- يجب توفير الكلام والضغط العالي للصدمات مع محامي الشركة.

- بالضبط يا صديقي. الآن ستختلف الأمور. لدينا محامية ستقدم لنا

المشورة، وهي ماهرة جدًا. أعتقد أنها أنقذت رجلين من مخالب «فلفل» نفسها.

ينظر أنخل سالومون و«خوان ابن لا أحد» إلى المطربة الأوبرالية.

يُضيف دون خوسيه:

(1) نسبة إلى هنود الكومانشي، وهم سكان أصليون في أمريكا اللاتينية تميزوا بالضراوة الشديدة في القتال. (المترجم).

- ودعاني أقدم لكما الشكر. قالت لي الآنسة إيبا للتو إن حضرتكما لن تمانعا إن شاركتما في أي فقرة في السهرة الثقافية التي سنُحييها.

حينئذٍ، ينظر الرجلان مرة ثانية إلى إيبا.

بينما يمضون إلى الكازينو، تتحدث إيبا معهما عن السهرة، فيظل أنخل سالومون صامتًا وهو يقطب جبينه.

بالنسبة إلى «خوان ابن لا أحد»، فهو لم يفهم شيئًا.

يدخلون الكازينو معًا. في هذه المرة، لا ينتبه أحد إلى إيبا. يستقبل الرئيس النقابي الجديد انفجارًا من التصفيق وصيحات التأييد. يُحيي الجميع، واحدًا واحدًا، إلى أن تُحيط به مجموعة من عمال السكة، زملاء عمله.

حين يجلسون إلى واحدة من الموائد الخاوية، يأخذ سالومون أدوات المائدة، وبينما يمسك بالسكين في يده، يؤنب المطربة الأوبرالية:

- لماذا لم تأخذي رأيي قبل أن تمنحيني دور مهرج السهرة؟

تمسك هي الأخرى سكينها وتقول إنها فعلت هذا لأنها كانت على يقين من أنهما سيقبلان.

- ولماذا كل هذا اليقين؟

- أولاً، لأنها قضية جيدة، وثانياً لأنكما قد تقدران على المسرح على فعل أكثر ما يروقكما.

- وما الذي سيتحتم عليّ فعله؟

- سترتكز مشاركتك يا زعامة على تقديم دردشة حرة، وأنا أعرف أنك ستشعر معها كأنك مرتاح في بيتك. هل تعرف لماذا؟ لأنك متيم إلى حد المرض بانتشاء المسرح؛ بمعنى أن أقصى درجات المتعة لديك هي أن تُرى وأن تُسمع، والمسرح هو المكان المثالي لشخص مثل حضرتك.

تمضي إيبا لا سكالاً وهي تشير الآن بالسكين إلى «خوان ابن لا أحد»:
- بالنسبة إلى صبيك، فسيشارك في مصارعات ذراعية. مع أن الكل يراه مهذباً ولا يميل إلى الضجيج، لكنه في نهاية المطاف مثل كل ضخام الجثة الذين إن لاحت لهم الفرصة، يروقه إظهار مدى قوتهم، والمصارعات الذراعية هي أفضل شيء لإظهار القوة.
يسأل «خوان ابن لا أحد»:

- ما هي المصارعات «الذراعية»؟

تقول إيبا لا سكالاً فيما ترسم ابتسامة ساخرة على شفيتها:
- ثمة شيء آخر. سنقدم صبيك باسم «العلاق الحديدي، أقوى رجل في المنطقة». وحضرتك، كيف تريد أن نقدمك؟

على الرغم من انعدام الراحة الذي يصاحب النوم في السيارة، يستيقظ أنخل سالومون في اليوم التالي مسروراً. تبدو كأنها إحدى حالات السرور المجانية التي تُهدى إلينا الحياة. لكن لا، فما يثير حماسه هي تلك النسمة الخفيفة المنعشة التي تتسلل من فتحات سيارة «فورد إيه»، موديل 1927. حين ينزل من السيارة يجد السماء مُغلقة بغيوم بيضاء صغيرة تُخفف من حرارة الجو. يتأهب بسعادة شديدة وهو يمدد جسده بصورة تُقطع كل مفاصله.

يشعر برغبة في التصفير.

لا يزال «خوان ابن لا أحد» نائمًا. إنها الثامنة صباحًا. في تلك الساعة، يدخل الناس ويخرجون من «الجمعية الاستهلاكية»، وأغلبهم من النساء. يُخرج منشقة من حقيبته، فيما يلمس أحد ما كتفه. إنها زينوبيا ماريا، الأرملة.

- أهلاً يا أنخليتو. ما الذي تفعله؟

- أستعد للذهاب إلى النقابة للاستحمام.

تلمع عينا الأرملة.

- ولماذا لا تأتي إذن إلى بيتي لتستحم، بينما أعد لك إفطارًا شهياً. اشتريت الخبز وهو لا يزال ساخناً. انظر. المسه.

- ليست فكرة سيئة.

يقول أنخل سالومون عبارته وينظر إلى صبيه لإخباره، لكنه يجده نائمًا كرجل مبارك. يتركه وينام ويمضي معها.

يعرف أنخل سالومون القليل، أو لا شيء تقريبًا عن الأرملة، فالبوليفية ليست امرأة ثرثرة. لا تتحدث عن زوجها الراحل، على سبيل المثال، أو عن عائلتها. ليست امرأة أقوال، بل أفعال. القليل الذي يعرفه أنها من «سانتا كروث دي لا سيرا»، وهذا مرد بشرتها البيضاء شبه الحليبية. تهوى المسرحيات الإذاعية وترتاد الكنيسة بانتظام، وبمثابة مقاتلة كومانشية في الفراش.

عيبها الوحيد، كما فكر بعد أول ليلة، أنها يروقها لمس شعره. قال لها: لا أطيق أن يلمسوا شعري، لكنها لم تفهم، وظلت تلمسه بين الحين والآخر وتداعبه، بل وتشده منه كلما انتشت.

في ذلك الخميس، لم يظهر أنخل سالومون طوال النهار في النقابة. بحث عنه صبيه طوال الصباح من دون أي نتيجة. حين لم يصل في وقت الغداء إلى الكازينو، شعرت إيبا لا سكالاً بالقلق، وطلبت من خوانيتو أن يرافقها إلى الحجز، فربما أقدم «فلفل» على.. لكنها لم تجده هناك.



بمجرد دخوله بيت الأرملة، بدأ الأمير الإنكاوي يشعر كأنه يعامل بصفته أميراً إنكاوياً بالفعل. بينما يتحمم، تدخل الأرملة الحمام بحجة جلب المزيد من المناشف وتُكرم ضيافته بفمها بصورة لا تصدر فعلاً إلا من مقاتلة كومانشية.

بعد الإفطار، يمرحان معاً حتى انتصاف اليوم. حينذاك، وبسبب حر الأفران الذي ينصب صباً من أسقف الزنك التي أحمتها الشمس، يتصبب الاثنان عرقاً ثخيناً يبدو معها كأنه عقار دوائي. يشق على الأرملة أن تفلته. تنهض وهي عارية، فيما يلعب جسدها من العرق، لتحضر شيئاً ليأكله. يجلسان إلى المائدة من دون ملابس في صمت. لا يتحدث أي منهما. لا يودان أن يكسرا هالة السحر المنهكة التي تحوطهما. بعد تناول الغداء، يعودان في صمت إلى غرفة النوم.

في السادسة مساءً، يفلت أنخل سالومون من ساقبي الأرملة الدبقتين البيضاوين ويبدأ في ارتداء ملابسه. تدعوه إلى المبيت معها. يقول إن لديه أموراً ليفعلها، ومن دون أن يقدم مزيداً من التفسيرات يرحل.

وهو في طريقه إلى النقابة، يشعر بإحساس منهك مفاده أنه وقع في شباك شيء ما مثل العنكبوت. مسألة الأرملة هذه صارت تبدو معقدة. لقد بدأت المرأة تُلقي تلميحات خطيرة: «سيكون جميلاً يا أنخليتو أن

نعيش معًا. ما رأي جنابك؟». «أنا متأكدة من أنني قد أحببتك في حياة أخرى»، وفي الصباح ذاته، في واحدة من حالات انتشائها العالية، خرجت من أعماق أعماق حناياها عبارة: «أحبك يا أنخليتو، أعشقتك!».

يصل أنخل سالومون إلى النقابة وهو مقتنع بأنه لو أراد أن يظل «الأمير الإنكاوي»، و«دجال الأعاجيب الجوال»، الذي يمضي حيث تقوده الرياح، فعليه أن يبدأ في الابتعاد عن نطاق الأرملة.



تنعقد السهرة يوم الجمعة. حضر كل أهالي «تريكولور» إلى السينما. يتولى أستاذ الإسبانية في المدرسة، ألفونسو لونا، مسؤولية تقديم الحفل الذي يبدأ بغناء لطفلة في الثانية عشرة حضرت إلى النقابة قبلئذٍ بساعات وقالت إنها تريد أن تغني. قالت تحديدًا: «أنا أغني أغنيات ريفية». جربوها وغنت بشكل جيد، إلى درجة أنهم سمحوا لها بافتتاح السهرة. قدمها الأستاذ بصفتها ملكة الأغاني الريفية. كان من المفترض أن تغني أغنية واحدة، لكن الجمهور لم يسمح برحيلها وانتهى بها المطاف بغناء ثلاث أغنيات: «رسائل مقيدة» و«لا كالاندريا» و«الابن العاق». في النهاية، وقفوا وصفقوا لها.

اسمها جوادالوبي ديل كارمن⁽¹⁾.

قدم الأستاذ كل فقرة كما يفعل في فقرات الطابور الصباحي في المدرسة، أي وهو يحاول أن يبسط كل الأمور لأصغر التلاميذ:

- سيداتي وسادتي، الآن سنقدم فقرة بدنية وثقافية، وحين أقول بدنية، فإنني أقصد جسم الإنسان. مفهوم؟ وحين أقول ثقافية، فأنا أقصد الثقافة. أنتم تعرفون بالفعل. لم يسبق أن شهدت

(1) مطربة تشيلية حقيقية من مواليد 1931 وتوفيت في 1987. (المترجم).

«تريكلور» شيئاً كهذا، لكنه وصل إلينا مباشرة من العاصمة،
أو بالأصح من سانتياجو دي تشيلي. أترك حضراتكم مع «الرجل
الحديدي»، بطل المصارعة الذراعية، والمصارعة الذراعية هي..
حسنًا. سترونها فورًا. والآن مع «الرجل الحديدي»!

يظهر «خوان ابن لا أحد» وهو يرتدي قميصًا رياضيًا ويهرول،
كأبطال الملاكمة. لا ديكور فوق خشبة المسرح سوى مائدة ومقعدين،
وهما مائدة ومقعدان بالحجم الطبيعي، لكن لدى دخوله تتحول إلى
قطع أثاث قزمة. ينتظره وراء مقعد منهما، صف مستقيم من خمسة
رجال أقوياء عاري الصدر اشتركوا في الحدث لمواجهة العاصمي:
أربعة من شيالي الرواسب وحمال للمتفجرات، وهما اثنان من أثقل مهام
عملية إنتاج الملح الصخري، ويحتاجان إلى رجال شديدي البأس.

قبل خروجه إلى خشبة المسرح، اعترف «خوان ابن لا أحد» لإيبا لا
سكالاً بأنه لم يمارس قط مصارعة الذراعين.

قالت له وهي تقبله في وجنته:

- لكل شيء مرة أولى يا صديقي!

اندهش «خوان ابن لا أحد». لم يشعر قط بإحساس قبلة من امرأة.
بعد عشرين دقيقة، ومن دون مجهود كبير، تمكن «الرجل الحديدي»
من التغلب على منافسيه الخمسة، ووسط تصفيق وتهليل الجمهور،
لم يرفع يده إلى السماء أو يقفز مثل الأبطال، بل توجه إلى خصومه
وحياهم، كأنه يعتذر، وبسبب هذه الإيماءة العفوية، استحق تصفيقًا آخر
وحب الجمهور.

ولأن الجمهور ذهب إلى السهرة تحديداً لمشاهدة المطربة الأوبرالية والاستماع إليها، سرت دمدمة إحباط بين الجمهور حين أعلن أستاذ المدرسة:

- السيدات والسادة، سأترك حضراتكم في الفقرة الثانية، مع أنخل سالومون، الأمير الإنكاوي بجلالة قدره، الخطيب المحترف، الذي كُرم وكُوفئ بالوسام الذهبي لـ «أكاديمية الصלבان الوردية» في البرازيل. لاحقاً، سأشرح لكم ماهية «الصלבان الوردية».

يعتلي أنخل سالومون خشبة المسرح برباطة جأش مفكري التاريخ العظماء. ينتظر انتهاء الدمدمة وهو ينظر إلى الجمهور بثبات، من دون أن يتحدث، كأنه يُنومهم مغناطيسياً. حين يصمت الجمهور ويبدأ ترقبه، يقول إنه اختار الوقوع في الغرام موضوعاً لحديثه اليوم، لأنه موضوع شامل إنسانياً. يبدأ بنبرة وادعة، شبه حميمية، كأنه يتلو عليهم قصائد، في عرض دوافع، ومفاهيم، ومنطق، ولا منطق لماذا لا يعد الوقوع في الغرام جيداً وجميلاً وصحياً فحسب، بل أفضل ما يمكن أن يمر به الإنسان. يلجأ إلى الشعر والملاحم، ليصدق على كلامه، فيأتي على ذكر «نشيد الأنشاد»، ودانتي وحبه السامي لبياتريز. يُبدع في خلق الاستعارات والمُثل. يقول إن العاشقين يمضون عبر الحياة كسفينة تعبر الأطلسي بكل أبهتها، وإنهم حين يضحكون ترفرف أرواحهم حول وجوههم. بعد خمس عشرة دقيقة، يسحر كلامه الخلاب كل من في القاعة، فيتنهّدون وكلهم قناعة بأن الوقوع في الغرام هو المجد بعينه. حينئذٍ، وبعد انتفاء كل مقومات الاستمرارية في حديثه، يُغير تعبيرات وجهه ونبرة صوته، ويعترف بأن كل ما قاله حتى الآن كذب مطلق، ويقول لهم إنه سيخبرهم الآن بالحقيقة، فيبدأ، بالقناعة نفسها التي مجد بها الغرام، في ذمه، والوعظ بأن الغرام مشؤوم، وإن مستشفيات

المجانين ملأى بالعاشقين. يعرض أسبابًا تترك جمهوره مندهشًا، ومنها أن السم الذي قتل روميو وجولييت على سبيل المثال لم يكن إلا غرامهما نفسه. إذا كان قد تمكن في ربع الساعة من إقناعهم بعظمة الغرام، فالآن وفي أقل من ربع الساعة أيضًا، أقنعتهم مغناطيسية كلامه الذي يسلب العقول، بالنقيض تمامًا؛ بأن الغرام، كما يقول أورتيجا إي جاسيت، حالة بؤس ذهني يضيق فيها وعينا، بل يزداد فقرًا ويتجمد. إنها فقرة تستحق أن يُضرب بها المثل.

هذا ما تشعر به إيبا لا سكالا التي اندهشت مما فعله زعيمها للتو ومن قدرته على توظيف الكلمات. تنتظره بين الكواليس لسؤاله ما إذا كان يعرف معنى كلمة «صوفي»، وما قد يفعله بالكلمات. ينظر إليها أنخل سالومون مبتسمًا:

- وما الذي تحسبين أنني فعلته للتو؟

لاحقًا، حين تغني إيبا لا سكالا أغانيها الأوبرالية يشعر جانب كبير من الجمهور أن رؤوسهم على وشك أن تطق: هل الوقوع في الغرام هو الرضا بعينه أم كارثة؟

ولد أنخل سالومون ليصبح دجالًا ثرثارًا بائعًا للأعاجيب، فبعد مرور ستة أشهر على ولادته، نطق كلمته الأولى. لم تكن «ماما» ولا «بابا»، وكلاهما على الرغم من صغر سنه كانت لتغدو طبيعية، فقد نطق كلمة أكثر تعقيدًا من ثلاثة مقاطع: «طنجرة».

لا وجود لسر باطني في هذا، إذ إن أباه كان بائعًا لأواني الطبخ، و«طنجرة» كانت من أكثر الكلمات التي تردت في البيت. بدأ أبوه، في ظل حماسه، يُعلمه أسماء كل قطعة من الأواني التي يبيعها. حين

بلغ سنه عشرة أشهر، صار الطفل يتقن بشكل تام تكرار كلمات مثل «طنجرة»، و«قدر»، و«حلة»، و«إبريق»، و«طاسة»، و«مصفاة»، ضمن كلمات أخرى. حين بلغ عمره عامًا، صار قادرًا على إلقاء بعض قصائد جابريلا ميسترال التي درستها أختاه في المدرسة. وحين صار عمره عامين، تحدث كأن عمره خمس سنوات، وفي الخامسة تعلم القراءة والكتابة. وفي أحد الأيام، حين اكتشف بين خردة مستودع أبيه صندوقًا ملآنَ بمجلات «أوكيه»، أدمن القراءة.

باع أبوه منتجاته في الشارع. سماه البعض «تاجر التوافه». اعتاد أن يمضي عبر شوارع قرى «تيموكو» وهو يجر وراءه عربة عليها كل أشكال أواني المطبخ. عرفته كل الأهالي من النساء، فسوته الغليظ الأجش كان يُمكن التعرف عليه من على بعد مربعين سكنيين.

لم يكن أنخل سالومون قد أكمل عامه الرابع بعد حين أخذه أبوه لأول مرة على العربة. كانت أمه مريضة. (لطالما قضت أمه المسكينة وقتًا على الفراش أكثر من وقتها وهي واقفة) بالنسبة إلى شقيقتيه، فكانتا في المدرسة. صار الأب، من فرط نجاح المبيعات في ذلك اليوم، ينظر إلى ابنه بصفته تميمة، وبدأ يأخذه معه يوميًا.

في عمر السادسة، ومن كثرة رؤيته لأبيه وهو يبيع لنسوة القرى، صار أنخل سالومون يعرف قيمة كل ورقة أو عملة معدنية. بينما يجلس بين الأواني، وهو يتلقى دروسًا من أبيه، لاحظ ما تشتريه النسوة وعرف تكلفة كل إناء، وقيمة المبلغ المدفوع، والباقي. وجب على الطفل أن ينتبه إلى كل هذا، إذ اعتاد أبوه أن يسأله في أي لحظة عما اشترته تلك السيدة ذات النظارة، أو كم دفعت له هذه السيدة العجوز ذات الرداء الأخضر، أو ما قيمة الباقي الذي رده إلى تلك الشابة الجميلة.

بهذه الطريقة، وفي عمر السابعة، صار أنخل سالومون، أو سالمونثيتو كما نادته أمه المصابة بوسواس المرض، ماهرًا في الحساب. باع وتلقى المال وأعاد الباقي بمهارة تاجر تركي عجوز، بل إنه، وبمباركة من أبيه، ابتكر حيلتين لإعادة الباقي بشكل أقل من المطلوب. كان قد وصل إلى سن المدرسة، لكن أباه قرر أن هذا سيكون تبديدًا للوقت، فقد عرف القراءة والكتابة وأجاد إلى أقصى درجة العمليات الحسابية. بهذه الطريقة، ظل يرافقه إلى أن وصل إلى سن البلوغ.

لطالما قال أنخل سالومون إن القراءة ليست الشيء الوحيد الذي زرع داخله شغفه بالكلمات، بل أيضًا وبالصورة نفسها تعامله طوال تلك السنوات مع نساء الأحياء الفقيرة الجسورات اللاتي هن مزيج بين اللبؤات وبيغاوات الـ«كاكتوا». لطالما سمعهن وهن يتزاحمن حول عربية جر أبيه، بفكوكهن التي سقطت أسنانها وشعرهن الأشعث وأعينهن المنتفخة، فيما يتحدثن ويتحاورن ويشتمن، ويدعين ويناقشن. لطالما قال إن اللغة العفوية لهؤلاء النساء، التي تخلو من أي لمسة تكلف، هي ما أثرت مخزونه من فصاحة الكلام، بتطعيمها بمفاهيم الإهانة والمكر والخداع والكذب.

وكان الكذب هو ما ينضح من مسام أنخل سالومون حين هجر عربية جر أبيه، بعد أن وصل إلى سن البلوغ، وقرر ترك البيت ليذهب ويغزو العاصمة.

تبدأ مجموعة من النساء، في صباح السبت، في إعداد أول طبخة مشتركة، أمام النقابة. من دون الاحتياج إلى أي مساعدة من الرجال أو حتى طلبها منهم، إذ يحملن بعضًا من قضبان السكة ويكسرنها بالفؤوس والمعاول، ويشعلن النار كي تغلي القدور الملحمية المصنوعة

من الحديد المصهور. يطبخن في ذلك اليوم الأول طبق الفاصوليا البروليتارية وحبوب الذرة، مع تزيينها بالفلفل الملون.

من ناحيته، بدأ الأستاذ ألفونسو لونا تجربة الأداء من أجل السهرة الثانية. حين يراه خوسيه سانتوس بمثل هذا النشاط، يطلب منه أن يضطلع بتنظيم لجنة الإضراب، التي ستتولى بدورها الإشراف على الفعاليات الاجتماعية والثقافية، وبالأخص الرياضية، التي ستعقد في قاعة النقابة: بطولات بلياردو ودومينو، ولعبة ورق الـ«بريسكا»، والنرد، وتنس الطاولة.

وبهذه المناسبة، يأمر خوسيه سانتوس بإبقاء أبواب النقابة مفتوحة حتى منتصف الليل، ما دام الإضراب مستمرًا. هكذا، سيجد العمال مكانًا ليروحوا فيه عن أنفسهم وقتًا أطول وليتدربوا استعدادًا للمنافسات.

يبدأ يوم الأحد مشرقًا أكثر من أي وقت مضى. تبدو الشمس كأنها ميدالية أوليمبية تزين صدر السماء. يمر أسبوع على بداية الإضراب في «تريكلور». لم تتراجع معنويات أهاليها. يحصل أنخل سالومون وإيبا لا سكال، اللذان أحبهما وقدرهما الناس، على دعوة لحضور فعاليات أكل الطبخة المشتركة بصفتهم ضيفين مميزين. يشعر الأطفال والعجائز بمودة فائقة تجاه «خوان ابن لا أحد» على وجه الخصوص. ينظرون باندعاش إلى هذا العملاق بروحه الطفولية، فلا يقدرّون على كبح شعورهم بالتعاطف تجاه العائق الذي يمثله طوله كلما انحنى ليدخل عبر الأبواب، أو تجاه الجروح التي يتعرض لها في رأسه أحيانًا بسبب العوارض. يغرم الأطفال به حين يلعب معهم «آتشيتا إي كوارتا» ولف النحل.

ينام أنخل سالومون و«خوان ابن لا أحد» أيضًا منذ ليلتين في النقابة. لكن في ظل عدم وجود أفرشة، سُمح لهما بالنوم فوق طاولات البلياردو،

وهذا أريح للعملاق، إذ يمكنه أن يمدد جسده هكذا بثقة، فطولها من طوله، وثباتها كاف لتتحمل وزنه، وهذا لا يحدث مع أفرشة النزل، التي تنكسر في النهاية.

في اليوم التالي، وفي ساعة متأخرة من الليل، يرن هاتف النقابة. تعج القاعة بالعمال الذين يتسلون بألعاب الطاولة والبلياردو أو تنس الطاولة. تغرق القاعة في الصمت عقب أول جرس. يبدو صرير الصمت أقوى مع الرنين الثاني.

ربما هي المكالمات المنتظرة.

في المطبخ، يتناول دون خوسيه سانتوس وأنخل سالومون و«خوان ابن لا أحد» مع دونيا إرمينيا شراب الممتة مع الخبز المعجون.

يُسمع صوت السيدة إرمينيا وهي تقول له:

- المكالمات لك يا دون خوسيه.

حين يُمسك رئيس النقابة سماعة الهاتف، تتجه كل الأنظار إليه.

- أجل، أنا هو. خوسيه سانتوس. رئيس النقابة. متى؟ حسنًا، انتظر لحظة.

يُغطي دون خوسيه سماعة الهاتف ويقول لإيبا لا سكالاً إن الشركة تطلب اجتماعًا غدًا. ترفع إبهاميهما.

- حسنا يا سيدي. غدًا في أي ساعة؟ صباحًا؟

يُكرر دون خوسيه العبارة وهو ينظر إلى محاميته، فتشير له أن يرفض وتقترب من أذنه:

- قل له إن صباح الغد مستحيل. لو أرادوا، فسنجتمع عصرًا.

يتلعثم دون خوسيه مدة ثانية، لكنه يقولها.

يُغطي السماعة مرة ثانية ويقول مبتسمًا:

- إنهم ينسخون تكتيكنا.

بعد فترة انتظار قصيرة، يتحدث دون خوسيه مرة ثانية:

- أجل. نعم. اتفقنا. جيد. أجل، أجل يا حضرة المحامي. أفهم.
بالطبع. أجل. تصبح على خير.

ينهي رئيس النقابة المكاملة بجبين مقطوب، ويظل مطأطئ الرأس،
بعدئذ يرفعه ويهتف:

- فزنا بالجولة الأولى!

فيفتجر تصفيق العمال ويستأنفون ألعابهم.

يتحدد موعد الاجتماع في الرابعة عصرًا. سينعقد هذه المرة في فندق
يقع في وسط أنتوفاجاستا. يُدرك دون خوسيه عن طريق ابن شقيق
أحد القادة المقالين أن المحامين العاصميين مغرورون إلى درجة أنهم
يصلون متأخرين ربع الساعة على الأقل على الاجتماعات. بينما تفكر
إيبا لا سكالا، في هذا الشأن، تخطر لها خطة عبقرية من فرط بساطتها.
- كي نوجه إليهم اللكمة الأولى.

يصلون إلى الاجتماع حين تتبقى عشر دقائق على الرابعة. يدخلون
الفندق. يظهر في الردهة مسافرون قليلون. تقترب إيبا لا سكالا من
الاستقبال مع القادة الثلاثة، حيث يستقبلها شاب وأنسة. تسأل وهي
تكاد تصرخ في أي قاعة سينعقد الاجتماع. تشير الأنسة إلى المكان
المقرر وهي تبدو مستاءة. بعدئذ، تسأل الشاب عن الساعة، فينظر
موظف الاستقبال إلى ساعته يده ويقول:

- تتبقى عشر دقائق على الرابعة يا «آنستي»!

لكن يُفهم من النبذة التي قالها بها أنه يعني «يا غبية يا مجنونة!».

بينما تتراجع إيبا لا سكالا من أمام النضد، تقلب إناء صينيًا ملآن بحلوى «أمبروسولي». تُبالغ في الاعتذار، ثم يمضون جميعًا للانتظار في مقهى أمام الفندق.

تعلق إيبا لا سكالا وهي تبسم:

- لا أعتقد أنهم سينسوننا في الاستقبال.

يضيف دون خوسيه وهو مُعجب بجرأة محاميته:

- على الأقل في القريب العاجل.

بعد برهة، يرون عبر نوافذ المقهى المحامين العاصميين وهم يصلون. لقد جاؤوا متأخرين سبع عشرة دقيقة.

- الآن لنجعلهم ينتظرون قليلًا.

تقول إيبا لا سكالا عبارتها ويبدؤون في شرب قهوتهم بهدوء.

يدخلون إلى قاعة الاجتماعات في الرابعة والنصف، فيما يجلس محامو الشركة على المقاعد بسيقان مفتوحة، وتبدو عليهم أمارات الانزعاج. يُحييهم القادة الجدد بأدب ويقدمون أوراق اعتمادهم، لكن العاصميين يوجهون إليهم التحية بلا اكتراث.

- إذن، حضراتكم الجدد؟

يقول خوسيه سانتوس:

- أي نعم، والآن معنا محامية. أقدم لكم إيبا لا سكالا.

لا ينهض الأسمن فيهم جميعًا أصلًا من فوق مقعده، وبصبغة ازدراء في نبرته، يُوجه حديثه إلى إيبا لا سكالا بنية مُجرمة، إذ تسعى لتحريك عواطفها في البداية، قبل دهسها لاحقًا كصرصار:

- لا بد أن حضرتك بصفتك محامية يا بُنتي تعرفين ضرورة أن يحضر المرء إلى هذه الاجتماعات في موعدها. هذه أدنى مؤشرات الاحترام، تجاه الطرف الآخر وممثليه.

ينظر دون خوسيه والقياديان الآخران إلى المحامية. ينتظرون رد فعلها بترقب.

تقول إيبا لا سكالا وهي تحقق إلى عيني السمين:

- عذراً. أولاً: لا أسمحك بمناداتي بـ«بُنيتي»، لأنني لست ابنة لأحد. احترمني يا سيدي! ثانيًا، نحن فعلًا أظهرنا احترامنا تجاه الطرف الآخر وتجاه أنفسنا. كي تعلم، سيادتكم، وصلنا إلى الاجتماع في الرابعة إلا عشر دقائق. اسألوا في قسم الاستعلامات. في الرابعة والربع كنا قد تعبنا من الانتظار، وفكرنا في أن حضراتكم لن تأتوا فذهبنا إلى المقهى المقابل، فالمقهى هنا أسعاره مرتفعة بالنسبة إلينا. هل تريدون معرفة ماهية «الثأ» يا حضرات المحترمين؟

تنهض إيبا لا سكالا كأنها في محكمة، وكأن السمين يجلس على كرسي الاتهام، وكأنها محامية صاحب الدعوى:

- هل تريدون؟ ها هو ذا: من مكاننا في المقهى المقابل رأينا حضراتكم وأنتم تصلون في الرابعة وثمانية عشرة دقيقة بالضبط. لم تتحلوا حتى باللباقة اللازمة للترجل سريعًا من السيارة، كأى شخص متأخر. لا، بل إن حضراتكم فعلتموها بكل الهدوء والفتور الموجودين في العالم. لربما فعلها مصاب بالشلل الرباعي أسرع منكم! هل هذا دليل على احترام الطرف الآخر وممثليه؟ يبدو لي أن الإجابة هي لا، لكن نقص الاحترام الموجه إلى العمال سينتهي يا سادة، لأن النقابة الآن لديها محامية!

ظل العاصميون ينصتون إليها كأنهم منومون مغناطيسيًا، فيما يحاول دون خوسيه وبقية القادة ألا يلاحظ أحد ابتسامتهم الساخرة. مضت إيبا لا سكالا في حديثها من دون أن تمنحهم فرصة للرد:

- والآن يا زملائي الأعزاء، كفانا ثرثرة ولنبدأ الاجتماع. ما رأي حضراتكم؟

لدى خروجهم من الاجتماع، تلفح إحدى نسمات البحر وجوههم. إنها السابعة والنصف مساء. غربت الشمس، ومن فوق التلال الجرداء، يبدأ الليل يحل، كأنه انهيار جبلي من العتمة.

عقب ثلاث ساعات من المفاوضات المكثفة التي تصارع فيها الطرفان وهما يدافعان عن أي شأن تافه يخص موكليهما، تشعر إيبا لا سكالاً والقادة بالإرهاك، لكنهم سعداء. تقترح إيبا لا سكالاً أن يعودوا فوراً إلى «تريكولور» لكيلا يستنزفوا موارد خزانة النقابة الهزيلة. تنطلق الحافلة الأخيرة في التاسعة ليلاً. في ظل تبقي بعض الوقت، يمرون في طريقهم على حانة لشرب الشاي وتناول شطيرة. إنهم في حاجة إلى هذا، لأنهم بمبادرة من إيبا لا سكالاً رفضوا خلال الاجتماع شرب القهوة أو تناول قطع البسكويت التي تبدو كأنها مخصصة للمرضى وقُدمت إليهم فوق صينية. كله على حساب الشركة! رفضوا أيضاً دعوة البقاء لتناول العشاء، وحينما أراد أحد المحامين توصيلهم، في مبادرة أبوية بوضوح، إلى الباب، قالت إيبا لا سكالاً إنها تعتقد أنهم قادرون على الخروج من دون حاجة إلى أي دليل للعيان.

ألقت وداعها بحزم:

- وأتمنى يا سادة أن نحترم المواعيد في الاجتماع المقبل! لدى الحانة التي دخلوها هاتف يعمل بالعملات. يستغل دون خوسيه سانتوس الفرصة للاتصال بالنقابة لإبلاغهم بأنهم سيصلون اليوم تحديداً.

يصلون في الثانية عشرة إلا الربع ليلاً إلى «تريكلور»، وبينما تمضي وراءهم مجموعة من العمال الذين تلهفوا لمعرفة نتائج الاجتماع، يتوجهون مباشرة إلى النقابة. يسأل خوسيه سانتوس هناك عن صاحب أفضل خط ويجعل العامل الذي يرفع يده يكتب على اللوحة:

دعوة إلى عقد جمعية عمومية يوم الثلاثاء في الحادية عشرة صباحًا. النقطة الوحيدة التي ستناقش: ملخص الاجتماع الأخير مع الشركة.

يخبر العمال أنه لا يُمكنه أن يكشف لهم شيئاً احتراماً للجمعية العمومية، لكن كي يناموا بهدوء، فليعلموا أن الأمور لم تسر معهم بشكل سيئ على الإطلاق، وأنهم بعد غد سيعقدون اجتماعاً آخر يتمنون أن يكون الأخير.

- تصبحون على خير يا أصحاب!

بينما يمضي القائدان الآخران إلى بيت كل منهما، يقول خوسيه سانتوس إن معدته ليست بخير. تدعوه السيدة إرمينيا إلى دخول المطبخ وتحضر له شراباً عشبياً. بعدئذٍ، توصله إيبا لا سكالا ودجال الأعاجيب وصبيه إلى بيته. يعتقد رئيس النقابة أن طعام الكازينو يضره، ويقول إنه يفتقد طبيخ زوجته.

يضيف:

- أنا بمفردي منذ عشرة أيام. إنها في رحلة إلى كانيلا آلتا، مسقط رأسها. لقد ذهبت للاعتناء بأمها المريضة.

حين أبلغ دون خوسيه دونيا إرمي أنهم سيعودون في الليلة ذاتها،
كانت في رفقة أنخل سالومون وصبيه.
قالت الدونيا بعد أن أغلقت الهاتف:

- ما الشيء الشهي الذي قد نستقبل به إيبا؟

أجاب الرجلان:

- الـ«سوبابيا»⁽¹⁾.

فإيبيتا، كما يروق لدونيا إرمي مناداتها، تحبها إلى درجة الجنون.
هكذا، اتفقوا. قدم دجال الأعاجيب المال اللازم للمكونات، وذهب «خوان
ابن لا أحد» لشرائها وعجنتها دونيا إرمي، كما صارت إيبيتا تناديها
بالفعل، وأعدتها في ظرف لا شيء.

لما عادوا بعد إيصال دون خوسيه إلى بيته، بدأت جولات شرب المته،
ومن دون سابق إنذار، وكأنها مفاجأة، وضعت إرمي أمام إيبيتا صينية
ملأى بالـ«سوبابيا».

قالت بمداهنة:

- صُنعت خصوصًا من أجل جنابك. قالت لي عصفورة إنها تروقك
جداً.

نظرت المطربة الأوروبية إلى زعيمها بعيني سفاحة، لأنها في الأصل
تكره هذه الأكلة.

قال لها بمداراة:

- آسف، لكن أنا وصبيي كنا نشتهي أكلها إلى حد الموت.

ذات لحظة وهي تناولها شراب المته الثاني، حدقت السيدة إرمي
بالسماء الزرقاء التي تسكن عينيها إلى إيبيتا وسألتها، كأن الأمر لا

(1) نوع من المعجنات المقلية الشائعة في بعض مناطق العالم اللاتيني. (المترجم).

يهمها، كيف سار الاجتماع. هذا إن كان من الممكن أن تعرف بالطبع، لأن دون خوسيه سانتوس وصل وهو يرتدي قناع الغموض.

تقول إيبيتا إنه بخلاف أن محامي الشركة لن يهينوا أي قيادي مرة ثانية، فقد نجحوا في تحقيق بعض الأشياء الهامة.

- مبدئيًا، طالبناهم بإعادة النقاط التي وافقوا عليها ثم تراجعوا عنها، إذا أرادوا أن تستمر المفاوضات، لأن ما فعلوه ليس أخلاقيًا، لا هنا ولا هناك ولا في بلاد الواق واق. وافقوا. جعلناهم يوقعون على ورقة، ثم بدأنا التفاوض حول نسبة الزيادة في الراتب الأساسي، وعقب ساعتين من المناقشات والمكالمات الهاتفية مع موكلهم، أخرجناهم من خندق الواحد في المائة. في النهاية، عقب أن عرضوا واحدًا ونصفًا في المائة، ثم اثنين في المائة، انتهى بهم المطاف وهم يعرضون اثنين ونصفًا في المائة، وكادوا يقسمون بالرب إن هذا أقصى ما يمكنهم عرضه. نحن متأكدون أن بإمكاننا الحصول على المزيد. لا أعرف النسبة تحديدًا. سنعتقد يوم الخميس الاجتماع المقبل وقد نصل فيه إلى اتفاق نهائي.

بعدئذٍ، تقول إن دون خوسيه أخبرها بشيء لم تعرفه سلفًا: في المطالبات، أو عرائض المطالب السابقة، لطالما طُلبت نسبة مبالغ فيها في زيادة الرواتب، وهذا كان معلومًا بالنسبة إلى الطرفين.

- لقد علموا من ناحية أننا لن نقبل نسبة الواحد في المائة، وأن عليهم أن يرفعوها، لكنهم حاولوا ألا يرفعوها بشكل كبير، ونحن علمنا أننا لن نحصل على نسبة العشرة في المائة وأن علينا أن نقبل ما هو أقل، لكن مع محاولة ألا تكون النسبة أقل بكثير. الأمثل هو أن يتنازل الطرفان عن النسبة نفسها، وأن تكون الزيادة بنسبة خمسة في المائة. هذا الأكثر عدلًا، لكن أعتقد أن شيئًا مثل هذا لم

يحدث من قبل، إذ قبل العمال بما هو أقل بدرجتين أو ثلاثة في المائة. أتمنى أن تتغير الأمور هذه المرة.

- عاشت إيبيتا!

تصرخ السيدة إرمي بحماس بهذه العبارة وتعانقها، قبل أن تطبع على خدها قبلة رنانة.

قدمت القيادات برفقة إيبا لا سكالاً يوم الثلاثاء تقريراً عن النقاط التي كسبوها في الاجتماع الأخير. ما خلص العمال إليه عقب الجمعية العمومية هو أنهم قد تمكنوا من الإفلات من مصيدة نسبة الواحد في المائة التي عرضتها الشركة في البداية، وهي نقطة مهمة، وأن أفضل شيء هو معرفة هل من فرصة لتحقيق المزيد، وبخاصة أن هذا يتعلق بالاستمرار في المقاومة فحسب. وأيضاً أن اجتماعاً ثانياً سينعقد بعدها بيومين، وأنهم سينتظرونه بثقة كبيرة، لأن الاعتقاد السائد أن هذا النزاع في طريقه إلى الحل. لهذا، حظيت القيادات، ومعهم الأنسة إيبا لا سكالاً، بعاصفة من التصفيق من وضع الوقوف، منا نحن معشر العمال الذين تزامنا في قاعة النقابة.

عقب نهاية الجمعية العمومية، وفي اللحظة التي يقترب فيها أنخل سالومون وصبيه من إيبا لا سكالاً ليقولا لها شيئاً، يقاطعهم ثلاثة عمال يُعرفون أنفسهم بصفتهن المسؤولين عن الورشة ويعرضون فحص السيارة ورؤية المشكلة، مكافأة لإيبا لا سكالاً على ما فعلته من أجل النقابة. بهذه الصورة، حين ينتهي الإضراب، سيأخذون السيارة إلى الورشة، وسيكون إصلاحها أسرع وأبكر. في ظل اندهاشها، تشكرهم

إيبا على مبادرتهم وتعانقهم. يطلب أنخل سالومون من صبيه أن يرافق الرجال إلى السيارة، لأنهم سيمضون على الفور.

ما أراد أنخل سالومون قوله للمطربة الأوبرالية قبل هذه المقاطعة هو أن شماس المستوطنة، العجوز الضئيل المتكلف، تبدو عليه كل أمارات كونه «العصفورة» التي تنقل الأخبار إلى الشركة.

- يبدو لي عجوزًا غير مؤذٍ. لماذا تقول يا زعيم إنه «العصفورة»؟
- إنه ليس عاملاً وليس له صلة بالإضراب، ومع ذلك يتسلل إلى كل الاجتماعات، بما فيها الاجتماع الأخير، ويجلس دائماً في أحد الأركان، كأنه لا يريد أن يلاحظه أحد. أيضاً، في تلك الليلة في المقصف، تظاهر بالثمل، ووجه إليّ عدة أسئلة مخادعة. سألني عن اعتقالي وما إذا عرفت هوية من استجوبني. كيف علم بمسألة الاستجواب، إن كان أحد لم يعرف هذا؟ عرفت أيضاً أنهم ركبوا لديه هاتفًا في الكنيسة، ولعلمك، الشركة هي من تتركب الهواتف، وللمديرين فحسب!

حين يصل كلاهما إلى السيارة، يجدان أن الميكانيكيين خلصوا إلى نتيجة إيجابية: محرك السيارة «فورد إيه»، موديل 1927 لم ينصهر، لهذا فإن إصلاحها لن يكون صعبًا.

في ذلك الثلاثاء، يستعد أهالي «تريكلور» لحضور ثانية السهرات المنظمة من قبل لجنة الإضراب التي شُكلت مؤخرًا برئاسة أستاذ اللغة الإسبانية، والمقررة في التاسعة مساء. ستنعقد مرة ثانية في السينما، لكن في هذه المرة سيشارك الفنانون المحليون فحسب، وستكون

جوادالوبي ديل كارمن هي النجمة الرئيسية؛ تلك الفتاة التي غنت الأغاني الريفية في السهرة السابقة وأسرت قلوب الجميع.

ظهرت السعادة على أهالي «تريكولور». سارت كل الأمور حتى الآن بشكل جيد. تمكنت القيادات الجديدة من تجديد الثقة بأن الإضراب سينتهي سريعاً وبنتائج جيدة. مع ذلك، انكسر الهدوء الذي خيم على «تريكولور» فجأة حين تسبب انقطاع الكهرباء العمومية في ترك الشوارع من دون إضاءة. كانت نحو الثامنة والنصف ليلاً. أظلمت قاعة السينما التي انتظر فيها الناس وألغيت السهرة. أعتمت «تريكولور» بالكامل. لم تنقطع الكهرباء في البيوت، لكن خُفض الجهد الكهربائي وأشعّ من المصابيح ضوء محتضر.

حين انقطع التيار، كانت إيبا لا سكالا والسيدة إرمينيا و«خوان ابن لا أحد» يلعبون الورق لتزجية الوقت قبل الذهاب إلى السهرة. في تلك اللحظة تحديداً، سأل الصبي ما إذا كان أحد يعرف شيئاً عن زعيمه.

- لم يظهر طوال المساء.

يصل اثنان من القادة سريعاً إلى النقابة (لأن خوسيه سانتوس يتعافى من مغص في القولون في بيته) للاتصال بالإدارة والمطالبة بتفسيرات. عقب انقضاء ساعتين من محاولات التواصل، تُرجع الشركة انقطاع الكهرباء إلى عطل في «بيت القوة»، وتقول إن كهربائي الطوارئ يفعل كل ما في وسعه لإصلاح العطل، لكن المشكلة كبيرة جداً عليه وحده، بمعنى أن الشوارع ستظل مظلمة إلى أن ينتهي الإضراب ويعودوا جميعاً إلى العمل.

يقول دون خوسيه سانتوس حين يعلم برد الشركة:

- هذه ضربة تحت الحزام!

يرسل فورًا لجلب القائدين الآخرين والآنسة المحامية للاجتماع في بيته ورؤية ما سيفعلونه غدًا، ومعرفة ما إذا كانوا سيذهبون إلى الاجتماع أم لا، والطريقة التي سيواجهون بها هذا التصرف النذل لو ذهبوا. عُمر رئيس النقابة ستة وخمسون عامًا وهو رجل هادئ، ما دام لم يزعجه أحد.

لما وصلت الرسالة إلى إيبا لا سكالاً، لم يكن أنخل سالومون قد ظهر في النقابة بعد. يعرض عليها «خوان ابن لا أحد» مرافقتها. تقول إيبا إن هذا ليس ضروريًا، فهي تعرف أين يقع بيت دون خوسيه، وهي مجرد ثلاث مربعات سكنية.

يقول العملاق:

- لكنها مظلمة.

تجيبه:

- لم أخش الظلام قط.

وتخرج بخطى حثيثة قبل أن تختفي وسط ظلال الليل. حين تصل إلى الناصية الثالثة، وهي على بعد أربعة أبواب من بيت القيادي، ينسل ظلان من بين ظلال الليل وينقضان عليها.

يسقط الظلان فوق المطربة الأوبرالية. يضربانها ويُلقيانها على الأرض. بينما يحاولان تغطية رأسها بلثام، تصرخ وتركل وتخمش وتعض. يظهر من بين الظلال ظل آخر أضخم ويحشر نفسه بينهم ويضرب بغضب الظلين المهاجمين. في ظل اندهاشهما، يفلتان إيبا لا سكالاً لينقضا على الظل الأضخم الذي يستمر في ضربهما بضراوة، من دون شفقة، بقدميه وقبضتيه، إلى أن يُخرج أحد الظلين المعتديين - وهو

ينزف من فمه وأنفه- مسدسًا، بعد أن شعر بأن الضرب المبرح الذي يتلقاه من الظل العملاق لن يؤول إلى خير. يطلق ثلاث رصاصات عليه. يسقط الظل العملاق بثقله على الأرض، ويتلقى وهو هناك رصاصتين أخريين.

ينطلق الظلان المعتديان ركضًا، لكن بسبب الضرب المبرح الذي تلقياه، لا يتمكنان من الإسراع، فيلحق بأحد الظلين بعض الأهالي الذين حين سمعوا صراخ امرأة، شرعوا يفتحون نوافذهم ويخرجون إلى الشارع وهم يشهرون عصيهم وكشافاتهم. حين يخرج القائدان، يجدان إيبا لا سكالاً جالسة على الأرضية وهي تبكي، ورأس الظل العملاق يستند إلى حجرها، وهذا لأنه على الرغم من رفضها أن يرافقها، فقد مضى الظل العملاق وراءها، وصار الآن يرقد بخمسة ثقبوط لطلقات في صدره. بعدئذٍ، عُرف أن الطلقات الأولى أصابته في قلبه بالضبط. مات الظل العملاق قبل أن يسقط أرضًا واستقرت آخر طلقتين في جثة هامة.

في تلك الأثناء، خرج الأهالي ومعهم عصي خشبية ومقابض خشبية لفؤوس وانطلقوا لمطاردة الظلين المعتديين وتمكنوا من الإمساك بأحدهما. حين أزالوا عنه لثامه لم يندهشوا على الإطلاق من كونه أحد أفراد الشرطة العسكرية. إنه أصغر فرد في قوة «تريكولور»، وعددها بالكامل سبعة أفراد. بدا وجهه مرضوضًا بالكامل ومع أول عصر لخصيتيه، قال إن الأمر جاء من «فلفل»، ومع المرة الثانية قال إن «فلفل» يعمل لصالح الشركة. أخبروه بأن هذا أمر يعرفه الجميع. ما أرادوا معرفته هو هوية من يتعامل معه في الشركة. احتاج إلى ثلاث عصرات أخرى كي يقول إن النقيب يتحدث دائمًا مع المدير. خلصوا إلى أن المدير، الـ«جرينجو» الذي يحسب نفسه صاحب المستوطنة، أمر

باختطاف المحامية لكيلا تستمر في تحريض القيادات. تمثلت الفكرة في إخفائها إلى حين انتهاء الإضراب، لكن ولاء «خوان ابن لا أحد» أفسد الخطة.

بعد إصدار تقرير المساعد الطبي (لأن الطبيب لم يمر إلا مرة واحدة أسبوعياً)، وشهادة الوفاة اللازمة، نقلوا رفات «خوان ابن لا أحد» إلى النقابة، وسهروا عليه هناك، ولأن التابوت لم يكن موجوداً، ولانعدام الموائد الضخمة التي قد تتسع لجسده، ذهبوا إلى قاعة الألعاب، وفردوا جسده على إحدى طاولات البلياردو، وهي الطاولة نفسها التي اعتاد أن ينام عليها.

في الوقت نفسه الذي نُقل فيه جثمان «خوان ابن لا أحد» إلى النقابة، خرجت زُمرة من العمال الغاضبين إلى الشارع للاحتجاج ضد «الشرطة العسكرية». بعد برهة، مر أحد على النقابة لإبلاغ القادة بأن جمعاً من العمال يرشق القسم بالحجارة ويريد إحراقه.

حين وصل القادة الثلاثة إلى القسم -لأن خوسيه سانتوس نهض من فراش المرض- كان الجمع قد كسر زجاج كل نوافذه ويحاول إشعاله. كان أفراد الشرطة العسكرية المتحصنون وراء الأبواب والنوافذ قد أطلقوا بعض الرصاصات التي أوقفت للحظات تقدم من اقتربوا وهم يحملون المشاعل. وبينما يحاول القادة تهدئة الأجواء، انفتح أحد أبواب القسم وظهر أحد أفراد الشرطة العسكرية، وفيما يضع يديه حول فمه كبوق، طلب التحدث مع رئيس النقابة.

تقدم خوسيه سانتوس.

قدم فرد الشرطة العسكرية نفسه:

- أنا العرّيف بدرو أجيرّي. أريد أن تعرف أن المذنب الوحيد في هذه الأزمة قد هرب للتو. إنه النقيب مالدونادو، الجبان إلى أقصى حد! حين عرف أن شرطياً وشى به، امتطى حصانه وهرب إلى ديسولاثيون. «سأجلب الدعم»، هذا ما قاله، لكنه في الحقيقة ذهب ليتحصن مع المدير، سيده! تشعر بقية القوة أن «فلفل» خانها ولهذا نحن مستعدون لتسليم المتورطين عن مقتل الرجل إلى العدالة. لو استدعى الأمر، فلن يكون لدى بقية القوة أي مانع في الشهادة ضد «فلفل». اتصلنا بأنتوفاجاستا وستصل لجنة تحقيق غداً كي ترى على أرض الواقع ما حدث.

في اللحظة ذاتها، يظهر أنخل سالومون في النقابة. لم يره أحد منذ المساء. يأتي شاحباً. يقترب من جثة صبيه ويظل ينظر إليها في صمت. بعدئذٍ، بعينين تضطربان بالدموع، يُمسك يديه الممدودتين بكل طولهما ويعقدهما فوق صدره، بالصورة نفسها التي اعتاد «خوان ابن لا أحد» أن ينام بها، وكما رآه لأول مرة تحت الجسر. بعد برهة، يسأل عن إيبا لا سكالاً. يقولون له إنها تخضع للعلاج في الوحدة الطبية من بعض الإصابات التي لحقت بها، لكنها لا تعاني شيئاً خطيراً. يقرص إحساس بالذنب بطن أنخل سالومون لأنه لم يكن موجوداً معهما حين حدث كل هذا.

الأمر وما فيه أن الأرملة مرت على النقابة قبل السادسة بقليل. جاءت بحثاً عنه.

- جنابك لم تأت منذ بضعة أيام لرؤيتي.

ومن دون أن يقول شيئاً لأحد غادر معها. بدا لسالمون أنها قد تحولت بعد عدة أيام من دون ممارسة الجنس، إلى أرملة سوداء، وفيما تخمسه وتتذوقه وتتشربه وتعضه شعر بخوف عتيق يُخبره بأنها ستأكله حياً بعد تلقيحها.

كانت الحادية عشرة وعشر دقائق حين تمكن من الإفلات من شباكها، وفيما يمضي إلى النقابة دخل المقصف ليشرّب الجعة. شعر بأنه يعاني الجفاف. شرب الجعة على مرة واحدة. حين طلب الجعة الثانية، أخبره أحد ما بأمر إطلاق النار فانطلق راكضاً. لم يسمع أي طلقات، لأن بيت الأرملة يقع في الشارع الأخير من المعسكر، ولأنهما أغلقا الأبواب والنوافذ.

بعد العام ونصف العام الذي رافقه فيه «خوان ابن لا أحد» خلال غزواته، انتهى المطاف بأنخل سالمون وهو يحبه كأخ، كأخ أصغر كَبِرَ كثيراً، كأخ أصغر أخرق، كأخ أصغر قلبه أكبر من السماء. كان قلب صبيه كبيراً إلى درجة أنه قدم حياته فداء لمن عدها صديقه.

لقد تحول ذلك الرجل الراقد فوق طاولة البلياردو إلى بطل.

في يوم الأربعاء، يبدأ الأهالي في التجمع مبكراً خارج النقابة. يريدون توديع العملاق ورؤيته لآخر مرة. تعلموا أن يحبوه. في تلك الأثناء، تجري محاولات للعثور على رئيس قسم النجارة لتمكين نجارين اثنين من دخول الورشة وتفصيل تابوت له، فالتوابيت المخزنة في قسم السلامة لقوم عاديين. يتصل قياديان، ومعهما إيبا لا سكال التي استيقظت وذراعها على حمالة وهي ملأى بالجروح والكدمات، كل خمس دقائق به. عقب ساعتين من المحاولات يُجيب رئيس قسم النجارة

أخيراً على الهاتف. يقول إنه ليس لديه مشكلة لكن عليهم أن يحصلوا على توقيع من الإدارة، لكن بما أن المدير ليس موجوداً، فعليهم أن يتصلوا بأنتوفاجاستا.

تتأخر أنتوفاجاستا ثلاث ساعات في إعطاء الضوء الأخضر. يبدأ تفصيل التابوت في الواحدة ظهراً. في تلك الأثناء، يُهدد الأهالي الذين طالبوا منذ الصباح بإلقاء وداع أخير على العملاق الميت، بالدخول عنوة. لم يعودوا يطيقون إجابة: «حين يأتي التابوت».

لا يمكن أن يستمر مسؤولو النقابة في الرفض. إنهم قوم كثيرون. يُسمح لهم بالدخول بوساطة من أنخل سالومون. يضطلع بنفسه بتنفيذ هذا بنظام واحترام. عليهم أن يقفوا بالترتيب في صف واحد والمرور إلى جوار طاولة البلياردو والخروج عبر باب الزقاق. يدخل العمال مع نسائهم وأبنائهم الذين يمسكونهم في أيديهم، في صمت، بأسى كبير. الطفل العملاق، كما سماه البعض، يبدو نائماً. حين يمرون إلى جوار جسده الرائد، يتحدثون معه ويلمسون ويرشمون جميعاً الصليب، وثمة من يترك له هدايا.

في الخامسة مساءً، يصل تابوت «خوان ابن لا أحد» الضخم بعد أن فُصل من ألواح من الخشب الخام وطُلي بلون أسود لا يزال لامعاً. يفكر أنخل سالومون في أن التابوت ضخم كقارب نهر ليثي. حكى النجارون أنهم حين قاسوا طول المتوفى، عقب خشب الموت، وجدوا أنه قد تخطى مترين وخمسة عشر سنتيمتراً، ولهذا حين فرغوا من تفصيل التابوت ورأوا مدى ضخامته، خطرت لهم فكرة وضع خمسة مقابض في كل جانب، لا ثلاثة كما هي العادة.

حين وصل التابوت، كان سطح طاولة البلياردو الأخضر قد امتلأ بالزهور والتيجان الورقية التي تركتها النساء، وعملات البامبا المعدنية

القديمة التي تركها الرجال، والكريات الزجاجية الصغيرة وأطقم لعب البولنج والدمى القماشية التي تركها له الأطفال.

بعد أن صار التابوت جاهزًا، يبحث أنخل سالومون في حقيبة صبيه عن أفضل ملابسه -أو أقلها سوءًا- ويتولى مسؤولية إلباسه إياها. من جانبها، تضع إيبا لا سكالاً لمسة من خضاب الوجه على خديه، لتُخفف شحوب ما بعد الموت. بعدئذٍ، يدخل بضعة رجال ويرفعون جثمانه ليضعوه في التابوت. عقب إغلاق الغطاء، وإشعال الشموع الأربعة، يقف أنخل سالومون عند رأس التابوت كحارس شرف.

في تلك الأثناء، تخلص قيادة النقابة إلى أن مقتل رجل ومحاولة اختطاف المحامية لا يجب أن يمرا من دون عقاب. لا بد من تقرير كيفية مواجهة هذا الاعتداء الذي نفذته الشركة، ولهذا تجري الدعوة إلى عقد جمعية عمومية في السادسة مساءً.

مع أنها السادسة والنصف، لم يظهر رئيس النقابة. يشعر الأهالي بالقلق. ليس موجودًا في بيته ولا يعرف أحد أي شيء. حين تتشكل زمرة من الناس كي تذهب لإنقاذه من القسم، يخطر على أحدهم سؤال السيدة إرمينيا ما إذا كانت قد رآته. تقول إن دون خوسيه مر عليها نحو الخامسة وطلب منها كوب ماء، وفي تلك اللحظة تحديدًا دق الهاتف. أجاب على المكالمة وكوب الماء في يده. لم يتحدث أكثر من دقيقتين ثم أنهى المكالمة، وانطلق مسرعًا، من دون أن يشرب الماء أصلًا.

بينما تفرغ السيدة إرمينيا من حكاية كل هذا، يظهر خوسيه سانتوس عند الباب.

يفتتح رئيس النقابة الجلسة بحكاية ما حدث. وصلت اليوم في وقت باكراً لجنة من أنتوفاجاستا للتحقيق في الأحداث على أرض الواقع. استجوبوا كل فرد من أفراد الشرطة العسكرية، ولهذا صاروا، داخلياً، على دراية بكل شيء.

- أرادوا سماع شهادة خارجية فحسب لتأكيد ما توصلوا إليه حتى لحظت ذلك، فاتصلوا بي. أتشرف بإعلام الجمعية العمومية بأن «فلفل» وأفراد الشرطة العسكرية المتورطين قد أوقفوا عن العمل وسُلموا إلى العدالة.

بعد التصفيق والهتافات والدق بكعوب الأحذية اللازمة بعد هذا الإعلان، يمضي النقاش حول ما إذا كان يجب حضور اجتماع الخميس أم لا. في النهاية، يتفقون على إبلاغ المحامين بأنه إذا كانت الشركة لديها رغبة في استئناف مفاوضات إنهاء الإضراب، فلن يحدث هذا إلا بعد تنفيذ شرط واحد: إقالة المدير من منصبه وتقديمه إلى العدالة كما يحدث الآن مع أفراد الشرطة العسكرية المتورطين.

تنعقد مراسم الجنازة يوم الخميس في الخامسة مساءً. تقع مقبرة «تريكولور» على بعد كيلومتر واحد من المعسكر، لهذا فإن مسيرات الجنازات تكون مشياً على الأقدام ويحمل فيها الميت طوال الوقت. يقول من يحملون التابوت العملاق إن النجارين أصابوا حين ركبوا خمسة مقابض في كل جانب. مع ذلك، فإن الرجال الذين يحملونه باليد اليمنى، وعلى رأسهم أنخل سالومون، يطلبون بين الحين والآخر استبدالهم.

مع ذلك، بالنسبة إلى الخمسة الآخرين الذين طلبوا بأنفسهم الجانب الأصعب، أي إمساك التابوت بيسراهم، فيتحملون الأمر حتى يصلوا إلى

المقبرة. هذا هو التكريم الذي منحه إياه الخمسة الأشداء الذين انتصر عليهم المرحوم في منافسة المصارعة الزراعية.

قالوا إنهم فعلوها بسبب تحليه بأخلاق الفرسان بعد الانتصار.

تسير إيبا لا سكالاً ومعها منديل في يدها إلى جوار التابوت وهي تحاول أن تكبت دموعها، وهذا لأن كل شيء مدهش، كما تقول، بل من الرائع أن تخلو قرية «تريكلور» من كل سكانها للمشى في جنازة غريب عنهم، وأضخم ميت رأوه في حياتهم.

في المقبرة، حين رأى حفار القبور حجم التابوت، اضطر إلى الذهاب لجلب أدواته وتوسيع الحفرة بمقدار نصف متر. «لم يبلغني أحد أنه عملاق». هذا ما قاله.

عاش الرجل في بيت صغير من غرفتين في أحد أركان المقبرة، ولأنه لم يزر المعسكر كثيراً، لم يتعرف إلى «خوان ابن لا أحد».

بينما يبدأ حفار القبور عمله، يبدأ الناس في ترديد هتافات ضد المدير. عقب الانتهاء من توسيع القبر وقبل وضع التابوت، ينجح الأستاذ الذي قدم السهرة في إسكات الأهالي. بعدئذٍ، وبصفته مسؤولاً عن لجنة الإضراب، يلقي خطاباً قصيراً يتحدث فيه عن قصة تعرفه إلى «خوان ابن لا أحد». يقول إن نظرتة الطفولية هي ما أبهرته أكثر من قامته. بعدئذٍ، يتحدث دون خوسيه سانتوس ويشيد ببراءة العملاق وقلبه الطيب الذي جعل كل أهالي «تريكلور» يحبونه. بعدئذٍ، تقف الطفلة جوادالوبي ديل كارمن أمام التابوت. تقول إنها ستغني أغنية تكريماً للعملاق الطيب. بعدئذٍ، ترشم الصليب وتبدأ في غناء «خوان الجريح»، الأغنية الرائجة في تلك الفترة.

يحدث كل هذا فيما يتجسس شماس «تريكلور» عليهم من وراء أحد الأضرحة. توجه في اليوم السابق إلى النقابة وعرض إقامة قداس لجسد

المرحوم، وطرده خوسيه سانتوس وأنخل سالومون، من دون أن يقولوا له شيئاً.

تأتي أسمى لحظات الجنازة، حين تقول إيبا لا سكالا بصوت مكسور إن العمل المفضل لـ«خوان ابن لا أحد» من فهرس أغانيها الأوبرالية هو «يا شمسي!»، وتبدأ في غنائها، بعاطفة شديدة لتبكي كل الأهالي، فحتى حفار القبور وهو رجل جلده ثخين، ويرتدي بنطلوناً بحمالات وقبعة ذات طرف قصير، يبدو متأثراً، وهو شيء غير تقليدي في أي حفار قبور، فيخرج منديله المتكور ويتمخط بقوة.

حين تنتهي الأغنية، يُنزل أنخل سالومون التابوت إلى المقبرة. يتعجب الأهالي، إذ ظنوا أن الرجل ذا ذيل الحصان، صاحب القدرة المذهلة على الكلام، سيُقدم أحد أفضل الخطابات الجنائزية في تاريخ «تريكولور». مع ذلك، صار كل ما فعله هو إلقاء حفنة من التراب على التابوت.

في صباح ذلك الخميس، كان أحد محامي الشركة، ذلك السمين الأكثر عناداً بين الثلاثة، قد اتصل لتأكيد انعقاد الاجتماع مساء.

قال خوسيه سانتوس:

- هذا ليس ممكناً لأننا في المساء لدينا جنازة رجل أقدمتم حضراتكم على قتله، حين حاول منع اختطاف محاميتنا.

قال السمين باضطراب كبير إن الشركة لم تشارك بأي صورة في هذه الجريمة.

أوضح له دون خوسيه:

- ربما ليس بصورة مباشرة، لكن المدير متورط فيها فعلاً وهو ممثل للشركة، ولعلم جنابك، اتفقنا بالأمس في الجمعية العمومية

على أنه إن أرادت الشركة أن نجتمع مرة ثانية للتفاوض، فلا بد من إقالة المدير من منصبه.

- أقول لك بالطبع يا دون خوسيه إن الشركة مستعدة للتفاوض حول ما حدث. أيضًا، كلفتنا بوضع عرض جديد لزيادة الراتب. هذا يشير إلى أننا من طرفنا لدينا نية كاملة لحل النزاع.

- ولدينا النية نفسها أيضًا. لتقدم الشركة لنا عرضًا جيدًا وسينتهي الإضراب في التو واللحظة، لكن لا بد من تقديمه في أقرب وقت ممكن لأن معنويات العمال مشتتة بسبب ما حدث وقد يفلت الأمر من بين أيدينا. أقول لك هذا بحكم اطلاعي على القضية، لأن هؤلاء الرجال يعدون أي تحرك احتجاجي قليلًا على ما حدث، بداية من رشق القسم بالحجارة، وهو ما فعلوه أصلًا، وصولًا إلى حرق محطة التصنيع، كما حدث في مستوطنات أخرى. ولو وضعنا أنفسنا في هذا الموقف، فسيركض ممثلوك، أصحاب المستوطنة، للاتصال بالجيش. هل تتخيل ما قد يحدث؟

قال المحامي:

- أتخيل.

- لا يا سيدي، جنابك لا يمكنك أن تتخيل. سأقول لك ما سيحدث: بما أن الجيش التشيلي ضليع في إطلاق النار على العمال، فسيأتي ببنادقه ومدافعه الرشاشة ومدافعه العادية وسيطلق النيران عشوائيًا، من دون أن يهتم بالأطفال والنساء والعجائز، وستصطبغ الشوارع بالدماء. أما من سينجحون في الإفلات من الحصار والهرب إلى البامبا، فسيتعرضون للملاحقة والصيد كالحمام من دون أي اعتبارات، كما حدث في مستوطنات «سانتا ماريا»، و«لا كورونيا»، و«ماروسيا»، و«سان جريجوريا»، وأنا من

ضمن الناجين منها. كان عمري أربعة عشر عامًا حين حدث هذا. ما زال ذلك الخميس، الموافق الثالث من فبراير 1921، يتراءى لي في أحلامي، حين بدأ الجنود في الخامسة والنصف مساءً في إطلاق النيران على الأهالي، وفيما أختبئ فوق سقف أحد البيوت، رأيت عشرات العمال يسقطون برصاص المدافع الرشاشة. رأيت نساء يحملن أطفالهن على أذرعهن وهن يسقطن، رأيت عبر دموعي، أخي الأكبر وأكثر عم أحببته وهما يموتان. واسمح لي أن أقول لجنابك إن ما شعرت به في هذه اللحظة شيء لا يُمكنك أن تتخيله.

بدا المحامي متأثرًا بكلمات دون خوسيه.

قال في النهاية إن الشركة تفهم الوضع تمامًا، ولهذا كلفوه بالاجتماع معهم في أقرب وقت ممكن لتقديم عرض جديد. اقترح دون خوسيه عقد الاجتماع في مساء اليوم التالي، واتفقا في النهاية على هذا.

بعد العودة من الجنازة، تتوجه النساء إلى بيوتهن ويظل الأطفال لبعض الوقت عند الأراجيح ويمر الرجال على النقابة. يطفو الذهول في الأجواء. يتحدث العجائز في قاعة الاجتماعات بصوت خفيض، ويسيرون على أطراف أقدامهم، ويكتمون ضحكاتهم. يحدث الشيء نفسه في قاعة الألعاب، فمن يفوزون في مباريات تنس الطاولة لا يحتفلون بانتصارهم بالهتاف والقفز كما هو الحال دائمًا، ومن يكسبون في الدومينو بـ«تقفيلة كاملة» لا يتباهون بضرب الطاولة. بالنسبة إلى من يلعبون البلياردو، فلا يضربون الأرضية بعصيتهم حين يضربون كرتين في حركة واحدة، أو حين يفشلون في أداء لعبة سهلة، بل ويحاولون ألا

يثيروا ضوضاء كبيرة بالكرات، خصوصًا على الطاولة التي رقد فوقها
المرحوم.

تنكسر أجواء الحداد هذه فجأة من قبل مجموعة تبدأ من العدم في
ترديد شعارات. بعدئذٍ، تنضم إليهم أصوات أخرى، إلى أن تندمج في
هتاف موحد ضد الشركة، وضد المدير ابن الساقطة وضد الشرطة
العسكرية. تزداد سخونة الأجواء في لحظة إلى أقصى حدودها، وتشتعل
الشعارات، ويصرخ واحد من ضمن أكثر الأشخاص تحمسًا:

- سنحرق بيت المدير!

يصعد القادة ومعهم إيبا لا سكالاً وهي في حالة يُرثى لها إلى
المنصة ويحاولون تهدئة المتمردين، لكن من دون أن يتمكنوا من
إقناعهم بصورة كبيرة. لقد اشتعلت الفكرة كأنها وُلدت وهي مغموسة
في البنزين.

- هذا هو الحل! لنحرق بيت الـ«جرينجو» النذل!

يهتفون بهذه العبارة وهم يخرجون فجأة وبعنف إلى الشارع. يخرج
الشماس، الذي كان يجلس غاطسًا في أحد المقاعد عند أحد أركان
القاعة، ويركب دراجته الهوائية مرعوبًا ويتوجه إلى الكنيسة. حينئذٍ،
تتحول الهتافات إلى ضحكات وتصفيق.

كل هذا تمثيلية!

الأمر وما فيه أن أنخل سالومون رأى الشماس مرة ثانية وهو يحاول
أن يتخفى بين العمال، فقال لخوسيه سانتوس ما يظنه، وهو أن العجوز
جاسوس للشركة. لم يقتنع رئيس النقابة:

- أعرفه منذ سنوات كثيرة.

- جرب. مُر رجالك، بإشارة منك، أن يرددوا شعارات ضد الشركة وأن يتفقوا على الذهاب لحرق بيت المدير على سبيل المثال. أراهن حضرتك بذيل حصاني على أنك سترى في اجتماع الغد، سيعرفون تحديدًا ماهية الهتافات التي ترددت هنا. وقد كان!



ليلاً، يغلق القادة الثلاث وإيبا لا سكالاً عليهم قاعة النقابة للاتفاق على ما سيفعلونه وسيقولونه في اجتماع اليوم التالي. في تلك الأثناء، يقضى أنخل سالومون الوقت وهو يشرب المنة في المطبخ مع السيدة إرمينيا. بينما يجلس شاردًا على كرسيه، تبدو قدرته على الحديث كأنها قد ذابت وتحولت إلى صمت مؤلم. يبدو كأنه في بُعد آخر. ذات لحظة، فيما تقدم له السيدة إرمينيا المنة، تحرق إليه وتُعيده إلى العالم الحقيقي بسؤال في الصميم:

- قل لي يا دون أنخل.. لماذا لم تتحدث في جنازة صبيك؟

لا ينظر أنخل سالومون مباشرة إليها، كأنه يعود من الفلك الواسع، ثم يأخذ رشفة من المنة ويظل يفكر.

- اعذرني على سؤالي، فالأمر وما فيه أنني فظة للغاية.

ينغمس أنخل سالومون في عملية الغوص في بحر من الشكوك، والمعتقدات، والعقائد، والمذاهب، والأحلام والتجارب، ويبحث في المياه الهائجة لهذا البحر الذي لا قرار له عن إجابة تُنير بصيرته، وتكشف له لماذا يتصرف مع الموت بهذه الطريقة. لماذا يُقدم التعازي من دون أن ينطق كلمة واحدة، ومن دون عناق واحد؟ لماذا يُفضل ألا يتحدث في الجنازات؟ لماذا يصمت حين يجري النقاش حول الموت؟ بعد فترة

ليست بالقصيرة، ينبثق من هذا البحر الملتبس وهو يمस्क بإجابة
محتملة بين أسنانه. ينظر إلى دونيا إرمينيا. يطلب منها أن تعذره، فهو
ليس مستعدًا، حتى مع ترسانته من الكلمات، للرد على سؤالها. مع ذلك،
يتذكر بضعة أبيات لليون فيليبي، ربما يظهر فيها ملمح لإجابة محتملة.
تقول الأبيات:

«كي ندفن الموتى

كما يجب

فأي شخص يصلح

أي شخص..

إلا حفار القبور».

- وهذا كأن نقول إنه كي نتحدث عن الموتى كما يجب، فأي شخص
يصلح، أي شخص.. إلا الثرثار. باختصار يا سيدتي: لا تصلح أي
كلمة أمام الموت، ولا يبقى لنا إلا الصمت.

يوم الجمعة، وبمقترح من إيبا لا سكال، وفي إشارة حداد على موت
«خوان ابن لا أحد»، يصل القادة الثلاثة معها إلى الاجتماع وهم يرتدون
أشرطة سوداء مهيبة على أذرعهم. بالنسبة إليها فقد ارتدت قميصًا
مفتوح الصدر لإظهار الكدمات والسحجات التي تعرضت لها، بخلاف
الحمالة التي ترفع ذراعها. يصلون إلى الفندق في الرابعة إلا خمس
دقائق. كان العاصميون قد وصلوا بالفعل.

يبدو للأعين أن المحامين يشعرون بالاضطراب أمام هذا المشهد الجنائزي، وظهر انزعاجهم طوال الاجتماع. يحكي القادة وإيها لا سكالاً ما حدث في «تريكلور»: محاولة الاختطاف التي تعرضت لها، ومقتل شخص أحبه المعسكر كله على أيدي الشرطة العسكرية. يسأل أحد المحامين ما إذا كان صحيحاً أن العمال أرادوا إحراق بيت المدير. ظلوا ينظرون إلى دون خوسيه سانتوس. كان أنخل سالومون محقاً. فكر الاثنان: الشماس هو العصفورة التي تنقل الأخبار إلى الشركة! قالوا إن هذا صحيح، فقد كان الجميع غاضبين، لا من دون داع، لكنهم بصفتهم قادة، تمكنوا بصعوبة من تخفيف حدة مزاج العمال المشتعل، لكن إن لم يقللوا المدير لاحقاً، فهم ليسوا متأكدين من قدرتهم على كبحهم مرة ثانية، وهذا لأن الـ«جرينجو»، كما قالوا، يقسم إن «تريكلور» إقطاعيته وإن لديه تابعاً يترأس القسم، ضابطاً اسمه النقيب مالدونادو وشهرته «فلفل». قال المحامون بعد أن استمعوا إليهم إن الشركة منحتهم كل الصلاحيات اللازمة لحل كل شيء بسرعة، وإنه إذا كان الإضراب يؤثر على إنتاج الملح الصخري، فإن هذه الأفعال الجديرة بالمافيا تضر صورة وسمعة الشركة الجيدة. بالتالي، سيُقال السيد المدير من منصبه، وإن ثبت ارتباطه بهذه الجرائم، فستُبلغ العدالة عنه. قال خوسيه سانتوس إنهم يشكرون هذه المبادرة، وإنهم يمكنهم الآن أن يبدؤوا التفاوض حول النقطة الأخيرة الواجب حلها. شدد على الفور، وبطريقة مباشرة، أنه بأمر من الجمعية العمومية لا يُمكن قبول الزيادة بنسبة اثنين ونصف في المائة التي عرضوها في الاجتماع الأخير، وأنه بقليل فقط من الرغبة، يمكن زيادتها قليلاً.

كرر المحامون مسألة أن الشركة تريد إنهاء النزاع في أقرب وقت، ولهذا عرضوا زيادة بنسبة خمسة في المائة من الراتب الأساسي، بخلاف

كل الامتيازات التي منحوها بالفعل. التمتعت أعين القادة. حينئذ، طلبت إيبا لا سكالا، من دون إظهار أي عاطفة، الإذن من زملاء عملها للخروج والحديث مدة دقيقة مع وكلائها.

- لو أنهم يعرضون طوعية خمسة في المائة، ولديهم كل الصلاحيات اللازمة للتفاوض، فيمكننا أن نأخذ منهم نقطة أخرى.

يتعجب القادة:

- ستة في المائة؟

تقول إيبا لا سكالا:

- لدينا عشر دقائق لتحقيق هذا الهدف، قبل أن تتركنا الحافلة.

حين يعلم العمال في الليلة ذاتها أن النزاع قد انتهى بالحصول على زيادة بنسبة ستة في المائة من الراتب الأساسي، لأن القادة أنفسهم كتبوا هذا فوق لوحة الإعلانات بمجرد وصولهم من المحطة، يخرجون يوم السبت صباحًا للعمل. يُقدم القادة، مساءً، في القاعة الملائى على آخرها، تقريرهم عن الاجتماع. يشعر الجميع بالسعادة، فعلى مدار السنوات التي عملوها هنا، لم تنجح أي قيادة نقابية في الحصول على زيادة بنسبة ستة في المائة.

حين يفرغ القادة من تقديم تقرير مُفصل عن الاجتماع، يحتفي الجمهور بهم بالتصفيق والتهليل والقرع بالأحذية. ولأن غبطة الجمهور مذهلة إلى درجة عدم توقف التصفيق، يرفع رئيس النقابة يده للمطالبة بالصمت ويبدأ في الثناء على إيبا لا سكالا و«خوان ابن لا أحد».

يقول:

- لولا مشورتها ومشاركتها في المفاوضات واستراتيجيتها المراوغة في إطار القانون، لما تحقق ما تحقق. ربما الآنسة إيبا لا سكالاً عصفور كناري زجاجي كمغنية أوبرالية، لكنها كمحامية مثل حيوان المدرع!

بعد التصفيق وكل أمارات الود تجاه المطربة الأوبرالية، يطلب خوسيه سانتوس الوقوف حداداً لمدة دقيقة على روح «خوان ابن لا أحد». يقول بعدئذٍ، فيما تتقطع كلماته بسبب عاطفته، إن العملاق صاحب الوجه الطفولي جدير بكل التكريمات بسبب فعله البطولي.

- لأن من يتحلى بالرجولة والشجاعة الكافيتين للتضحية بحياته لإنقاذ شخص آخر ليس شخصاً عادياً، ولأن تصرفه قد لمسنا جميعاً بعمق في «تريكولور»، سواء كنا رجالاً أم نساء أم أطفالاً، فقد قررنا تغيير اسم عملاقنا. لن ندعوه أبداً «خوان ابن لا أحد»، وبداية من اليوم سيكون اسمه «خوان ابن الجميع»، جميعنا نحن يا أصحاب!

بعدئذٍ يسكت رئيس النقابة قليلاً ويتنحنح، وفيما ينظر إلى إحدى زوايا القاعة، يطلب من الشماس المحترم السيد خيلبرتو روساس، بدمائة كبيرة ومراعاة كبيرة لسنه، أن يرحل عن القاعة في التو واللحظة، لأنهم لا يريدون أن يروا وجهه هنا بعدئذٍ على الإطلاق.

- وأنت تعرف السبب يا حضرة الشماس!

وسط صفير الاستهجان العام، يضطر العجوز إلى الخروج من بين العمال المتراكمين عند الباب الذين يصنعون له ممراً غير شرفي، ويُخرجونه فيما يضربونه ويصفعونه على مؤخرته.

بعد انتهاء الإضراب، عادت النقابة إلى مواعيد عملها الطبيعية. بهذه الطريقة، تغلق السيدة إرمينيا يوم الإثنين في العاشرة ليلاً الأبواب وتبقى مع إيبا لا سكالا وأنخل سالومون للتحاور وشرب المنة للمرة الأخيرة. لقد اتفق المسافران على الرحيل في اليوم التالي قبل الشروق للإفلات من الحر الذي يبدو الآن، ليلاً، كأنه ينصب صَبًّا من أسقف الزنك، على الرغم من النواقد المفتوحة.

لقد سلم عمال الورشة السيارة لهم مساءً، بعد أن انهمكوا يوم السبت في إصلاحها، وجرباها بالذهاب إلى المقبرة لزيارة «خوان ابن لا أحد». جلبت له إيبا لا سكالا باقة من الزهور الورقية التي صنعتها السيدة إرمينيا. بالنسبة إلى أنخل سالومون، فأخذ معه شاهداً عليه صفيحة برونزية حفر عجائز ورشة الخراطة عليها كلمات خوسيه سانتوس:

وُلد كـ«خوان ابن لا أحد»
ومات كـ«خوان ابن الجميع».

بعد مرور ساعة على تناول المنة والتدخين والحديث عن أمور الدنيا والدين، يُدرك سالومون أنه يتحدث منذ فترة بمفرده، وأن المرأتين من ناحيتهما تتجاهلانه تماماً، وتحدثان بإيماءات متواطئة وهما تكتمان ضحكتهما. حينئذ يدرك حقيقة أن وجوده هنا لا لزوم له. ينهض واقفاً.

- حسنًا. سأرحل. علينا أن نستيقظ غدًا في وقت مبكر.

تقول السيدة إرمينيا وهي تغمز له:

- هل ستودع الأرملة يا أنخيليتو؟

يرتبك.

تقول وهي تقلد اللكنة البوليفية:

- كما تعرف: القرية الصغيرة، جحيم كبير.

فلا تفعل إيبا لا سكالاً شيئاً سوى الابتسام.

بينما يمضي لمقابلة الأرملة، يضحك أنخل سالومون وهو بمفرده. يا لطرق النساء في معرفة كل شيء! لا بد أنه والأرملة كانا خلال الأسبوعين الماضيين هدفاً للثِّ وعجن صفوف «الجمعية الاستهلاكية».

ولأنها ليلته الأخيرة في «تريكلور» تستقبله «المقاتلة الكومانشية» بزيئة الحرب. لقد تعطرت المرأة بعطر البتشول، وارتدت روباً حريراً أسودَ مُخرماً، وجوربين مطرزين سوداوين، وحذاءً جلدياً أحمر ذا كعب عال. سقط الأمير الإنكاوي في الكمين المتوحش الذي نصبته الكومانشية. تدق طبول الحرب حتى الفجر، وفي وسط المعركة، بينما يتعرقان إلى حد التماع جسديهما، تأخذ الأرملة استراحة قصيرة.

- أريد أن أقدم لك شيئاً يخصني يا أنخليتو، كي تأخذه كذكرى.

تناوله صندوقاً خشبياً وتقول:

- افتحه.

داخله خصل شعر. يدرك الآن لماذا ما تحت بطنها يلمع. يشكرها أنخل سالومون. تطالبه بدلال أن يترك لها هي الأخرى ذكرى.

- ليس من الضروري أن تحلق هنا، سترضيني خصلة صغيرة من شعرك الإنكاوي.

- قد أترك لي أي شيء يا عزيزتي، لكن شعري مثل الألماس الأسود. هل تعرفين عدد السنوات التي قضيتها كي أحظى بهذا الشعر؟ لو

أردتِ يمكنني أن أترك لكِ أزرار بنطلوني. ستكون ذكرى جيدة،
أليس كذلك؟

- حسنًا يا أنخليتو. أفضل من لا شيء.

تأخذ المرأة البنطلون من على الأرض، وكما قد تفعل «كومانشية»
من الغرب القديم، تنتزع الأزرار بأسنانها. بعدئذٍ، تأخذ الصندوق
الخشبي الصغير بالقربان العلني الموجود داخله، الذي كان قد تركه
على الكومود، وتضعه في أحد جيوب البنطلون.

- لا تفقده يا أنخليتو.

وتُعيد الكرة.

لا تتركه ينام إلا مع حلول الفجر.

حين يستيقظ أنخل سالومون، يجد أنها السادسة والرابع صباحًا.
ينهض من قفزة واحدة. يبدو له أنه لم يغمض عينيه إلا منذ وقت قليل.
ينظر إلى المرأة. تنام بوداعة كما يجب أن تنام كومانشية شبعى ومعفاة
من كل الذنوب. يرتدي بنطلونه وهو يتحسس الطريق، من دون أن
يُضيء المصباح، لأنه لا يريد أن تستيقظ، ثم يسير بقميصه مفتوح
الأزرار وهو يمسك حذاءه بيديه على أطراف أصابعه. اللعنة! إنه مغلق!
بينما يمضي في طريقه كأعمى يستدير في اتجاه باب الزقاق. فليتبارك
الرب! إنه مغلق بمزلاج صغير فحسب. يخرج.

لم تدر السماء بعد ولا تزال الشوارع مظلمة. لا تفعل الإضاءة
العمومية الفقيرة شيئًا إلا تعميق العتمة. يفرغ من ارتداء ملابسه وهو
يسير. حين يصل إلى الناصية، يُخرج الصندوق الصغير بالحثالة التي
تركها البوليفية داخله، ويلقيه في سلة مهملات.

تنتظره إيبا لا سكالاً إلى جوار السيارة المركونة أمام النقابة. لا تقول له شيئاً. لقد استيقظت هي الأخرى متأخرة. يساعدها مع متاعها، فمتاعه موجود في السيارة من اليوم السابق. يُشغل المحرك الذي يُخرخر لفترة قبل أن ينطلق بعدئذٍ بنعومة. الآن لن يواجهها أي مشكلات: معهما صفيحة ماء، وسلم لهم الميكانيكيون السيارة بخزان بنزين ملآن.

كطريقة لتكريم صبيه، يمضي أنخل سالومون وهو يدق بوق السيارة حتى مخرج المعسكر. لا يقدر بعد على الحديث عن موته وهذا يدفعه إلى الحزن. تنظر إيبالا سكالاً الجالسة في المقعد الخلفي عبر نافذتها، وكأن وشاحاً من الحنين إلى الماضي يُحوطها. قال لها أن تجلس إلى جواره، لكنها أجابت بأنه احتراماً لذكرى خوانيتو، ستجلس اليوم في الخلف. بعد تخطيها للأسوار الخارجية للمستوطنة، يمضون عبر المسار الذي أخبرهما أصدقاؤهما بخصوصه.

بدأت شقشقة الفجر. المناخ جيد ويبدو نهائياً ساطعاً. يبدأ أنخل سالومون في تصفير إحدى الأغاني الريفية التي سمع الطفلة جوادالوبي ديل كارمن تُغنيها لتخفيف حزنه. فجأة، يقول وسط صفيره، بنبرة مرحة:

- إذن، لقد جعلتنا الطفلة إيبيتا نغرم، أليس كذلك؟

تطل المطربة الأوبرالية برأسها من فوق وشاح حنينها:

- اعذرني يا زعيم، لكن هذه اسمها وقاحة. مسألة وقوعي في الغرام، أو من الذي أغرمت به، ليست شأنًا يخصك.

لا يقول أنخل سالومون شيئاً. يبتسم فقط ويستمر في التصفير.

تريد المطربة الأوبرالية الجالسة في المقعد الخلفي أن تنام، لكنها تعجز. تنهض وتفتح عينيها. تَفْتَحُ الصباح بشكل أكبر وأوشكت الشمس على الشروق. حينئذٍ، تكتشف شيئاً عجيئاً. يُعد عدم إدراك الأمير الإنكاوي له حتى الآن أمراً لا يصدق. تبتسم بخبث، مع أنها تشعر بالحزن. تقول، كأنه ليس شيئاً يُذكر، بالنبرة نفسها التي استخدمها للسخرية منها:

- إذن، هل قد جعل الأمير الإنكاوي أحداً ما مغرماً؟

- لماذا تقولين هذا؟

- بسبب الهدية التي تركتها للأرملة.

يشعر أنخل سالومون بالاندهاش: هل أدركت أنه ينقص زران من ينطلونه؟

يحاول أن يتظاهر بالغباء:

- هدية؟

- أم تريدني أن أسميها قربان الحب يا زعيم؟

- أي قربان حب يا «لوالب»؟

- علامتك المميزة يا زعامة!

يبتسم.

- علامتي الـ...؟

يضع يديه على رأسه. اللعنة! يُوقف السيارة. ينزل وينظر إلى نفسه في زجاج النافذة. اللعنة! يوجه ركلتين للإطار. اللعنة! اللعنة! يرجع بضع خطوات إلى الوراء ويركل حجراً ثم يركل حجراً ثانياً. في النهاية، بينما ينتحب، يصرخ بعلو الصوت:

- ملعونة الكومانشية والعاهرة التي أنجبته!

بعد أن استأنفا مسيرتهما، تبدأ إيبالا سكالا بنبرة مواساة مصطنعة تقول إنه لا بد من وجود جانب مشرف في أن يشكل المرء جزءاً من مجموعة الشعر الخاصة بمقاتلة كومانشية.

- لكن بما أن آنفة الذكر مجرد أرملة مسكينة لوحدة، فإن ذيل حصانك يا زعامة، واعذرني على قول هذا، سينتهي به المطاف مُعلقاً في مرحاض كأنه حامل أمشاط. مع ذلك، صدقني إن قلت لك بالمناسبة إنه ليس شيئاً سيئاً.

حينئذٍ، تصعد سيارة «فورد إيه»، موديل 1927، على حجر كبير وتتواشَب إلى درجة توشك معها صاحبتها على السقوط.

النهاية

(جل یصل إلی «لوس دونیس»

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:
أشرف غالب

جميع الحقوق محفوظة ©



مكتبة ضاد الإلكترونية
t.me twinkling4



أمسح الكود وانضم لأسرة ضاد
<https://t.me/twinkling4>

«إن كان تصويرك ليس جيدًا بالصورة الكافية،
فالسبب أنك لم تقترب بالشكل الكافي».

روبرت كابا

إلى جلين أكروس، المصور والصديق العظيم

ذات أحد في شهر أغسطس، نزل ذلك المسافر في محطة قطارات
«لوس دونيس»، وكانت قد مرت فترة طويلة على آخر مرة نزل فيها أحد
إلى رصيف محطتنا.

ربما منذ الأزمة العظمى للملح الصخري.

ارتدى الرجل مئزرًا أبيض وقبعة ذات طرف عريض واستقر ببغاء
هادئ على كتفه. كل المتاع الذي نزل به مجرد حقيبة خشبية، ولفائف
من القماش المرسوم حملها بمواربة فوق ظهره، وآلة كبيرة لم يعرف
أي منا أي شيء ملعون قد تكون!

نتذكر جميعًا حقبة ازدهار الملح الصخري، حين جئنا في أيام وصول
القطار إلى المحطة لرؤية المسافرين ونحن نرتدي أفضل ملابس أيام
الأحد، بعد تصفيف شعرنا وتلميعه. كانت أيام عيد! يا للطريقة التي
ابتهجنا بها ونحن نرى مسافرين من كل الأشكال والألوان وهم ينزلون
بين كهنة ماجنين، وساسة يعلو الاشتمزاز وجوهمهم، ودجالي أعاجيب
يبيعون الهواء، ومن حسبوا أنفسهم مُخلّصين غير تائبين وجأؤوا ليعلنوا
نهاية الزمن! كأنها مجموعة حيوانية من الشخصيات العجيبة، لكيلا
نكثر في الكلام!

مع ذلك، لم يترك أحدهم ثغورنا مفتوحة مثلما حدث مع مسافر ذلك
الأحد، وهذا ليس بسبب خروج هيئته عن المألوف أو غرابة الآلة التي

حملها، وإنما لأنه بدا لنا كأننا قد رأيناه من قبل. لم نشعر، نحن كل من في المحطة، بيقين أننا نعرفه فحسب، بل بأننا نحبه أيضًا، حتى وإن بدا هذا غريبًا.

ارتدى الرجل، ذو البشرة السمراء، بطوله المتوسط، وتخلّعه البسيط في مشتيه، قبعة «سومبريرو» ذات جناح عريض، وحظي بشارب رفيع صغير مثل «دونجوانات» السينما. بدا عمره قريبًا من الأربعين.

لم نتوقف نحن معشر النساء الموجودات على الرصيف، من أكثرنا انفتاحًا إلى أكثرنا تشددًا، وحتى أولئك اللاتي سرن مع رفقاءهن، عن النظر إلى المسافر في ظل انبهارنا به، بل وارتكبنا كل الحماقات اللازمة كي ينظر إلينا، وحتى نحن بائعات الحلوى وشاي «بيلز» المعبأ في زجاجات، اللاتي نركز دائمًا في عرض بضائعنا عبر نوافذ العربات، أهملنا عملنا ونسينا سلالنا، وتخلينا عن البيع كي ننظر إليه. نظرنا إليه وتهامسنا فيما بيننا.

وهذا لأننا كنا على يقين من أن المسألة لا ترتبط فحسب بأننا عرفناه، وإنما بأننا أيضًا قد أحببناه.

خمن أبسط من فينا، مثل بستاني الساحة، أن الرجل يبيع شيئًا ما لأنه ارتدى مئزرًا أبيض مثل البائعات، لكن أحدًا آخر -وهو عامل نظافة الوحدة الطبية الذي لم يكن أذكى بكثير من البستاني- قال إن مئزره يبدو مثل أردية الأطباء. غير أن أكثرنا قدرة على الملاحظة، وهو رئيس وردية المنجم، قال إن الرجل بشاربه الصغير الرفيع وقبعة رجل

العصابات التي يرتديها يبدو نموذجًا نمطيًا لمحتال تعرض لطعنة أو طلقة في الساق.

- لأنكم إن لم تنتبهوا يا أحباب، فهذا الرجل لديه عرج خفيف في ساقه اليسرى.

أشار هاوي أفلام السينما، المسؤول أيضًا عن إرشاد الناس إلى مقاعدهم في صالة العرض -وهو أول من قال بثقة شديدة إن وجه المسافر مألوف- إلى أن قبعته الـ«سومبريرو» من الطراز نفسه الذي استخدمه بدرو إنفانتي⁽¹⁾ في أفلامه.

حين قال عبارته هذه، اقتربت إحدى البائعات والعاطفة تغلبها وقالت لنا بصوت مُنغم:

- هل لاحظتم أيضًا؟ يُشبهه حتى في قبعته!

ظللنا ننظر إلى بعضنا:

- بالطبع. أجل! فعلاً! لهذا يبدو لنا مألوفًا، لأنه يكاد يكون نسخة من بدرو إنفانتي!

حدث هذا في الثامن عشر من أغسطس عام 1957 في مستوطنة «لوس دونيس» لإنتاج الملح الصخري. قبلئذ، بأربعة شهور وثلاثة أيام، مات «الخالد» بدرو إنفانتي في حادث جوي، في ميريدا، يوكاتان. أدت وفاته إلى صدمة وحزن الملايين من محبيه. قالت الصحف إن السيدات عالميًا لم ينتحرن بهذه الصورة قبلئذ قط في اليوم نفسه، وللدافع نفسه، وبسبب الحب نفسه؛ ففي كولومبيا وحدها انتحرت عشرون امرأة لم يطقن خبر وفاة معبودهن، بل إن عددًا كبيرًا من رجال العالم الناطق

(1) أحد أعلام السينما المكسيكية واللاتينية الكلاسيكية. (المترجم).

بالإسبانية الذين وجدوا أنفسهم في شخصية فارس السينما المكسيكية، استسلموا بعد خبر وفاته لرذيلة الثمل.

في البامبا، حيث كانت الأغنيات المكسيكية أشبه بأناشيد للسعادة، تسبب موت «ملك الأغاني الريفية» في حالة من الغم. لم يختلف الوضع في «لوس دونيس»، حيث أحب الجميع بدرو إنفانتي، رجالاً ونساءً، إذ ترددت أغانيه في كل المطاعم والحانات والمقاصف، وغناها السكارى، الذين عرفوها كلها، بعلو الصوت.

لطالما مثّل عرض أفلامه حدثاً جليلاً في المستوطنة، وامتلأت السينما في حفلاتها الثلاثة الصباحية والمسائية والسهرة.

ولأن الأفلام في البامبا كانت تُعرض ليوم واحد (لأنها تنتقل من مستوطنة إلى أخرى)، فإن كثيراً من معجباته الأكثر تعصباً، مثل الفتاة التي سمينها «عروس بدرو إنفانتي»، كن يتتبعن دورة أفلامه عبر المستوطنات القريبة لرؤيتها من جديد.

انطلق دانتلي، وهو طفل عمره اثنا عشر عاماً من المحطة نحو المعسكر. فعلها حافياً وهو يدوس على قشور الملح الصخري بجلد قدميه الكلابي. قطع الأربعمئة وخمسمئة متر وهو يدمدم بعبارة: «عليّ أن أقول لها. يجب أنت تعرف. ستفرح».

حين وصل إلى بيته، تجاوزته، وشرع يقرع باب جارته.

قرعه وهو يهتف:

- دونيا إنكارنا. افتحي لي الباب. عليّ أن أقول شيئاً للآنسة خوسيفينا. فتحت المرأة العجوز النافذة نصفياً.

- لا تصرخ كثيرًا، اللعنة. طففتي نائمة. ما الذي تريده؟ ما الذي تود أن تقوله لها؟
- إن بدرو إنفانتي قد جاء. وصل في القطار، والجميع ينظرون إليه.
- ما هذا الكلام الفارغ يا دانتي؟ هل تريد أن تقتل فتاتي؟
- أعتقد أنها ستسعد يا دونيا إنكارنا.
- اسمي إنكارناثيون يا طفل بحق الرب!
- حسنًا، أيًا كان.. أقول فحسب إنني رأيت بدرو إنفانتي شخصيًا وهو ينزل من القطار.
- انظر يا دانتي. من الأفضل ألا تقول شيئًا لطفلي، فقد تسوء الأمور.
- لكن..
- من دون لكن.. يجب أولاً التحقق ممن هو بدرو إنفانتي هذا الذي نزل من القطار.

أدرك المسافر أننا لم نكف عن النظر إليه. قُرب متاعه إلى جدار من الزنك، ورفع قبعته الـ«سومبريرو» إلى وراء (كما اعتاد أن يفعل بدرو إنفانتي في أفلامه)، وفيما يحمل آله الغريبة، اقترب منا وهو يبتسم. لقد ابتسم بطريقة بدرو إنفانتي نفسها في أفلامه!

- أهلا يا أصدقاء! هل تريدون رؤية اللعبة التي جئت إليكم بها؟
- في ظل ارتباكنا، اقتصر كل ما فعلناه على إبداء الموافقة بإيماءة برؤوسنا، فأمسك بكل التآني الموجود في العالم بالجزء الطويل من الآلة وفتحه إلى ثلاثة قوائم، ووضع كل منها على الأرض إلى أن ساوى بينها.

بعدئذٍ، ركب فوق هذا الحامل الثلاثي جزءًا آخر: صندوقًا أسود معدنيًا، له عين زجاجية أمامية، ولديه في الخلف فتحة دائرية مزودة بغطاء أسود.

قال:

- هذا هو المخ.

وبمجرد أن فرع من تركيب الصندوق الأسود المعدني، قفز البيغاء الذي وقف على كتفه ليستقر فوقه. سأل توأم بدرو إنفانتي:

- هل تعرفون ما هذا يا أصحاب؟

قلنا جميعًا:

- ببغاء.

- لا. لا. أسألكم عن الجهاز. إنها آلة فوتوغرافية بصندوق. تُخرج الصور في ظرف دقيقة. هل تريدون أن ألتقط لكم واحدة؟

في الليلة التي مات فيها بدرو إنفانتي، ملأ رجال «لوس دونيس»، الذين تقوست سيقانهم وتلطخت أجسادهم بالسخام، الحانات والمقاصف بيأس مجموعة من الحيوانات الجريحة. ومع أنهم اعتادوا الثمل في أيام قبض الرواتب، فإنهم في تلك المرة حظوا بسبب لا يمكن التشكيك بخصوصه كي يثملوا من دون إحساس بالذنب أو رغبة في الاعتذار. شربوا في صحته، وتكريماً له. شربوا وهم يسمعون أغانياته. شربوا وهم يغنونها معه. شربوا وهم يبكون كما يبكي الرجال الحقيقيون، بل كالمجدلية ذاتها. شربوا كثيرًا وقرعوا كؤوسهم نخبًا لـ«الباز غليظ المنقار»⁽¹⁾ إلى درجة أنهم في تلك الليلة قضوا على كل زجاجات وقنان

(1) اللقب الذي عُرف به بدرو إنفانتي. (المترجم).

وقوارير كل المنشآت الحاملة لتراخيص بيع المشروبات الكحولية، بل وبلغت نسبة الغائبين عن العمل في اليوم التالي خمسين في المائة.

بالنسبة إلينا، نحن معشر النساء، أرامل الفارس المكسيكي اللاتي لا يُمكن مواساتهن، ففي ليلة موته، بكينا عليه كما فعلت آلاف النساء في كل أنحاء العالم ونحن نستلقي على أسرتنا، بشعر أشعث من شدة الألم، بل إنَّ المستوطنة شهدت محاولة انتحار، ولحسن حظ الفتاة، فشلت. لكنها اتشحت بالسواد، وحبست نفسها في غرفتها، وأقسمت إنها ستظل تحب بدرو إنفانتى إلى ما بعد حدود الموت.



وصل أغلبنا للعمل في البامبا قسراً من أعمق أعماق ريف جنوب الوطن. جلبونا كالماشية في مستودعات سفن العبودية أو بعد حشرنا في «القطار الطولي الشمالي»، ولهذا لم نر شيئاً. الأمر كأننا أغلقنا أعيننا قبل الرحيل، ووجدنا أنفسنا هنا حين فتحناها. تغيرت أحوالنا في ظرف يوم وليلة من زقزقة العصافير إلى صمت التلال الجرداء، ومن استخدام المخزات الخشبي إلى حمل عضادة خشبية يبلغ وزن الواحدة منها 25 رطلاً ومن تبرعم البنور إلى انفجار الديناميت. لكننا لم نرَ لا هناك، في الريف، ولا هنا في الصحراء، آلة فوتوغرافية، ولم نتعرف إلى أي مصور.

فلنأكل البذر ونإنقائني به لنسجد يا ربهم بعد أن أنقائني به

- الأمر أكثر من هذا، بل إن كثيراً منا لم تلتقط له أي صورة أصلاً.

الحياة كلها ليست مفرقة *** الحياة كلها ليست مفرقة

سأل أحدنا، وهو ملاكم المستوطنة الذي اعتاد أن يمضي متعجلاً وهو يلکم الهواء، عن الوقت الذي ستستغرقه الصورة في الخروج.

- وهذا لأن بعضنا لديه وردية من الثالثة إلى الحادية عشرة ولم نتناول غداءنا بعد.

قال المصور بفخر:

- هذه الصور تخرج في ظرف دقيقة يا أصدقاء.

جعلنا نتلاصق عند أحد مقاعد رصيف القطار ورتبنا بحيث لا يبقى أحد خارج الإطار. بعدئذٍ، أدخل ذراعه في الصندوق عبر الغطاء الأسود، وعقب دقيقة من تحريكه لأشياء لا نعرف ماهيتها من دون أن ينظر إليها، طلب منا أن نرفع رؤوسنا وألا نتحرك.

- جاهزون؟ انظروا إلى العصفور!

وضغط زرًا:

- انتهينا. يمكنكم أن تتنفسوا.

وضع ذراعه مرة أخرى داخل الغطاء الأسود، واستعمل يده مرة ثانية ثم أخرج صورة بدونا فيها جميعًا مُهقاء.

- هذه هي الصورة السالبة.

غمسها في وعاء ملآن بالماء مُلحق بإحدى سيقان الحامل الثلاثي، ثم وضعها بالمقلوب على شيء يشبه ذراع مفصلي من الخشب، ثم أسندها أمام العدسة. كرر العملية بتصوير الصورة السالبة، وهكذا حصل على اللقطة الموجبة، أو بمعنى آخر: الصورة النهائية. حدث كل هذا في ظرف سبع أو ثماني دقائق.

قبل أن يُسلمها لنا، غمسها مرة ثانية في الماء. ثم نفث بفمه ورفعها بعض الوقت في الهواء:

- امسكوها في أيديكم إلى أن تجف جيدًا.

وجدناها صورة مثالية. لم يخرج أحد من إطارها. بينما نمررها من يد إلى يد ضحكنا بتوتر ونحن نرى أنفسنا بالصورة التي ظهرنا بها.

- وكم ستكلفنا هذه النكتة يا صاحبي؟

- لأنها أول صورة أصنعها⁽¹⁾ هنا، فهي بالمجان يا أصدقاء. انشروا فقط خبر أنني غداً سأكون في الساحة. لديّ صور بحجم البطاقة البريدية كهذه، وصور أخرى بحجم نصف بطاقة.

في اليوم التالي، وقف المصور بآلته وثلاث ستائر للخلفيات في الميدان الحجري الصغير أمام السينما. قبلئذٍ، رافقناه إلى قسم السلامة، كي يستخرج التصريح. لم يواجه مشكلات. أظهر بطاقة نقابة المصورين وفي ظرف دقيقة صار كل شيء جاهزاً. لما فرغ من الإجراءات، شكرنا. لم تكن هناك أي فرصة كي تسوء أموره في يوم مثل هذا.

سألناه:

- لماذا؟

- لأن اليوم، التاسع عشر من أغسطس، هو اليوم العالمي للتصوير. في اليوم السابق، في المحطة، بعد أن التقط صورتنا، سألنا أين يمكنه أن يقيم. جاء وهو يعلم أنه لا وجود لفنادق أو نزل هنا، ولأن بعضاً منا لم يعمل في أيام الأحد، رافقناه إلى المقصف، المكان الوحيد الذي توجد فيه غرفة للإيجار، ووراءنا سرب من الأطفال الذين ساعدوه في حمل متاعه.

بعد أن وصل إلى المقصف، ومفتاحه في يده، سألنا ما إذا كان هناك شيء أفضل من هذا، فالحرفة عبارة عن حُجرة صغيرة من الزنك

(1) سيتبين القارئ لاحقاً لماذا استخدمت فعل «أصنع» وليس «ألتقط». (المترجم).

ذات أرضية خشبية، بحجم أربعة أمتار في أربعة أمتار، ولها باب مطل على الشارع. ارتكز كل أثاثها على فراش من الحديد المصقول وكومود ومقعدين، وخزانة ملابس ملحقة بالحائط ولا شيء سوى هذا.

قلنا له:

- لكن فيها دُش وأرضية خشبية وهذا ترف كبير في البامبا.

قبل أن نودعه، قال الأكثر حُبًا للتدخل في شؤون الآخرين بيننا، وهو رأس حربة وهداف منتخبنا لكرة القدم:

- اعذرني على السؤال يا دون: لكن لماذا اخترت «لوس دونيس»؟

- لأنني مصور جوال، ولهذا السبب فإنني أزور في كل عام، بين الربيع والصيف، منتجعات الساحل الأوسط وجنوب البلاد وصولاً إلى تشيلويه، لكن في الشتاء، تُخلي الأمطار الساعات والحدائق الجنوبية، ويتدهور العمل. لهذا، كما يفعلون في السيرك، أنتقل شمالاً، لكنني لم أصل من قبل إلى لا سيرينا. في هذا العام، نصحتني عجوز عمل في هذه الأثناء، أن أمد جولتي إلى البامبا. قال إن مستوطنات الملح الصخري أرض عذراء للمصورين، وأوصاني بأن أبدأ بـ«لوس دونيس»، المستوطنة التي عمل فيها لسنوات.

- ألم يحك لك العجوز أن حبيبتك تعيش هنا؟

وحين قال رأس الحربة عبارته، انفجرنا جميعاً في الضحك.

اسم الفتاة خوسيفينا. عمرها واحد وعشرون عاماً وجمالها من عالم آخر. أردنا نحن، معشر الفنانين، أكثر من مرة أن تشارك في مسابقة «ملكة جمال الملح الصخري»، لكن جدتها دونيا إنكارناثيون لم تقبل

قط. كانت خوسيفينا شقراء ونحيفة ولها عينان خضراوان قادرتان على إذابة الحديد. وبخلاف إحساس الشهوة البريء الذي تُثيره، امتلكت ضحكة قادرة على هز الجبال.
حسنًا. كل هذا قبل مأساتها.

إنها الابنة الوحيدة من زواج انتهى بالانفصال قبل أن تُكمل عمر الثالثة. خانت أمها أباه، الميكانيكي الخراط، فتركها وعاد إلى الجنوب. بعدئذٍ، سافرت أمها، وهي ممرضة شابة، إلى المدينة. يُفترض أنها فعلتها لإنهاء بعض الإجراءات، لكنها لم تعد قط. ربتها جدتها من ناحية أمها. دونيا إنكارناثيون، وهي أرملة مهندس مدني وتمتلك، بالشراكة مع متعهد أفلام، مصنعًا للثلج، هو الوحيد في المقاطعة كلها. صارت الحفيدة خوسيفينا سبب العيش لدونيا إنكارناثيون، ولأن عملها سار بشكل جيد، أرضتها في كل شيء.

بلغ عمر خوسيفينا اثني عشر عامًا حين شاهدت للمرة الأولى فيلم «حين يتحدث القلب» لبدرو إنفانتي، وعلى الفور صارت أكثر المعجبات تعصبًا للمغني والممثل المكسيكي. كان غرامًا صاعقًا.

ومنذ تلك المرة، أقسمت خوسيفينا إنها لن ترى فيلمًا لا يعمل فيه حبيبها، وإنها لن تصعد أبدًا إلى صالة آلة العرض مع متعهد الأفلام الذي لطالما منحها تذاكر مجانية وحجز لها أفضل مقعد في السينما.

لطالما قال المصور إنه على دراية بالشبه بينه وبين الممثل المكسيكي، لكنه اعترف بأن الأشخاص الذين أدركوا هذا قبل وفاته كانوا قلة. بعدئذٍ، تغير الوضع بالكامل، بل إن الأشهر الأربعة الأخيرة صارت لا تُطاق، فأينما سار، ومهما بالغ في عرجه، لم يتوقف الناس عن

النظر إليه وكأنه إعادة تجسيد حية له. هكذا، بات مضطراً إلى تجاهل الشبه الذي يجمعه به، وفي محاولة منه لإفساد انبهار الناس، وبالأخص النساء، أفرط في إكساب عرجه طابعاً مأساوياً، ولم يتوقف عن الحديث، لأن صوته الخشن لم يشبه صوت الممثل على الإطلاق.

وهذا ما فعله في ذلك الصباح حين أدرك أننا نحن النساء من جئنا إلى الساحة فحسب. كنا نساء وأطفالاً (فلأنه يوم إثنين عمل أغلب الرجال حينذاك). بينما انشغل الأطفال بالفرجة على ستائر الخلفيات، أو شرعوا يتفحصون الآلة كأنها جهاز فضائي، وقفنا لمراقبته بافتتان، كأنه فعلاً شخص قادم من عالم آخر، ولإخفاء شعورنا هذا طالع بعضنا حظه، فيما طلب البعض الآخر منه أن يصنع لهن صوراً. مع ذلك، لم تغب أولئك اللاتي ذهبن إليه مباشرة لمطالبتة بالتوقيع على أوتوجراف، أو للمسّه، أو وهن يرجونه كي يغني لهن أغنية صغيرة، ولهذا، لم يتوقف عن العرج والحديث طوال الوقت، لكسر حالة السحر.

سمعنا المتبجحة زوجة حارس مرمى «نادي الجمعية الاستهلاكية لكرة القدم» وهي تقول: يا خسارة! يتكلم أكثر من سرب من البيغاوات! رد البعض منا عليها بقول: مع أن صوته لا يشبه بدرو إنفانتي، لكن فيه بحة ذكورية جذابة جداً.

لم يتوقف حبيبنا، بدرو إنفانتي المصور، عن الحديث طوال النهار بصوته الرملي، الذي مع ذلك لم يخل من جانبه الحسي. حكى قصصاً ترتبط بآلات التصوير الصندوقية ضمن أمور أخرى. حذرنا من عدة أشياء إن خطرت لنا الفكرة السيئة لالتقاط صورة في استوديو كما تفعل النساء المتأنقات (وهي نزوة تمنى ألا نستسلم لها). أولاً: أن سعرها كأن تفقد عيناً ونصفاً من وجهك، وثانياً: أنهم سيتأخرون أياماً

في تسليم النتائج، وثالثاً: أننا سنضطر إلى الذهاب إلى الاستوديو، مهما كان بعيداً. لكنه، على النقيض من كل هذا، يطبعها في ظرف دقائق، ولا يقبض الكثير، ويسلمها لنا هنا.

- لسنا مصوري الشعب من فراغ. مهمتنا هي دمج الصورة والتصوير. أيضاً، كما قال أستاذي أنخل كوستوديو ميادو، المصور اللحظي العظيم: «صورة الاستوديو تلتقط البدلة، الصورة اللحظية تلتقط الروح».



لما عاد المصور إلى الساحة مساءً، وفيما يُركب ستائر الخلفيات، ظهرت العجوز. علمنا نحن كل من في المستوطنة أنها ستأتي. سمينها: «إمبراطورة الثلج»، لا لأنها صاحبة مصنع الثلج فحسب، وإنما لأنها بدت دائماً كأنها تعاني البرد مهما كان النهار مشمساً. بخلاف الشال الصوفي الذي ارتدته حينذاك، ربطت أيضاً منديلاً على رأسها أظهر بعض خصلات شعرها الضاربة إلى الزرقة.

لما رآها المصور، أدرك أنها لم تأت لالتقاط صورة، وقد أصاب في هذا. بدأت المرأة تلف حوله هو والآلة من دون أن تتوقف عن النظر إليه، فيما نظر إليها هو بمواربة. في تلك اللحظة، كان منشغلاً بالتقاط صورة لشقيقين صغيرين لم يقفا ساكنين بأي شكل. حين تمكن في النهاية من دفع الطفلين إلى النظر إلى العصفورة، ظلت المرأة تحديقاً إليه من دون أن ترمش. تحدث معها المصور لتخفيف حدة الوضع:

- هل تودين أن ترى ما الذي يجلبه الحظ لك اليوم يا سيدتي؟
صرخ الببغاء:

- الحظ! الحظ! شُف حظك!

حين سمعت العجوز الببغاء، بدأت ابتسامة خفيفة ترتسم على وجهها ووافقت. سألتها المصور عن اسمها وبعدئذٍ خاطب الببغاء:

- هيا يا «زيتونة»! شُف لنا حظ إنكارناثيون!

هز الببغاء رأسه، واقترب من العلبة الصغيرة، وأمسك إحدى القصاصات الورقية بمنقاره ومد رقبتة في اتجاه المرأة.

قال المصور:

- اقبلها منه يا سيدتي.

مدت المرأة ذراعها بشك، وأخذت الورقة، وفردتها وقرأتها. بدت كأن ضوءًا صغيرًا قد أثار داخلها. حينئذٍ، تحدثت. أوحى إيقاع صوتها بأنها عجوز طيبة ولم يتماش مع تعبيرات وجهها:

- هل يمكنني أن أطلب واحدة لحفيدتي؟

سأل عن اسمها.

- «زيتونة»! شُف لنا حظ خوسيفينا!

كرر الببغاء كل ما فعله مرة ثانية. أخذت المرأة قصاصة الورق هذه المرة بثقة أكبر. قرأتها ووضعت الورقتين في صدر قميصها، ثم أخرجت محفظة من فتحة الصدر نفسها، وجاءت منها بورقة نقدية، ودفعت له وشكرته ورحلت. ابتسم المصور.

حملت القصاصتان عبارتين سعيدتين.

حين غادرت المرأة، اقترب المسؤول عن ري أشجار الخروب الثلاثة وشجرة الفلفل الموجودة في الساحة من المصور وقال:

- هل تعرف من هي يا صاحبي؟ إنها دونيا إنكارناثيون، جدة حبيبك!

ليلاً، بينما يتناولون العشاء في المقصف، سأله بستانى الساحة،
الذي يظهر أيضاً في صورة المحطة، كيف خطرت له فكرة ببغاء الحظ.
شرب المصور كوب النبيذ الأحمر وقال إنه رأى في إحدى قرى الجنوب
عجوزاً يعزف الأرغن يفعل الشيء نفسه، لكن مع قرد يرتدي بنطلوناً
وقميصاً، وإن كان قد اختار الببغاء، فهذا لأنه لن يضطر إلى إلباسه شيئاً
وسيكون أرخص من ناحية التغذية: بذور زهور عباد الشمس، والبشّة،
والخبز المجفف، والماء وبعض الحشرات (والحشرات هذه مهمة الببغاء
بمفرده بالطبع).

قال:

- أما القرد، فسيبدو الأمر كأن لديك طفلاً.
- ولماذا سميته «زيتونة»؟
- خطر لي هكذا ببساطة. بعدئذ أدركت أن الاسم يتماشى مع لون
ريشه الأخضر الزيتوني، وأفضل شيء أن الببغاء تعلمه سريعاً.

عن صور ضائعة وموجودة (1)

البناية من صفائح الزنك. في زاوية الصورة، يقدر المرء على رؤية لافتة بأحرف خشبية تقول «محطة لوس دونيس». يتلاصق مجموعة من العمال على مقعد الرصيف لكيلا يبقى أحد خارج الصورة. قد يُخمن المرء، بناء على وضعيتهم فحسب، مهنهم أو موهبتهم، فهذا بسبب طريقة قرفصته يبدو لاعب كرة قدم، أما ذلك الآخر بسبب رأسه المنحني وطريقة نظره المتقدمة من الأسفل، فلا بد أنه ملاكم. بالنسبة إلى الأطول، والأكبر سنًا، فلا بد أنه ناج من إحدى المذابح، إذ ينظر إلى الكاميرا كأنه على وشك الإعدام بالرصاص. جلدهم كلهم مدبوغ بسبب قساوة الجو. تنظر بائعتا الحلوى الجالستان في المنتصف وسلالهما فوق تنورتهما، إلى المصور بافتتان، كأنهما تشاهدان شابًا وسيماً من فيلم مكسيكي.

في الصورة لمسة من الحنان بالأطفال الذين تسللوا في اللحظة الأخيرة. يجلسون على الأرض وهم حفاة، بشعرهم الأشعث، ووجوههم التي تبدو كأرانب مفزوعة. إنهم الوحيدون الذين ينظرون إلى العصفورة.

استهل المصور عمله في «لوس دونيس» بشكل جيد، فقد التقط، كما حكى بعدئذٍ، عشرات الصور في الساحة، كما أراد الجميع من «زيتونة» أن يسحب لهم حظهم. كذلك، حصل على طليين لالتقاط صور في البيت. واحدة لتصوير «ملاك ميت»، والثانية لتصوير زوجين عجوزين. الملاك الميت طفل عمره أحد عشر شهرًا تقريبًا، واضطر إلى تصويره في سهرة الجثمان التي سبقت جنازته. كانت واحدة من أحزن الصور التي التقطها حتى تلك اللحظة.

كان تصوير الزوجين المسنين معقدًا بشكل كبير. رفضت المرأة أن تقف لالتقاط الصورة. خافت من الآلة. قالت إنها تذكرها بالمدافع الرشاشة التي ثبتوها فوق مدرسة سانتا ماريا في إيكيكوي؛ فتلك المعدات الجهنمية أيضًا جاءت بثلاثة قوائم. أصرت بناتها، فعاندت هي بالتشبث بباب غرفتها كأنها طفلة عمرها خمس سنوات. لتبرير سلوكها، قال العجوز إن زوجته فقدت أمها وأخاها في مذبح سانتا ماريا، وبدأ يحكي كيف تمكنا من النجاة بحياتهما من المدافع الرشاشة، ففي مساء ذلك اليوم، الموافق الحادي والعشرين من ديسمبر من عام 1907، طلبت منه جريجوريا بيثيّرًا، أم زوجته، بصفته حبيب ابنتها، أن يُخرجها من المدرسة ويأخذها في نزهة إلى الشاطئ. فعلتها بسبب شعورها بالقلق، لقد غارت خلال الإضراب كثيرًا على ابنتها، ولم تتركهما يلتقيان بمفردهما تقريبًا. حين وصلا إلى الشاطئ وبعد أن مارسا

الغرام -في المرة الأولى لكل منهما- سمعا صوت دفقات طلقات المدافع الرشاشة. فهما حينذاك أن الأم قد استشعرت أن الجنود سيطلقون النار. في تلك المذبحة، بخلاف آلاف القتلى والمصابين والدماء التي سالت عبر الشوارع، سقطت جريجوريا بيثيرًا قتيلة، هي وابنها «خوان دي ديوس»، الشقيق الأكبر لزوجته.



إنها التاسعة والربع ليلاً. جلس المصور في غرفته وهو يتحضر للعشاء وحينئذ دق بابه. إنه أحد الأطفال الذين تسللوا إلى صورة المحطة، وهو بنفسه من ساعده على حمل جانب من متاعه. تعرف المصور عليه. كان الأكثر تجهماً في المجموعة.

بعد تحيته، دخل الطفل مباشرة في صلب الموضوع:

- ما رأيك إن التقطت صورة لي غداً أنا وحببتي خارج السينما ونحن نشير إلى أفيش الفيلم؟

الطفل هو الأخ الأكبر لدانتي وعمره خمسة عشر عاماً.

قال:

- وهو عمر حببتي نفسه. لم يغادر أي منا «لوس دونيس» ولم نلتقط صورة لنا معا قط. التقطها حضرتك لنا، وسأسدد الثمن بحمل متاعك في يوم رحيلك. ما رأيك؟

- أنت جيد في التفاوض، أليس كذلك؟

- الأمر وما فيه أنني سأدرس العام المقبل في المدينة، وسأظل مدة عام كامل من دون رؤيتها.

- هل حبببتك جميلة؟

- جميلة جداً واسمها روثيو.

- وأنت؟

- اسمي مانويل.

- اتفقنا يا مانويل. اذهبا غداً إلى الساحة وسألتقط لكما صورة.

جميل؟

قال الطفل وهو يفرك يديه:

- ممتاز.

- لكن بمناسبة حبيبتك، أريدك أن تحكي لي الآن كل ما تعرفه عن

المرأة التي يقول الجميع إنها حبيبتي. أفترض أنك تعرفها.

ابتسم الطفل:

- كيف لي ألا أعرفها؟ حبيبتك هي جارتِي.

ما شعرت به خوسيفينا وهي طفلة تجاه بدرو إنفانتي ليس مجرد إعجاب. لقد أغرمت الفتاة بصورته الفيلمية حتى النخاع. لطالما قالت: «حبيبي بدرو»، وكلما عُرض فيلم له في السينما، ذهبت لمشاهدته في حفلات الصباح والمساء والسهرة.

«حين تكبر سيتبخر هذا الجنون من رأسها». هذا ما اعتادت أن تقوله جدتها إنكارناثيون. مع ذلك، بدا هذا الشأن كأنه يسير بالعكس، فبعد أن كبرت خوسيفينا وصارت مراهقة جميلة، ثم أنسة صغيرة، ازداد إعجابها بالمطرب المكسيكي فوراناً وشغفاً، وكاد يتاخم حد المرض.

اشتريت كل أسطواناته وأوصت في المدينة بإرسال مجلات لم تصل إلى المستوطنة وقد تظهر فيها أي صورة له. اكتست جدران غرفة خوسيفينا بإطارات وأفيشات الممثل، وكلما وصل فيلم جديد

لبدرو إنفانتي، قال متعهد الأفلام -بمداهنة مفرطة- للجدة: «قولي لخوسيفينيتا إننا غدا سنعرض فيلمًا جديدًا لحبيبها».

في تلك الليالي لم تنم خوسيفينا، وإنما قضتها وهي تمسد شعرها، وتجرب العطور، وتختار وتحضر الملابس التي سترتديها في اليوم التالي للذهاب لمشاهدة حبيبها.



إنه ثالث يوم له في «لوس دونيس» وشعر بالسعادة. سارت أموره بشكل جيد وتعرف إلى قوم طبيين، مع أنه وصل من سانتياجو بحكم مسبق يقول إن أهالي البامبا طينتهم سيئة، وهذا بسبب ما حكاه له ذلك العجوز الذي قاده إلى المجيء إلى البامبا وهو يبكي، لأنه قبل شهر من رحيله عن المستوطنة وتوجهه إلى العاصمة مع عائلته، انتحرت ابنته ذات الثلاثة عشر عامًا. قالت في الرسالة التي تركتها إن رجلًا كبيرًا في السن في «لوس دونيس» استغلها طيلة فترة طويلة، لكنها لأجل مصلحة أبويها لن تكشف عن اسمه لأنها لا تريد أن يحدث لهما شيء سيئ بسبب رغبتهما في الثأر.

أثنى المصور على مدى طبيتنا نحن أهالي البامبا مع أي شخص توقف للدردشة معه في الساحة. حاولنا إنزاله مرة ثانية إلى أرض الواقع. قلنا له ألا يفرط في الثقة، فهنا لدينا بشر من كل صنف ولون، ككل أراضي الرب، لكنه بينما يرفع سبابته، أكد أنه يعرف ما يقوله، لأنه اكتشف نظامًا معصومًا من الخطأ لقياس جودة البشر أخلاقيًا وإنسانيًا.

عمد هذا النظام باسم: الـ«خفيتر»!

الموضوع بسيط ويرتبط بقطع القماش التي حملها بمواربة فوق ظهره حين نزل من القطار وتبين أنها خلفيات التصوير، وهي خلفيات

من إبداع الرسام خوليو لوثيرو بجلالة قدره، أفضل مورد لهذه اللوحات القماشية في جنوب تشيلي. رُسم على واحدة منها سيارة آخر موديل، وعلى الثانية فتاة ترتدي البكيني إلى جوار نخلة في شاطئ ذي مياه تركوازية، وعلى الثالثة مشهد جنوبي لمزرعة، وشجرتي صفصاف، وبيت طوبي، مع خلفية جبلية. وبسبب الوقت الذي قضاه في هذه الصنعة، صار بإمكانه بسبب هذه الخلفيات أن ي اخترع مثلاً خاصاً به: «قل لي أي خلفية تريد، وسأقول لك من أنت».

وفقاً لنظريته، تجذب الخلفية الأولى الأرواح السلبية، والثانية تلك المحايدة، والثالثة النفوس الإيجابية. أكد أن أغلب أهالي «لوس دونيس» انجذبوا إلى الخلفية الثالثة.

ما تقوله لا يثبت شيئاً.

إنها محض نوستالجيا.

بهاتين العبارتين، اعتدنا أن نفند حجته.

حكى المصور أنه حين بدأ مسألة ببغاء الحظ اعتاد أن يكتب جملاً سعيدة وغيرها على القصاصات، وأن يمزجها، ليترك النصيب والببغاء يختاران من الذي سيتسلم هذه الرسالة أو تلك، لكن مع مرور الوقت رأى أن هناك قومًا في هذا العالم يحتاجون فعلاً وبشكل ملح إلى كلمة تمنحهم متنفساً، وبالمثل أن هناك أبناء عاهرة آخرين يستحقون توبيخاً شديداً. حينئذٍ، ابتكر حيلة صغيرة. وضع العبارات السعيدة في جانب والمشؤومة في جانب آخر، ولأن الببغاء يمسك بمنقاره من الجانب الأقرب له، فإن مسألة اختياره هذا الخيار أو ذاك، ارتبطت بلف العبارة بصورة لا تراها الأعين.

لاحقًا، أدرك وجود عيب في عبارته التسويقية، فحين يقول «اعرف حظك!»، قد يفهم الزبون أن الرسالة، سواء أكانت سعيدة أم تعيسة، ستدوم بقية حياته، وبالتالي لن يأتي مرة ثانية، وأنه بهذه الصورة سيكسب مالا قليلا، ويخسر مالا كثيرا. كان قد تيقن بالفعل من أن الجميع تروقهم معرفة ما تنتبأ به ورقة الحظ، سواء أكان هذا بدافع الإيمان أم التسلية، أم بسبب مزيج بين الاثنين معًا؛ وبالمثل أنهم مستعدون للدفع من أجله. بهذه الطريقة، عدل عبارته، وصارت مثل حظ الأبراج: «اعرف حظك اليوم!»



منذ يومه الأول في «لوس دونيس»، صار للمصور أصدقاء يتحدث معهم، وخصوصًا ثلاثة أشخاص: مرشد مقاعد السينما، الذي التقاه يوميًا في الساحة عقب انتهاء الحفلة الصباحية، ورئيس ورديّة المنجم، والمسؤول عن ري أشجار الساحة. أقام هذان الأخيران في المقصف، وكان بإمكانه السهر للدردشة معهما وشرب النبيذ بعد العشاء لتقصير ليالي الصحراء الطويلة.

في تلك اللقاءات الكحولية، حكى لهما المصور نوادر فوتوغرافية، لكنه لم يأت قط على ذكر حياته الشخصية، إلى درجة أنهما بعد ثلاثة أيام من الشرب معًا، لم يكونا قد عرفا اسمه بعد، ولهذا نادوه ببساطة بـ«المصور»، وفي أوقات المزاح أزعجوه بمناداته بـ«الباز غليظ المنقار». اعتاد أن يبتسم فحسب، لكنه لم يكشف شيئًا. فقط، في الليلة الثالثة، بعد أن شربوا ثلاث زجاجات من النبيذ، تجرأ على سؤاله مباشرة ما إذا كان يعرف شيئًا عن حبيبة بدرو إنفانتي.

قال وهو يتظاهر بالسذاجة:

- أيهن؟ لأنني قرأت أنه حظي بالكثير منهن هنا.

ابتسم بستاني الساحة بفضاظة:

- وماذا عنك يا صاحبي؟

قال المصور وهو ينظر مباشرة إلى عينيه:

- وأنا؟

حين ظن عامل الساحة أنه سيتلقى ضربة على رأسه، أمسك المصور كوبه وأفرغه في جوفه مرة واحدة. بعدئذٍ، بينما ينظر إلى قاع كوبه الخاوي، قال إنه على النقيض من بدرو إنفانتي لم يحظ إلا بحبيبة واحدة في حياته، وهي المرأة نفسها التي تزوجها.

- لكنها ماتت بعد عامين من زواجنا. لم نتمكن حتى من أن نحظى بابن. اسمها كاتالينا، ومعنى اسمها المرأة الطاهرة. كانت ابتسامتها شفافة كماء شلال. لم أر امرأة لديها ابتسامة بمثل هذا الجمال قط.

لحظتذاك، جعلهما يرفعان كأسيهما واقترح بنبرة وقورة نخباً من أجلها.

قال:

- قبل كاتالينا وبعد كاتالينا، النساء كلهن طيور عابرة في حياتي.

عن صور ضائعة وموجودة (2)

واجهت السينما من الزنك. يظهر أفيش فيلم اليوم فوق رأسَي الصبي والفتاة. لا يُمكن قراءة اسمه، لكن قبعات الـ«سومبريرو» تصرخ بأنه فيلم مكسيكي. يبدو الشاب والفتاة أخرقين. تعانقه من فوق كتفه، وهو من خصرها. يبتسم كلاهما بخجل ويشير كل منهما بيده إلى الأعلى، في اتجاه الأفيش. يرتدي الشاب بنطلون «بيكوس بيل» وقميصًا أبيض، وشعره مُصفف على طريقة إلفيس بريسلي. بالنسبة إلى الفتاة، فتبدو خجولة. ترتدي فستانًا طبعت عليه زهور، وسترة منسوجة بلا أكمام ومزررة حتى نهايتها، وشريطًا في شعرها. لا يزال جمالها الطاهر فيه بعض اللحظات الطفولية.

قد تكتسب الصورة قيمة عاطفية أكبر حين يعلم المرء أن الفيلم الظاهر في الأفيش قد عُرض منذ عام بالضبط، وأنهما قَبَلا بعضهما لأول مرة، وهما يشاهدانه.

تعرفنا إلى بعضنا في ميدان «أرماس» في سانتياجو. بلغ عمري ثمانية وعشرين عامًا، وهي خمسة وعشرين. حين ظهرت، كانت قد مرت تسع سنوات على استقرارى في الساحة. حدث هذا في مساء أحد، كرية مثل كل أماسي الآحاد. أظلمت السماء بغيوم رمادية، وكلل أماسي الآحاد، كان أغلب الأشخاص القلائل الذين مروا عبر وسط المدينة وصولاً إلى الساحة من الموظفين الحكوميين المتقاعدين، وجنود جيش في عطلاتهم، وغجريات يطلبن المال، وخادمت يعشن في بيوت أرباب عملهن.

قالت:

- أريد أن تلتقط لي صورة.

في ذلك اليوم، ككل أماسي الآحاد، لم يكن مزاجي جيدًا.

قلت لها:

- هل تعرفين يا آنسة؟ أنا لا ألتقط الصور، بل أصنعها.

ظلت تحديق إليّ ولم تقل شيئاً، لكنها أشهت أكثر أسلحتها الحربية إماتة. ابتسمت، ففتنتني! بدت فعلتها كأن الشمس قد أشرقت.

لم أتركها ترحل بالطبع.

أصررت على أن أصنع لها أفضل صورة في حياتي. اقتربت منها بالحديث، ثم دعوتها إلى شرب القهوة. بينما نجلس ونتحدث عن أشياء

عشوائية، بدأت تنظر إليّ فجأة كأنها قد رأنتني للتو وقالت إنها ستحكي لي شيئاً مرحاً. لقد رأيت منذ بضعة أيام فيلماً لمطرب مكسيكي جديد، وهي تعتقد الآن أنني أشبهه جداً. اسمه بدرو إنفانتي. هذا ما قالت، ومع أنني لم أعرف من الذي تتحدث عنه، شعرت بالثناء. حينذاك، لم يكن الحادث الذي أصابني بالعرج قد وقع.

قالت:

- أيضاً، قبعتك مثل التي ارتداها في الفيلم.

قلت بتباه:

- خطأ! هو من يرتدي قبعة مثل التي أستخدمها يومياً في صنعتي. إنها من تالكا، وكانت قد مرت سبع سنوات على مجيئها إلى العاصمة للعمل كخادمة في بيت أحد التجار. تزوجنا بعد مرور شهرين. سلمت الحجرة التي أجزتها في سكن شعبي جماعي وذهبنا لنعيش في بيت خشبي صغير عند حدود حي بيابيستا. بعد عام ونصف من زواجنا، شخصوا إصابتها بسرطان الثدي. استمر ستة شهور، وحدث هذا منذ عشر سنوات.

حتى عمر الثامنة عشرة، لم تقبل خوسيفينا دعوة أي من شباب المستوطنة للمواعدة. قال البعض إن لها ميولها. قال آخرون إن جدتها، «إمبراطورة الثلج»، لم تسمح لها بالمواعدة. قال أذكى من فيهم إن خوسيفينا تعاني عقدة تجاه الرجال وإن المسؤول هو متعهد عرض الأفلام، وإنه جعلها منذ طفولتها المبكرة تصعد، قبل الأفلام، إلى حجرة آلة العرض، وإن مرشد مقاعد الصالة ضبطه مرتين والفتاة جالسة فوق ركبتيه.

في الفترة الواقعة بين عاميها السابع عشر والثامن عشر، بدأت خوسيفينا تتحدث في السينما، أو بالأصح تفكر وهي تتحدث، وبدأت كأنها لا تدرك هذا. لم يعد أحد يرغب في الجلوس بالقرب منها لأنها اعتادت أن تُعلق على كل حركة صادرة من الممثل. أرسلت إليه قبلاتها كلما احتلت صورة وجهه الشاشة، وكلما غنى غنت معه (فقد حفظت كل أغنياته)، ومع أنها كانت آنسة محترمة بالتمام والكمال، فلطالما دعت الممثلات حين يُقبلنه بالعاهرات.

أصرت دونيا إنكارناثيون على أنها خارج السينما كانت فتاة عادية تمامًا، ولطالما قالت إن إنفانتي هذا له صلات معينة بالشیطان، وإنها يجب عليها أن تتحدث مع القس، لكي يمارس عملية طرد الأرواح معها، ليحررها من هذا السحر.



انبهرت دونيا إنكارناثيون بالشخصية التي جاءت لتَهز عيشتنا القطران، ولم تجد بُدًا من الاستسلام لليقين الواضح أمامها:

- بحق الرب وقدسيته! يا لوجه الشبه بين هذا الرجل والمرحوم!
لكن المعضلة التي واجهتها تعلقَت بما إذا كان عليها أن تُخبر حفيدتها بظهور هذا الشخص الذي يبدو إعادة تجسيد حية لمعبودها أم لا. شعرت بالخوف من أن يأتي رد فعلها مناوئًا.

انقسمنا نحن معشر الأهالي من النساء. قال نصفنا لدونيا إنكارناثيون ألا تفعلها وألا تحكي لحفيدتها عن بدرو إنفانتي صانع الصور، لأنه لا بُد أن جرح قلبها قد بدأ يلتئم، كما بدأت جراح معاصمها تدمل، وإن رؤية حب حياتها فجأة وهو يلتقط الصور في الشارع، إن لم يصبها بسكتة قلبية، فسيتسبب في حدوث انتكاسة قد تغدو قاتلة، فالطبيب لم ينصح

بمنعها من مشاهدة أفلام المطرب لمدة طويلة من فراغ، لهذا فبالصورة نفسها التي أخفوا بها عنها مهرجان الأفلام الذي وصل إلى المستوطنة بعد وفاة معبودها، فلا بد من أن يخفوا عنها وجود هذا الرجل، الذي بالتأكيد هو مجرد عابر سبيل هنا وسيرحل سريعاً.

على النقيض، ومن ناحية أخرى، كان لنصفنا الآخر رأي معاكس، وهو أن هذا قد يغدو جيداً لخوسيفينا، لكن لا بد من حكايته لها بشكل غير مباشر، كأنها إحدى النوادر، فربما يدفعها فضولها إلى النهوض والذهاب لرؤيته، وأنه لو لم تأت رؤيتها له بأي تأثير، فستكون على الأقل قد نجحت في الخروج من محبسها.



في الأسابيع الأولى، عقب وفاة بدرو إنفانتي ومحاولة خوسيفينا أن تنتحر، قضت أيامها وهي تبكي وتحبس نفسها في غرفتها، من دون أن تخرج ولا حتى عبر بابها نفسه. لم تذق الطعام تقريباً. عرفنا هذا من لسان دونيا إنكارناثيون حين حكته لنساء الكنيسة الصغيرة. قالت إنها اعتادت أن تتشح بالسواد، إن لم تكن نائمة، وأن تقف لتتأمل أفيشات وإطارات أفلامه، أو أن تجلس إلى جوار مشغل الأسطوانات، لتستمع إلى أغنيات الفارس المكسيكي، وكأنها موسيقى تصويرية لمأساتها.

مع ذلك، فالآن، بعد أن دملت شقوق معصمها، لم تعد خوسيفينا تبكي كثيراً، أو تُفرط في تقبيل إطارات اللقطات المأخوذة من أفلامه، أو تسرح لوقت طويل أمام الأفيشات، ومع أنها ظلت متفوقة على ذاتها وهي تستمع إلى مشغل أسطوانات الموسيقى، فقد سمعتها دونيا إنكارناثيون، كما حكّت لصديقاتها، وهي تغني مع أغنياته بعلو الصوت، وهو ما أسعد الجدة.

فسماع نشازها، كما قالت دونيا إنكارناثيون، أفضل من أن تستمر في نحيبها كأرملة لا سبيل لمواساتها.

نحو الثانية ظهرًا من يوم الخميس، دخل دانتى إلى بيت جارتة لإعادة المقص الذي اقترضته أمه من دونيا إنكارناثيون. سلمه الطفل وهو مضطرب فيما يتحدث بصوت أعلى من المعتاد:

- هل تعرفين يا دونيا إنكارنا؟

- إنكارناثيون يا طفلي بحق الرب!

- حسنًا، أيًا كان يا دونيا، لكن أردت أن أحكي لك أن مصورًا قد وصل إلى المستوطنة، وهو يلتقط صورًا في الساحة بآلة غريبة جدًّا، ولديه ببغاء يُختار لك حظك واسمه «زيتونة». لكن هذا ليس كل شيء..

يرفع صوته بشكل أكبر:

- هل تعرفين؟ المصور يشبه بدرو إنفانتي تمامًا، تمامًا، بل دعيني أقل لك كأنهما فولة وقد انقسمت إلى نصفين، كما يقولون في الأفلام.

- اسكت يا طفل بحق الرب وإلا قد تسمعك حفيدتي.

بعدئذٍ، جاءت إحدى الجارات كي تقرضها فنجانًا من السكر، وقبل أن تغادر، سألت المرأة ما إذا كانت رأته.

- من تقصدين يا جارتي العزيزي؟

- ما سؤالك هذا يا دونيا بحق الرب، إذا كانت كل المستوطنة تتحدث عن المصور. كل الفتيات أصبن بالجنون وذهبن ليلتقط لهن الصور. سأذهب أنا بعد برهة ليلتقط لي صورة مع ابني الاثنين. يقولون إنه نسخة طبق الأصل من بدرو إنفانتي.

- سمعت صباح اليوم كلامًا عنه في الجمعية الاستهلاكية. يقولون إنه يبدو توأماً للممثل.

تحمست الجارة:

- بل أكثر من هذا يا دونيا، بل يبدو كأنه بدرو إنفانتي نفسه بعد أن بُعث من الموت.

شعر المصور بالانبهار. استدعوه لتصوير ثلاثة ملائكة صغار ميتين في ظرف خمسة أيام. شرحنا له أن الوفيات بين الأطفال في البامبا مرعبة بهذه الصورة، لأنه لا وجود للمستشفيات في أغلبية المستوطنات، كحال «لوس دونيس»، وإنما مجرد وحدات صحية صغيرة يضطلع بمسؤوليتها مساعدون طبيون، في حين يأتي الطبيب نفسه مرة واحدة أسبوعياً من أقرب مدينة.

- يموت الأطفال هنا يا صاحبي من البرد، فالمدافن البامباوية ليست ملأى بقبور الأطفال من فراغ.

عقب تجربة رؤية وتصوير هؤلاء الملائكة الصغار الثلاثة، شعر المصور بأن الأهالي هنا يتنافسون حول من يُجمل ملاكه الميت بصورة أفضل، ومن الذي قد يجعله يبدو حياً بشكل أكبر في فعاليات السهر على جثته.

إنها طقوس الموت في أكثر درجاتها تطرفاً.

منذ ذلك الأحد الذي رأيناه فيه وهو ينزل من القطار بمئزره الأبيض وآلته الصندوقية ولفافة الأقمشة والببغاء «زيتونة» الذي وازن نفسه فوق كتفه، ومنذ اللحظة نفسها التي أدركنا فيها الشبه بينه وبين

بدرو إنفانتي، بدأنا نتساءل في كل واحد من بيوت «لوس دونيس»، وفي كل مائدة في أي مطعم، وفي أي صف في الجمعية، وعلى كل معقد في الساحة، وفي كل النواصي: «يا أمنا الطاهرة! ما الذي سيحدث لخوسيفينا حين تلتقي وجها لوجه مع حبيبها الذي استحال مصورا؟!».



قبل أيام من وفاة الفارس المكسيكي، عُرض فيلم «المرأة التي خسرتها» في السينما. في ذلك اليوم، لم تصل خوسيفينا إلى الحفلة الصباحية. اندهشنا جميعًا. رأها بعضنا في الجمعية الاستهلاكية وهي تشتري شيئًا من قسم الأقمشة. قال البعض إنها اشترت أمتارًا من الحرير وقال آخرون إنها كانت من الأورجانزا. الأمر الوحيد المؤكد أن خوسيفينا ظهرت عصرًا، في العرض المسائي، حين امتلأت السينما وترددت الموسيقى التي تعلن بداية العرض، فيما تسير عبر الممر الواقع في منتصف الصالة، وهي ترتدي ملابس عروس، ومعها باقة من الزهور في يديها، فيما أضاءت وجهها الذي احمر خجلًا ابتسامتها الرائعة.

وسط اندهاش السيدات، وصراخ الأطفال، وصفير بعض الرجال، تقدمت عروس بدرو إنفانتي بسلوكٍ وبطءٍ من تسير فعلاً في اتجاه المذبح. صار جمال خوسيفينا وهي ترتدي فستان العرس مهيبًا، وأكسبتها لمعة الخبل الصغيرة في عينيها الخضراوين طابعًا أكثر إثارة مما قد يطيقه أي أحد. لم يُغلق عارض الأفلام الإضاءة، وأبقاها إلى أن وصلت خوسيفينا إلى الصف الأول، حيث يجلس الأطفال. كان دانتي، ابن الجارة، قد حجز لها مقعدًا. لم نقدر على فعل شيء إلا التصفيق لها. فعلها بعضنا وهو واقف، بعد أن أصابتنا جميعا بالجنون.

في ذلك الفيلم، لم تتردد البطلة، ماريًا، الشابة الجميلة التي تنتمي إلى السكان الأصليين، في التضحية بحياتها لتقف في وجه طلاقات

الرصاص الموجهة ضد بدرو مونتانيو (بدرو إنفانتي) الذي أغرمت به من دون أن يُبادلها الشعور نفسه، ومع أنه حسب نفسه يحب خليلته، أدرك في تلك اللحظة، بعد أن تأخر الوقت، أن من يحبها فعلاً هي ماريًا. خرجت خوسيفينا من السينما وهي لديها يقين مطلق أنها مثل تلك الشابة التي تنتمي إلى السكان الأصليين، ومستعدة للتضحية بحياتها من أجل إنقاذ حبيبها.



في مساء ذلك الخميس، كانت خوسيفينا مستيقظة، وسمعت كل ما جاء دانتي وحكاها لجدتها. في البداية شعرت بالدهشة وبعدئذٍ بالشك، لأن دانتي اعتاد أن يخترع أمورًا غريبة للفت الانتباه، بسبب غياب الاهتمام به في بيته، لأن أبويه عملاً من دون كلل، الأول في المناجم، والثانية في الجمعية الاستهلاكية، فعلى سبيل المثال جاء ذات ليلة بحكاية أن روح «لا يورونا»⁽¹⁾ قد ظهرت له وبدأت مثل السيدة النحيفة التي تبيع التذاكر في السينما.

بعد نصف ساعة من زيارة دانتي، حين سمعت ما قالته جارة فنجان السكر لجدتها، فزّت فوق سريرها وطقطقت أذنيها، ولأنها لم تسمع جيدًا، قفزت ناهضة ووضعت أذنها على الباب.

إذن، الأمر حقيقي!

(1) تشبه النداهة في الأساطير الشعبية المصرية. (المترجم).

عن صور ضائعة وموجودة (3)

الخلفية جدار من الزنك. تفترش الحائط ملاءة عليها شמוש وأقمار ونجوم، كفلك كامل مقصوص بالورق السلوفان. بالقرب من الملاءة الملأى بالنجوم، ثمة طاولة من الخشب الخام، وعلى الطاولة، يظهر مقعد صغير من الحصير أجلسوا عليه الطفل الصغير الميت الذي لا يتعدى عمره عامين. يداه مضمومتان، كأنه يصلي، ومن ورائه، يظهر جناحان من الورق المقوى مكسوان بورق بلاتيني. إعداد مسرحي بمعنى الكلمة! لا يظهر شحوب تخشب الموت على وجهه، إذ تبدو وجنتاه محمرتين، فيما يبدو بسبب لمعة صغيرة في عينيه المفتوحتين ومعجزة لابتسامة تظهر على شفثيه حياً أكثر من أي وقت مضى.

مع ذلك، ستكتسب الصورة طابعاً حزيناً، حين يعلم المرء أن كل هذا ليس إلا بسبب مهارة صنعة مُجملي الملائكة الصغار، فحرفيو الموت هؤلاء لونوا خديه، ولمعوا عينيه، كأنه كائن من فخار، بل وقولبوا وجهه إلى أن أضفوا عليه لمحة لابتسامة حية.

الجمعة هو يوم صرف المكافآت. لم يقدر المصور على تلبية طلب كل الأهالي الذين وصلوا إلى الساحة وأغلبهم من النساء. جاء بعضهن كي يلتقط لهن صورًا (عذرًا، كي «يصنع» لهن صورًا)، في حين جاءت أخريات كي يسحب لهن الببغاء «زيتونة»-الذي تزايدت شهرته بمرور الوقت- حظهن، فيما جاء البعض الآخر كي يروا الخلفيات فحسب. مع ذلك، احتاج المرء إلى الانتباه قليلًا، كي يدرك أنهم، في نهاية المطاف، جميعا جاؤوا ليروه فحسب.

في ذلك اليوم، جاء إلى الساحة من دون مئزره الأبيض. كان قد تركه لدى غسالة مع ملابس أخرى. بدا من دون مئزره وملابسه الرسمية وقبعته الـ«سومبريرو» التي أرسلها نحو الأعلى شبيها ببدرو إنفانتي أكثر من بدرو إنفانتي نفسه. في الحقيقة، لم يتضح ما الذي أبهر الناس بشكل أكبر: التقاط صورة لأول مرة في حياتهم، أم تأمل، «بدرو إنفانتي الصور»، كما سمته الناس.

وتنهدت النساء:

- خسارة وألف خسارة على أننا لا يمكننا أن نصنع صورة معه!

اعتاد المصور أن يبقى في الساحة إلى أن يبدأ الضوء انحساره فلا يغدو مثاليًا للتصوير. حينئذٍ، كان يلف الخلفيات ويحملها فوق ظهره

بمؤاربة، ويجعل «زيتونة» يقفز فوق كتفه، ويفكك آله إلى جزئين هما الصندوق المعدني والحامل ثلاثي القوائم، ويبدأ العودة إلى غرفته. مع ذلك، في تلك الجمعة، امتلأت الساحة بقوم لم يسمحوا له بتفكيك الآلة. قالت له النساء: «لا تكن شريراً»، فإن لم يكن بالإمكان أن يصورهن، فليسمح لهن على الأقل بمعرفة حظهن. بقي لوقت أطول، حتى أظلمت السماء، وخلت الساحة وسط الإضاءة العمومية المعيبة. لم يظهر إلا ظل لثنائي يجلسان وهما يتعانقان فوق واحد من أعم المقاعد.

حين بدأ المصور يلف الخلفيات، شعر فجأة بنكزة في مؤخرة رقبته؛ ذلك الإحساس بأن أحداً ما يراقبه. مع ذلك فكر: «لكن يا أحمق! إنهم يراقبونك طوال اليوم!»، واستمر في مهمته، لكن الإحساس بدا أقوى من منطقته. تم تجهيز هذه النسخة بواسطة: مكتبة ضاد الإلكترونية.

لقد حفر أحد ما بنظرته مؤخرة رقبته.

لما التفت، رأى ظلاً يقف إلى جوار شجرة الفلفل، على بعد ستة أمتار. تسلل نور الإضاءة العمومية الخافت عبر الشجرة، ووسط الظلال المشعشة، تراءى قوام امرأة تتشح بالسواد. رفع قبعة الـ«سومبريرو» نحو الأعلى، كما اعتاد بدرو إنفانتي أن يفعل في أفلامه، وحمل لفة الأقمشة وسار بضع خطوات نحو آله. من هناك حياها:

- مساء الخير يا آنسة! للأسف أنا راحل الآن.

وحينئذٍ، انطلقت تركض.

في اليوم السابق، قاومت خوسيفينا رغبتها في الذهاب إلى الساحة. لا رجل في هذا العالم مثل بدرو. مع ذلك، عجزت عن النوم ليلاً إذ ظلت تتخيل كيف سيبدو لقاءه شخصياً، والتمكن من لمسها والتحدث معه

وتقبيله كما قبلنه الساقطات اللاتي ظهرن في الأفلام. نامت فجراً،
وحين استيقظت في منتصف الظهيرة، ظلت تفكر في الشيء نفسه.
لكنها لم تفكر في الذهاب لرؤيته.

قضت المساء وهي تستمع إلى الأسطوانات، من دون أن تنهض
من على الفراش. مع ذلك، غلبها الفضول حين سمعت عبر نافذتها
المفتوحة إحدى العائلات وهي قادمة من الساحة، فيما يتحدث أفرادها
عن المصور.

سمعت واحدة من الصبايا تقول:

- إنه جميل جداً مثل الممثل!

كان الليل قد بدأ يحل.

خوسيفينا وحدها في البيت.

توجهت جدتها إلى مصنع الثلج وستعود في وقت متأخر. نزلت
قافزة من فوق الفراش وغسلت وجهها، وسرحت شعرها سريعاً، ثم
ارتدت ملابسها السوداء وربطت منديلاً أسود أيضاً فوق رأسها لإخفاء
شعرها الأشقر وخرجت إلى الشارع. لقد مرت أربعة شهور على حبسها
لنفسها. ثملت من هواء الشارع، وشعرت بأنها خفيفة كريشة. شعرت
برغبة في الركض والقفز مثل هذه الكلاب الصغيرة التي يُفرجون عنها
بعد حبسها لفترة. بدت كأنها تخطو فوق الهواء. لم يلحظ الأشخاص
القلائل الذين تقاطعت طرقهم معها من هي.

وصلت إلى الساحة في اللحظة نفسها التي تجهز فيها المصور
للرحيل. وقفت إلى جوار شجرة الفلفل. كان ظهر الرجل لها. لاحظت
الشبه من ظهره، لكن حين التفت ونظر إليها، كادت أن تفقد وعيها.
إنه هو.

إنه حبيبها بدرو إنفانتي شخصيًا.

تعلق اندفاعها الأول بالركض ناحيته ومعانقته، كالأفلام. معانقته ومداعبته وتقيله. لكن حينذاك، تقدم الرجل بضع خطوات، وبمجرد أن رأيته يعرج وسمعته وهو يتحدث، انطلقت خوسيفينا راكضة.

وجد المصور نفسه فجأة يفكر وهو يتحمم: لا بد أنها الفتاة التي يقولون إنها حبيبتي. بعدئذٍ، في المقصف، وفيما يفرغ من تناول العشاء ويطلب زجاجة نبيذ بصحبة رئيس الوردية وبستاني الساحة، حكى لهما ما حدث.

قفز صديقه بحماس:

- من المحتمل جدًا أن تكون محقًا.

قال بستاني الساحة:

- مع أن أحدًا لم يرها في الشارع منذ وفاة بدرو إنفانتي، فلا بد أنها علمت بوجودك وأرادت أن تتأكد.

قال رئيس وردية المنجم:

- وفقًا للثَّ وعجن الناس، بعد أن حبست الفتاة نفسها في غرفتها، ظلت نائمة طيلة أسبوع من دون أن تخلع فستان العروس الملطخ بالدم، إلى أن خلعت جدتها من فوق جسدها بالقوة وأحرقته مع بعض الأعشاب الطبية، كأنه بخور لفك تعاسة حفيدتها، وحينئذٍ، بدأت الفتاة تتشج بالسواد بالكامل، مثل الأرامل.

قال «القط أبو جزمة»، وهو الاسم الذي ينادي به رئيس الوردية بستاني الساحة:

- هل أدركت يا صاحبي مدى صغر سن وجمال عروسك؟

أجاب:

- لم أتمكن من رؤيتها جيدًا. أيضًا، بخلاف اتساحها بالسواد، فقد وقفت تحت عتمة شجرة الفلفل، وحين ألقيت عليها التحية، انطلقت تركض كأنها قد رأت شبحًا.

قال رئيس الوردية:

- هكذا ترى جنابك يا صاحبي: محض شبح!

عمق المصور نظرتة إلى الموضوع وهو يشرب كوبه من نبيذ «سونريسا دي ليون»:

- أعتقد أنني أكثر من هذا بالنسبة إليها. أعتقد أنني شبح شبحتها، لأن الوقوع في غرام صورة فيلمية مثل الوقوع في غرام شبح.

انطلقت طائرة الشحن الصغيرة التي قادها بدرو إنفانتي في صباح وفاته من مطار ميريدا في الساعة وأربعين دقيقة ولم تتمكن قط من الوصول إلى الارتفاع اللازم، فبعد مرور ثماني دقائق على وجودها في الهواء سقطت مشتعلة في وسط المدينة، في الفناء الخلفي لمستودع «سوكوريتو». توفي نجم السينما والأغنية المكسيكية ومرافقاه الاثنان بعد أن تفحمت جثثهم، الساعة السابعة وخمسين دقيقة بتوقيت المكسيك، والتاسعة وخمسين دقيقة بتوقيت تشيلي، وانتشر الخبر عبر العالم في أقل من نصف ساعة.

أول من سمع الخبر عبر الراديو في «لوس دونيس» في الساعة الحادية عشرة والربع هو حارس أجنحة العزاب. في الساعة الحادية عشرة والنصف، كانت كل البيوت قد شغلت أجهزة الراديو لمعرفة تفاصيل المأساة. كانت خوسيفينا في تلك اللحظة موجودة في الجمعية

الاستهلاكية وتقف في صف اللحوم الطويل والصاحب بعد أن قضت ساعة وأربعين دقيقة من الانتظار. حين بقي بضعة أشخاص فحسب كي تصل إلى نافذة البيع، وصل أحد من الشارع وأشعل في نهاية الصف شرارة الخبر الذي وصل إلى بدايته بسرعة تتخطى انتشار النار في الهشيم. لما سمعته أذناها، بهتت. اضطروا إلى تكرراه، وحينئذٍ خرجت من الصف، وسط تزايد بهتتها، وتوجهت إلى المخرج، كأنها تخطو فوق طريق متعرج، وهي ترغب في التقيؤ. وبمجرد أن خرجت من المكان انطلقت تركض بيأس نحو بيتها الذي دخلته كطلقة لتشغل الراديو.

في تلك اللحظات، كانت دونيا إنكارناثيون تُشرف على بعض الأمور في مصنع الثلج. حين جاء مُستجد المصنع من الشارع بالخبر، صرخت دونيا إنكارناثيون: «طفلتي!»، وانطلقت تركض بسرعة قدر استطاعتها نحو البيت. وجدت خوسيفينا مُلقة على أرضية غرفة المعيشة إلى جوار جهاز الراديو الذي بث حينذاك أغنية «قلبي الحبيب» تكريماً لمعبودها الميت. رقدت خوسيفينا وهي فاقدة الوعي فيما تعانق أفيش فيلم «لو أنهم سيقتلونني غداً»، حيث وجب أن يظهر وجه بدرو إنفانتي خدًا إلى خد مع وجه الممثلة صوفيا ألبارث، لكن خوسيفينا كانت قد لزقت في محلها وجهها الذي رسمه لها إيمانويل، الابن الأكبر لجارتها.

في صباح اليوم التالي، بعد أن ركب المصور آله وفرش خلفياته، وفيما يُطعم «زيتونة» البشته، رأى فتاة تتشح بالسواد تظهر عبر الجانب الشرقي للساحة. تقدمت بخطواتها الحاسمة، المفعمة بالإثارة، ناحيته مباشرة، من دون أن ترفع نظرتها من عليه.

لا بد أنها هي. هكذا فكر بتوتر.

لما صارت على بعد أمتار قليلة منه، أدرك المصور أن كل من تحدثوا معه بخصوص جمالها، ليسوا خبراء في هذا الشأن، فهي أجمل ما رآه سواء بعينه أم بعين آله.

قال في نفسه: إن جمالها لا يُنسى.

تجمد الأشخاص الواقفون في الساحة انتظارًا لما سيحدث، حين رأوا خوسيفينا وهي تسير بمثل هذا الإباء والحسم في اتجاه المصور.

اقتربت الفتاة حتى صارت على بعد شبر من وجهه. برقت عيناها الخضراوان بلمعة رطبة، كأنها قد بكت مؤخرًا أو توشك على البكاء، وقبل أن يتمكن من فعل أو قول شيء، عانقته بذراعيها وقبلته لفترة طويلة (ستقول لاحقًا إنها قبلته وهي تحاول أن تفعلها بنفس حماس الممثلات الساقطات في الأفلام). لم يجد المصور شيئًا ليفعله. وقع كيس البشّة من يديه، وظل البغاء في انتظاره.

حين أدرك أن الفتاة تبكي وهي تقبله، حاول مواساتها وعانقها، فأفلتت شفّتيها فجأة كأنها قد تعرضت إلى صدمة كهربائية، وتراجعت خطوة إلى الخلف، وأمام زهول المصور وغبطة الحضور، وجهت له صفة، دار معها وجهه، ثم استدارت ورحلت.

ومع أن الفتاة رحلت وهي تبكي، فإنها سارت وهي تدق بكعبي حذاءها على بلاط الساحة بثقة وسرور.

عرفنا نحن أهالي «لوس دونيس» جيدًا قصة الجزء الأول من هذا المسلسل الذي بدأ في الأيام التي شاهدت فيها البطلة لأول مرة وهي في عمر الثانية عشرة (أو وهي بين الثانية عشرة والثالثة عشرة، كما تقول) فيلمًا لبدرو إنفانتي. لقد انتهى فجأة بالميتة الفظيعة لفارس السينما

المكسيكي في ميريدا، يوكاتان، ومحاولة انتحار الشابة المغرمة هنا، في «لوس دونيس».

لاحقًا، ظهر من يقولون إن مشهد القبلة والصفعة التي وجهتها خوسيفينا إلى المصور في وسط الساحة، في عز النهار، هو بداية الجزء الثاني من مسلسل الحب والجنون والموت من بطولة بدرو إنفانتي وخوسيفينا بالديبيا.

ومع أن هذا المشهد جدير بشاشة السينما -كما قال البعض لاحقًا في المستوطنة- فنحن من ظهرنا في الصورة الأولى، نرى أن الجزء الثاني قد بدأ في صباح ذلك الأحد حين أصبح بدرو إنفانتي -أو توأمه أو إعادة تجسيده الحية أو الممثل نفسه بعد أن بُعث- هو الراكب الوحيد الذي نزل في محطتنا.

وصلت دونيا إنكارناثيون إلى بيتها ولم تجد حفيدتها. شعرت بالسعادة. هل أفلحت حيلة دانتني والجارة؟ يا عذراء يا طاهرة! لعل ذهابها إلى الساحة ورؤيتها له قد أفلحا! على الأقل، نجح في إخراجها من محبسها.

كانت قد بدأت تشرب المته حين شعرت بالباب ينفتح. دخلت خوسيفينا كزوبعة. جاءت تبكي.

- ما الذي حدث يا طفلي بحق الرب؟

- جدتي! عليك أن تذهبي لرؤيته. ابن العاهرة مثل بدرو حبيبي!

رافقتها دونيا إنكارناثيون إلى المطبخ وحضرت لها فنجانًا من الشاي. بعد أن جربت خوسيفينا المشروب وأشعرها بالهدوء، حكّت لها جدتها أنها ذهبت لرؤيته.

- بل وتبادلت بعض الكلمات معه.
- جدتي! لماذا لم تقولي لي؟
- أردت أن أرى أولاً طينة المصور الشهير الذي تحدث عنه الجميع كشخص. على الأقل هو لطيف، ومعه ببغاء يسحب لك حظك. هل رأيته؟
- أنت لا تصدقين هذه الأمور يا جدة!
- بالطبع لا يا طفلي! وافقت على مسألة سحب الحظ، لأعرف مقدار قدرته على الاحتيال، لكن كان أمراً لا يصدق. القصاصات التي جلبها الببغاء بدت كأنها كتبت من أجلي. اقرئها بنفسك.
- أخرجت دونيا إنكارناثيون القصاصات التي احتفظت بها في محفظتها:

«هون على نفسك ولا تكن حزينًا. كل الأمور تمضي».

- ظللت طيلة شهور وأنا أموت من الحزن بسبب رؤية الألم وهو يستنزفك، والآن أستشعر أن الألم والحزن سيمضيان.
- آه يا جدة! مجيء هذه العبارة لك مصادفة بحتة! أيضًا إنها عبارة عامة. لا يجب أن يكون المرء بمثل هذه السذاجة.
- لا سذاجة في هذا يا طفلي! لأتحقق من أنها ليست مصادفة طلبت منه أن يسحب حظ حفيدتي. «لا تستطيع أن تأتي». هذا ما قلته له. بعدئذٍ، سألني عن اسمك وأمر الببغاء. انظري إلى العبارة التي أخرجها الطائر لك، وقولي لي إن لم يكن قد أصاب نوعًا ما.

«يجمع الحب أحياناً بين شخصين لا يمكن الجمع بينهما على الرغم من الحب نفسه».

شردت خوسيفينا في التفكير. بعدئذٍ، نهضت، لكنها لم تذهب لحبس نفسها في غرفتها، بل جلست في غرفة المعيشة. ابتسمت دونيا إنكارناثيون بسعادة. لقد سقط هذا الرجل من السماء بالفعل!

مر إيمانويل وروثيو في صباح الأحد على الساحة لرؤية المصور. بدت الصورة التي صنعها لهما منذ عدة أيام أمام السينما جيدة للغاية بسبب ضوء الشفق المسائي، لهذا سألهما ما إذا كان بإمكانه أن ينسخها ويعرضها ضمن نماذج تصويره. قبلاً بسعادة. مع ذلك، جاء حينذاك كي يرجوا ألا يفعلها، فالأمر وما فيه أن أم روثيو هي الوحيدة في البيت التي تعلم بأمر علاقتهما الرومانسية وتوافق عليها، لكن الأب لا يعرف شيئاً. قالت روثيو:

- إنه دقة قديمة! وأمي تخاف منه. لو علم أنني أواعد أحداً، فلن يسمح لي بالخروج من البيت، ولا حتى المدرسة. حدث هذا مع أختي الكبيرة. واضطرت إلى الهرب مع حبيبها. لا يعرف أحد الآن أين هي. تبكي أُمِّي يومياً عليها ولا تريد أن يحدث هذا معي. وعدهما المصور ألا يعرضها.

قال:

- بل وسأعطي لكما نسخة كي يصبح لدى كل منكما واحدة. وليأتيا لأخذها من غرفته في المساء، بعد القيلولة.

وصل إيمانويل وحده في المساء.

لم تتمكن روثيو، لأن أباهما في البيت، وكان المصور يُحضر آله للذهاب إلى الساحة. قال إيمانويل إنه سيروقه تعلم التقاط الصور.

- هل هو صعب جدًا؟

- صناعة الصور سهلة جدًا، لكن صناعتها بشكل جيد تتطلب وقتًا.

إن أردت، فقد أقدم لك بعض الدروس.

- فعلاً؟

- لكن عليك أن تقدم لي خدمة.

- وما هي؟

- ترتبط بجارتك.

ابتسم إيمانويل بخبث:

- يبدو أن القبلية كانت أقوى من الصفعة، أليس كذلك؟

- وكيف تعرف هذا؟

- الكل يتحدث، وهذا لأن اللقاء بينكما كان منتظرًا أكثر من نهاية أي

مسرحية إذاعية.

قال المصور:

- القرية الصغيرة..

- انظر. دعنا نعقد اتفاقًا: علمني صناعة الصور وأنا سأجعلك

تتزوج بجارتي.

انفجر المصور ضحكًا:

- أكرر لك: أنت ماهر جدًا في التفاوض.

يناول نسخة من صورته مع حبيبته.

- الآن عليك أن تقدم لي خدمة.

- حسنًا. اعذرني. ما هي الخدمة؟

جعله المصور يأمر الببغاء بأن يسحب ورقة الحظ لخوسيفينا،
وطلب منه أن ينتظر اختيار الببغاء لورقة، وحين اختارها الببغاء، جعله
يسلمها له.

- الآن. خذها إلى جارتك واحكِ لها كيف فعلتها بنفسك. وقل لها
إنني لم ألمس الورقة على الإطلاق ولم أقرأها أصلًا.
رحل إيمانويل.

لكن وهو في الطريق لم يقدر على المقاومة وقرأ العبارة:

«من أحب بالأمس، سيحب غدًا».

- علينا أن نتحقق يا طفلي من هو هذا المصور فعلاً وما الذي
يفعله في هذه السهوب، ولماذا ولأي سبب جاء تحديدًا إلى «لوس
دونيس». هذا الرجل غامض بصورة مفرطة.

- وما العمل يا جدتي؟

- لا بد من البحث عن طريقة للتحدث معه بمفردنا، مع أنني أراه
شيئًا صعبًا لأنه محاط بالناس دائمًا.

- وماذا إن دعوناه إلى تناول شيء خفيف مساء؟

- لا يا طفلي. هذه طريقة مباشرة جدًا. خطرت لي فكرة أفضل.
سنرسل في طلبه ونقول إننا نريد صورة في البيت، وأن يأتي لنا
في ساعة شرب الشاي. ما رأيك؟

- أنت محقة يا جدتي، وبمجرد أن يصل إلى هنا لن يتمكن من رفض دعوة الجلوس إلى المائدة.
- بالضبط يا فتاتي، وحينئذ سنتحاور وندفعه إلى الحديث عن حياته.
- بالضبط. أيضًا. وأنا سيمكنني أن أدفعه إلى كشف السر وراء حيلة ببغاء الحظ.
- ألا زلت غير مؤمنة بالبخت يا بُنيتي؟
- ربما أنا مؤمنة بالحظ، لكنني لست مؤمنة بالببغاء.
- انظري يا طفليتي: الببغاء في هذه الحالة مجرد أداة يستخدمها القدر لكشف الحظ لمن يطلب رؤيته، سواء أكان حلواً أم سيئاً. بكلمات أخرى: هو مجرد مرسال!
- والمصور يا جدتي؟ ما دوره؟ هل يمكنك أن تخبريني؟
- في هذه الحالة، فهو من يجعل الحدث ممكناً، وليس له علاقة بالرسالة.
- وكيف هذا؟ ألم تري العبارة التي أرسلها إليّ؟ لو أنك لم تلحظي، فهي تتضمن إحياء غرامياً بوضوح.
- ربما يا طفليتي! لكن الببغاء هو من اختار هذه العبارة. ولا أظن أن إيمانويل يكذب علينا حين يقول إن هذا الرجل لم يلمس القصاصة.
- لكنه من يكتبها يا جدتي!
- حتى ولو! فهو لا يعرف أي ورقة سيمسكها الببغاء بمنقاره.
- لم أعد قادرة على التفكير.
- لا تتوتري إذن يا طفليتي. لنتنظر أن يأتي إلى هنا وحينئذ سنرى ما سيحدث. آه، وحين يأتي، هذا إن أتى، فسيطري على نفسك من

فضلك، ولا تقدمي على صفعه ولا إغراقه بالقبلات، فكل الناس علموا بأمر ما حدث في الساحة.

- الأمر وما فيه.. هل تعرفين يا جدتي؟ حين رأيته بمثل هذا القرب مني، تخيلت نفسي في بطولة أحد الأفلام مع بدرو إنفانتي شخصياً ولم أقدر على كبت رغبتني في تقبيله، مثل الممثلات الساقطات.

- والصفعة؟

- هذا لأنه أراد معانقتني، وحضرتك تعرفين أنني لا أترك أي رجل يلمسني.



بعد أن أنعشتها دونيا إنكارناثيون بإجبارها على شم أملاح عطرية، أغلقت خوسيفينا باب غرفتها على نفسها ولم تتوقف عن البكاء طوال المساء. نعست أحياناً وكلما استيقظت استمرت في البكاء. عجزت جدتها عن فعل أي شيء، فقد أغلقت الفتاة الباب على نفسها من الداخل. حين أظلم المساء، كانت لا تزال تبكي.

نحو السابعة، نهضت من فراشها وارتدت فستان العروس ونادت على جدتها ومن دون أن تفتح الباب، طلبت منها أن تذهب رجاءً لجلب دانتي، ابن الجارة.

- لأي سبب تريدينه؟

- سأحكي لك لاحقاً يا جدتي.

وبمجرد أن خرجت دونيا إنكارناثيون من باب الشارع، تركت خوسيفينا غرفتها وذهبت إلى المطبخ وأمسكت أفضل سكين، ومن دون مقدمات أو مراسم، قطعت بضربتين شرابين معصميهما. بينما يفور الدم،

خرجت إلى الشارع من باب الزقاق، كشبح عروس مجنونة، وركضت وسط الليل وهي تترك وراءها مسارًا داميًا فوق الأرض الملحية. ركضت مقتنعة بأن أنسب مكان لوفاتها هو السينما، وهو المكان الذي لطالما رأت فيه بدرو. لم تعرف ما إذا كانت ستقدر على الوصول، وفي وسط الطريق شعرت بأنها على وشك فقدان وعيها.

بينما يوشك حفل السهرة على الانطلاق أطاحت بالبواب الصغير هزيل البنية الذي تجمد حين رأى الدماء. فعلتها من دون أن تتوقف عن الركض، لكن وهي تشعر بوهن الموت، ثم اقتحمت وهي على وشك الإغماء الممر الواقع في منتصف الصالة، كما فعلت في المرة السابقة، لكن هذه المرة وفستان الزفاف ملطخ بالدماء.

ثم فقدت وعيها في منتصف الممر.

بينما هي مُلقاة على الأرضية، شعرت خوسيفينا بأنها تدخل إلى حلم ضبابي فاتر يخلو من الأصوات، ومن بعيد وصلتها أصوات، كأنها على بعد عام ضوئي، وهي تقول: «إنها تنزف!». «لا بد من الذهاب بها إلى الوحدة الصحية»!

أوقف العارض الفيلم وأضاء الأنوار.

وفي تلك المرة، لم يُصفق أحد.

في يوم الإثنين، وصل المصور إلى الساحة في وقت متأخر عن المعتاد، ففي الليلة السابقة، بعد العشاء، سهر ليشرّب بضع زجاجات من النبيذ وهو يتحدث مع رئيس وردية المنجم وبستاني الساحة.

تعجب المصور من أنهما صديقان بهذه الصورة ويمضيان معًا في كل الأنحاء على الرغم من اختلافهما الشديد. على سبيل المثال: يحضر

رئيس الوردية إلى العشاء وهو مستحم ومصفف الشعر ويكاد يلمع، في حين يأتي بستاني أشجار الساحة الأربعة، الذي ينظف أيضاً الحمامات العامة، من دون أن يخلع الأحذية المطاطية عالية الرقبة التي يستخدمها في وظيفته.

في محاولة منهما لدفع المصور إلى حكاية المزيد عن حياته، يُذكره الصديقان -أو بالأصح يذكره بستاني الساحة- بأنه قد قال في ليلة سابقة، وسط الكلام، إنه لم يكن يعرج حين تعرف إلى زوجته.

- كيف صرت أعرج يا صاحبي؟

تدخل رئيس وردية المنجم:

- هذا إن كان بإمكاننا أن نعرف بالطبع.

قال المصور: «اعذراني يا حضرة الرجلين المحترمين»، وذهب إلى المرحاض. لما عاد ملأ كأسه وقرع نخباً للصدقة. بعدئذٍ، بدأ يحكي قصة عرجه، بتفاصيل كبيرة وبقرف من حكي القصة نفسها خمسمائة مرة.

عن صور ضائعة وموجودة (4)

جدران من الزنك. أرضية ترابية. بيت عامل. يجلسان إلى أريكة مصنوعة من عارضة السكة. عمر العجوزين معًا مائة وثمانية وثلاثون عامًا. يرتدي الثنائي في وضعيتهما الغاطسة ملابس مناسبات قد تعود إلى زمن الأساطير. يلبس بدلة بالية مخططة بالعرض وقبعة «سومبريرو» تُزينها بعض البقع. بالنسبة إليها، فترتدي تنورة طويلة، من قماش التفتة وبلوزة ملأى بثنايا مموجة. أترف ما في زيهما، إيشارب يغطي كتفها المهزومتين. يبدو حذاء كل منهما متربًا ويُمسك كل منهما يد الآخر.

تُظهر الأخاديد التي تقطع وجهيهما سنواته السبعين وسنواتها الستة والستين. بالنسبة إليها تحديدًا، فإن تلك الأخاديد الرفيعة المرسومة على جلدها تُكسبها هيئة عجوز وقورة، أما تجاعيد العجوز فتجعل وجهه يبدو كأن جغرافيا الصحراء قد انطبعت عليه.

تكتسب الصورة طابعًا ملحميًا حين يعلم المرء أن العجوزين ناجيان من مذبحه العمال في مدرسة سانتا ماريا دي إيكيكوي. ثمة شيء مكتوب على ظهر الصورة، ومعه يعرف المرء أن اسمه إيديليو مونتانيو، واسمها ليريا ماريا.

- وقع الحادث بعد ثلاثة أشهر من خسارتي زوجتي. في تلك الأيام، خرجت إلى الشارع بقوة القصور الذاتي البحتة. وقفت في أي ساحة وجلست تحت الشمس أو الظل، أيًا كان المناخ. لم يهمني قط صناعة الصور من عدمها. وقفت في يوم مأساتي في ساحة «البرازيل». كان يوم أحد. إنها ساعة القيلولة وبدا الميدان مقفرًا، إذ لم يكن فيه إلا أنا ورجل ثمل مدد جسده فوق أحد المقاعد أمامي. بدا العالم كفنجان من الحليب الدافئ، وبسبب غياب الزبائن، قررت أن أنظف آلتني. فجأة انكسر سلام العالم ببعض الصرخات وحدث ما حدث... لم يستغرق إلا بضعة ثوان، ومع ذلك فسأحتاج إلى وقت أطول لحكايته. في أعقاب الصراخ على الفور، ظهر رجل يحمل مسدسًا في يده. لما رأيته اقترب مني وهو يصوب عليّ سلاحه. «ناولني مئزرك بسرعة»! هذا ما قاله لي. نظر إليّ كمجنون، ولأنني تأخرت، شده من فوقني وارتداه. هنا أدركت أنه مصاب. بعدئذٍ، أخذ قبعتي الـ«سومبريرو» وأمرني بأن أقف أمام الآلة كأنه سيلتقط لي صورة. قال: «بسرعة يا مغفل»! وفي اللحظة نفسها، التي وقف فيها الرجل وراء الآلة وهو يرتدي مئزري فيما يُغطي عينيه بالقبعة، ظهر فردان من الشرطة العسكرية وكل منهما يحمل مسدسًا في يده. كانا سمينين وركضا بمشقة. مرا أمامنا، ومن يطاردهانه متنكر كمصور. رفع الرجل الثمل الذي رقد

فوق المقعد ورأى كل شيء رأسه وصرخ: «المصور! المصور!». توقف فردا الشرطة العسكرية ونظرا إليه. لما تبين أنه انكشف بدأ يطلق النار، وبدأ الشرطيان في الرد، وبين هذه الثانية وتلك الأخرى، وجدت نفسي عالقا وسط إطلاق نار رهيب ويا رباها! لم أعرف قط من أي جانب جاءت الرصاصة التي أصابت ساقي. لم يستمر إطلاق النار أكثر من خمس عشرة ثانية وخلف مصابين: أنا وأحد أفراد الشرطة العسكرية. أسفر أيضا عن مقتل اثنين: المجرم والرجل الثمل الذي أطلق عليه المجرم رصاصته الأخيرة.

- حين أصنع الصور، أرى كل شيء بالكامل بالأبيض والأسود. هكذا أجاب المصور على دونيا إنكارناثيون حين سألته بانتشاء -بعد أن تأملت لفترة طويلة الصورة التي التقطها لخوسيفينا- كيف ينجح في تحقيق هذه الدرجات وهذا التباين بين الضوء والظل ليظهرها بهذا البهاء.

كان في بيت دونيا إنكارناثيون، ويجلس لتناول الشاي مع الفتاة وجدتها. لم تتوقف الدونيا عن الحديث، على النقيض من الفتاة التي لم تفعل شيئا سوى النظر إليه، ربما وهي تقارن كل واحدة من إشارات وإيماءاته وحركاته اللاإرادية مع الممثل المكسيكي.

أراد أن يسمعها تضحك.

أو أن يراها تبتسم على الأقل.

في صباح ذلك الإثنين، وصل الطفل دانتي، شقيق إيمانويل الأصغر إلى الساحة:

- أرسلت دونيا إنكارنا لتسأل ما إذا كان بإمكانك أن تصنع لها صورة في البيت. تنتظرك في الخامسة عصرًا. ماذا أقول لها؟

لما وصل إلى العنوان الذي أخبره به دانتي، ومع آله وخلفياته على ظهره، استقبلته جدة الفتاة. دعتة إلى الدخول بمودة رائعة، ودعتة إلى الجلوس في غرفة المعيشة. لم يتعرف عليها المصور تقريبًا، فهذه السيدة لا تجمعها صلة بالعجوز النزقة التي ذهبت لتراه في أول يوم له في الساحة.

بعد أن تأمل أفيشات وإطارات أفلام بدرو إنفانتي المصققة على الجدران وتبادل بعض الكلمات التي تفرضها أصول الأدب، وبعد أن شرب كوبًا من «بيلز» قدمته له دونيا إنكارناثيون، ظهرت خوسيفينا عند غرفتها، تحديدًا في اللحظة التي يسأل فيها من يجب عليه أن يصور، وقالت:

- أنا.

وابتسمت له.

شعر المصور كأنه يُبصر رؤيا!

ارتدت الشابة تنورة جرسية من الحرير بزرقة السماء وبلوزة من دون كمين وربطت منديلًا حريريًا هو الآخر حول رقبته، بدرجة التنورة نفسها. سقط شعرها الأشقر كما المطر على كتف واحدة من كتفيها، وأكسبتها لمعة عينيها الخضراء لمسة من الإثارة كادت تصل إلى حد الخلاعة. لكن ما أغشى المصور حقًا هو ضياء ابتسامتها. بدت كابتسامة لجنية غابة!

لم يتبق إلا سماعها تضحك فحسب.

في ظل ارتبাকে من بهاء خوسيفينا، قال المصور إنه جلب معه خلفياته، لكنه أدرك الآن أنه لن يحتاج إليها.

- جمال جنابك فاق الحد!

احمرت خوسيفينا:

- شكرًا. انظر حضرتك.. سيروقني أن أقف للتصوير بجانب هذا الأفيش.

وأشارت إلى فيلم «الألف حب»، حيث ظهر وجها بدرو إنفانتي وروسيتا كينتانا.

قال المصور بنبرة مهنية:

- قد لا أوصي حضرتك بهذا، فأني عنصر خارج محيطك، حتى خلفياتي، سيخلق جلبة وسيلطخ صورتك. أعتقد أن وقوفك أمام هذا الحائط العاري سيغدو جيدًا. ستبرز شناعة الزنك حُسنك بصورة أكبر.

فابتسمت مندهشة وهي تشعر بالثناء.

- هل يمكن أن تشرح لي هذا؟

قال المصور وهو يكاد يجن من ابتسامتها:

- يبرز جمال اليمامة بين سرب غربان أكثر مما لو كانت في برج يمام، أليس كذلك؟

فابتسمت مجددًا.

- الآن، إن أردنا أن يشع جانبك الحسي بشكل أكبر، فلا بد من أن تقفي بقدمين حافيتين.

بينما يتبادلان الحديث بعد أن فرغا من تناول الأكل، عجزت دونيا إنكارناثيون عن تهدئة فوران غبطنها، فحفيدتها كانت تتحسن بوضوح، وهذا لأنه فيما يجهز المصور الآلة ويصورها ويتحاور معها، رأتها تبتسم، وليس مرة واحدة فقط! لقد استعادت حفيدتها أخيراً وبعد وقت طويل ابتسامتها.

وكله من صنيع وملاحة هذا الرجل!

خلال الوقت الذي استغرقته محادثة ما بعد الأكل، لم تتوقف الدونيا، من فرط سعادتها، عن الحديث. ذات لحظة، بدأ الببغاء الذي ينتظر في غرفة المعيشة يصرخ. أخرج المصور من جيبه كيس البشّة وطلب إذن السيدتين للذهاب ليرى «زيتونة».

ذكَرت خوسيفينا جدتها، وهي تهمس، أنهما من يجب عليهما دفعه إلى الحديث.

- حضرتك قضيت الوقت كله وأنت تحكين قصة حياتك.

صوبت جدتها كلامها:

- وأنت لم تفعلي شيئاً سوى النظر إليه بعيني نعجة مذبوحة!

بمجرد أن عاد المصور إلى المائدة، أطلقت خوسيفينا السؤال الأول:

- وإلى متى ستظل هنا يا دون..؟ ما اسمك؟ لأنني لا أعتقد أن اسمك

بدرو إنفانتي، أليس كذلك؟

- صحيح يا آنستي! اعذراني على أنني لم أعرفكما بنفسي. اسمي

جلين ماركوس. ماركوس، بالسين، لا بالصاد.

حاولت دونيا إنكارناثيون تهدئة النوايا:

- لا تقلق يا سيد جلين. لم يقدم أحد منا نفسه. اسمي إنكارناثيون.

قالت الفتاة:

- وأنا خوسيفينا.

ومضت في استجوابه:

- يبدو لي جلين اسما لأحد الـ«جرينجوس». هل الوالد والوالدة أمريكيان؟

- لا يا آنسة خوسيفينا. الأمر وما فيه أن أبي كان عازفًا. عزف على بوق الـ«ترومبون» في فرقة عسكرية، وكان معجبًا بجلين ميلر، أفضل عازف بوق «ترومبون» حظيت به أمريكا الشمالية على مدار تاريخها، ومن هنا جاء اسمي.

بعد أن قادته خوسيفينا إلى الحديث عن أبيه، وطفولته، وحياته بوجه عام، ومن دون أي سبيل آخر للمضي قدما، غيرت الموضوع:

- قل لي يا سيد جلين، ما هي خدعة بغاء الحظ؟ لا بد من وجود خدعة، أليس كذلك؟

نهض المصور من على المائدة:

- ربما سيروق حضرتك أن تتحقي بنفسك، هلا رافقتماني؟

مضت خوسيفينا ودونيا إنكارناثيون وراءه إلى غرفة المعيشة.

- هذا «زيتونة». اعدراني لأنني لم أقدمه لكما قبل ذلك، وهذا هو صندوق الحظ.

طلب المصور من خوسيفينا أن تُخرج من الصندوق الصغير كل القصاصات وأن تمزجها كأنها أوراق لعب.

- الآن. أعيدي الأوراق إلى الصندوق. شهدتما بنفسيكما على أنني لم ألمس شيئًا، أليس كذلك؟

حينئذٍ، ألقى أمره:

- هيا يا «زيتونة»! هات لنا ما يقوله حظ خوسيفينا!

هتف الببغاء:

- شُف حظك! شُف حظك!

لم تبتسم خوسيفينا التي لم تسمعه من قبل فحسب، وإنما انفجرت ضاحكة بكل خواطرها. شعر المصور فجأة بصدمة كهربائية مباشرة في قلبه. جلجلت ضحكتها برنة المرحومة زوجته نفسها. نفخ الببغاء ريشه، ثم مد رقبته وأخرج قصاصة.

قال المصور:

- أمسكيها يا خوسيفينا.

فردتها خوسيفينا وقرأت:

«هناك جمال جذاب، وهناك جمالك

الذي يُوقع في الغرام»

أشرق يوم الثلاثاء بأحداث ثورية في أجواء «لوس دونيس»، إذ عشروا في غرفة آلة العرض في السينما على جثة متعهد الأفلام. قالت الشائعة الأولى إنه مات من سكتة قلبية، فالرجل بخلاف معاناته الربو كان سميناً جداً، وحذره كثير منا.

ورد علينا دائماً بأنه لا يقدر على كبح شهوته.

لما وصل المصور في العاشرة ليستقر في الساحة بالقرب من السينما، تجمع حشد من الفضوليين. دخلت وخرجت قوة الشرطة العسكرية بكامل قوامها، وهو ستة أفراد، من وإلى المبنى. لمح المصور مرشد المقاعد بين الحشد، فاقترب منه:

- ما الأمر يا صديقي؟

- الموضوع معقد يا صاحبي، وفقًا لرأي المساعد الطبي، مات مديري من سكتة قلبية، لكن تظهر علامات غريبة على عنقه، واختار نقيب الشرطة العسكرية انتظار الطبيب. أعتقد أنه أخطر من في المدينة بالأمر، وأن الطبيب والقاضي في الطريق. لكن أتعرف يا صاحبي؟

خفض صوته:

- بيني وبينك، أعتقد أن من فعلها والد إحدى الفتيات اللاتي صعد بهن مديري إلى غرفة آلة العرض.

- ألم يبلغ أحد عنه قط؟

- الأمر وما فيه أنه لطالما كان صديقًا مقربًا للشرطة العسكرية.

وصل الطبيب مساء وخلص إلى أن سبب الوفاة هو الاختناق، لأن العلامات فوق عنقه أشارت إلى أن أحدًا ما خنقه. تفاجأنا. اعتدنا ليلاً أن ننام وأبوابنا مفتوحة. أبواب الشارع والأزقة ولم يحدث شي قط. لا بد أن من فعل هذا غريب. هذا ما قلناه في ملعب الحجلة. المصور هو الغريب الوحيد هنا. هذا ما قالت النساء في الجمعية الاستهلاكية. مع ذلك لم يصدق أحد أنه من فعلها. «لا بد أنه انتقام من أحد الآباء». همست نساء الكنيسة الوردات بهذه العبارة وهن يرشمن الصليب.

سمح القاضي برفع الجثة وسجلت الشرطة العسكرية البيوت المجاورة إلى السينما وأسماء الأهالي الأقرب من غرفته. عاش متعهد الأفلام منذ خمسة عشر عامًا في غرفة في أجنحة العزاب. سحب منه مكتب السلامة بيته حين هجرته زوجته لترحل مع طبيب كانت الشركة قد تعاقدت معه ليأتي لرؤية المرضى مرة واحدة أسبوعيًا. قالت النساء إنه طبيب «شاب وحسن المظهر»، ومن المدينة.

سمتها صديقاتها «تونجوليلي» (وبدت كسمراء خارجة من أحد الأفلام). تظاهرت بإصابتها بمرض مزمن وكلما وصل الطبيب من المدينة، صارت أول من يذهب إليه، وفي بعض المرات جاء هذا الطبيب الوسيم إلى البامبا ثلاث مرات في الأسبوع، وعلى حسابه الشخصي.

تفاجأنا جميعا بسلوكه، وشكرناه على هذه البادرة الإنسانية، بل إن بعضًا منا وصل به الأمر إلى إحاطته بهالة من القدسية. كل هذا طبعًا حتى اليوم الذي اختفى فيه مع زوجة متعهد الأفلام. وبداية من تلك اللحظة بدأت همسات هنا وهناك في المعسكر حول أن متعهد الأفلام يستغل القاصرات في السينما.

في ليلة الثلاثاء تحضرت دونيا إنكارناثيون، التي اتشحت بالسواد، لحضور سهرة الميت على شريكها الذي عُرضت جثته في بهو السينما. منذ انتشر خبر موت متعهد الأفلام صباحًا، شعرت الجدة بأن حفيدتها تتصرف بغرابة. لم يتعلق الأمر بالأسى. بدأت بعد الغداء تطلب منها أن ترافقها إلى السهرة على الميت، لكن خوسيفينا لم تُجبها، وشردت كأنها تنظر إلى نقطة ما في الهواء، كمخبولة.

حين صارت جدتها مستعدة للخروج ودعتها للمرة الأخيرة إلى القدوم معها، لم تقدر خوسيفينا على تمالك نفسها وانفجرت في البكاء. أجلس جدتها أمامها وحكت لها عن الانتهاكات التي عانتها من قبل متعهد الأفلام وهي طفلة، وهي طفلة صغيرة جدًا. في البداية، وهو يقنعها باللين بأنهما يلعبان لعبة تمثيل مشاهد من أفلام، لكن هذا سر، ولا يجب أن تحكيه لأحد، خصوصًا جدتها، كما قال. بعدئذٍ، حين كبرت

بدأت تفهم أن ما يفعله الرجل ليس جيداً، ورجته ألا يزعجها مرة ثانية،
وإلا ستحكي لجدها.

جن جنون متعهد الأفلام وهددها بأنه سيؤذي جدتها إن تحدثت، بل
وسيحرمها فوق كل هذا من مصنع الثلج، لأنه مالك للمصنع أكثر منها.
قال لها: «سأخرب حياتكما».

- لهذا لم أقل لك شيئاً قط. خفت عليك، وبداية من تلك اللحظة بدأت
أذهب إلى السينما في أوقات عرض أفلام بدرو إنفانتي. حينذاك
كنت قد رأيت فيلمه الأول فحسب. أعتقد أحياناً أنني أصبحت
مهووسة بصورته كرجل، لأنني مهما بلغ قدر حبي له، لم تكن
صورته قادرة على لمسي. أشعر بالنفور حتى حين يلمس أي
رجل يدي.

بينما تحكي خوسيفينا لها كل هذا وهي تنتحب، لم تتوقف دونيا
إنكارناثيون عن البكاء وإلقاء الذنب على نفسها والاعتذار لأنها فشلت
في الاعتناء بطفلتها.

كان لا بد أن أتوقع.

هذا ما ظلت تقوله.

عن صور ضائعة وموجودة (5)

مع أن جدران الخلفية من الزنك، فضياء جمالها جعلها تبدو كأنها من رخام «كرارا». ترتدي بلوزة من دون كمين وتنورة جرسية وتربط حول رقبتها منديلًا من الحرير. ثمة تفصيلان يُكسبان الفتاة جانبا حسيًا يفوح من الصور كعطر. إنهما قدماها الحافيتان وشعرها الأشقر الذي يتساقط كما المطر على كتفها. تبدو ابتسامتها المضيئة كأنها قد خلقت للتو (أو كأنها لم تظهر من فترة لتتنفس الهواء). جمال الفتاة لا يُنسى ويأسر الاهتمام إلى درجة أنه إن سألوا لاحقًا أي شخص ما الذي ارتدته الفتاة، فأكثر ما سيتذكره هو بلوزتها عديمة الكمين.

ستكتسب الصورة معنى أكبر، حين يعلم المرء أن الفتاة خلعت منذ ساعة فحسب رداء الحداد الذي ظلت ترتديه، كأنه قطعة من لباس العذاب، منذ وفاة بدرو إنفانتي.

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:
أشرف غالب

جميع الحقوق محفوظة ©



مكتبة ضاد الإلكترونية
t.me twinkling4



امسح الكود وانضم لأسرة ضاد
<https://t.me/twinkling4>

- إن أردت أن تصبح مصورًا ماهرًا يا فتى، بقدرتك نفسها على التفاوض، فأول شيء يتحتم عليك فعله هو أن تتمرس في التعامل مع الأدوات التي تكشف وتضبط بؤرة الصورة بعينين مغمضتين لأنك ستفعلها في مساحة الصندوق الصغيرة وأنت عاجز عن النظر أصلًا. لا يمكنك أن تفتح الصندوق لأي سبب وأنت تعمل. يجب أن تعرف هذا بوضوح كما تعرف أنك ابن أمك (فمسألة الأب لا يُمكن أن يتيقن منها المرء دائمًا) لأن تسلل أي شعاع صغير من الضوء، سيغيم على ورق التصوير ويفسده. لا أعرف ما إذا كنت تفهمني، يمكنني أن أشغل الآلة بعينين مغمضتين. أفعّلها منذ سنوات، لكنني لم أضطر قط إلى شرح الأمر. هناك قائمة طويلة من الاصطلاحات الفوتوغرافية الواجب على المرء إجادتها.
- وماذا إن بدلنا هذه المصطلحات بقول هذه كمثرى وهذه تفاحة يا دون؟ لا بد أن أتعلم أيًا كان الثمن. تذكر أنني وعدتك بالتقاط صورة زفافك مع جارتى.
- أنت ملعون! لكن حسنًا، ركز معي!

ليلاً، جاء أحد أقارب متعهد الأفلام، الذين وصلوا من المدينة، إلى الغرفة التي أجرها المصور. أتى به دانتي، أخو إيمانويل. سار الطفل

في السهرة على جثمان الميت وهو يرمي أذنه هنا وهناك، وسمع أجدًا يسأل ما إذا كان ثمة مصور في «لوس دونيس».

- قفرت كسمكة، وقلت له أجل. لدينا واحد. وعرضت عليه أن أرافقه. وها أنا ذا يا دون. أفترض أن من حقي عمولة.

لمعت عيناه بحيوية.

قال الزائر إنه يريد أن يؤجره كي يلتقط له بعض الصور في سهرة الميت مع عمه، وصورًا أخرى للجنازة نفسها. قال المصور، الذي لم يدعه أصلًا إلى الجلوس، إنه آسف ولن يقدر على هذا. لقد نفدت منه أوراق التصوير، وكلف اليوم تحديدًا أحد المراسيل بشرائها له من المدينة، لكنه سيصل غدًا.

- إذن تعال حضرتك غدًا لتصوير الجنازة. ستكون نحو الخامسة عصرًا.

- يا خسارة! سيصلني الورق بين الثامنة والتاسعة مساء! رحل الرجل مستاء.

وبغمة من المصور، انتظر دانتلي.

قال الطفل حين صارا بمفردهما:

- بحق الرب! فقدت عمولتي.

قال المصور:

- لو قدمت لي خدمة، فسأمنحك عمولتك.

- أي خدمة؟

- قل لصديقتك خوسيفينا إنني أريد أن ألتقط لك صورة معها.

- لكن حضرتك قلت إنك ليس لديك ورق.

- ليس لديّ ورق لألتقط صورًا لجثة متعهد الأفلام. ألا تعرف كيف أساء لصديقتك وهي طفلة؟
- هل أساء لها؟
- جدًّا. يبدو قول هذا قبيحًا، لكنني أعتقد أن نهايته كانت مستحقة، لكن اسمعني جيدًا يا ولد، إن نجحت في إقناع خوسيفينا بالتقاط صورة معك، فستكون عمولتك أفضل.
- ولماذا تريد أن تلتقط صورة لي معها؟
- لا تسأل كثيرًا وافعلها. ستفهم لاحقًا.
- أعتقد أنني فهمت. حضرتك تريد أن تراها مرة ثانية.
- ولماذا قد أريد أن أراها مجددًا؟
- لأن حضرتك بدرو إنفانتي وهي عروسك.
- بينما يخرج دانتي، أوقفه المصور بصافرة:
- سيد دانتي! لا تقل لخوسيفينا إن الصورة فكرتي.
- يفتح دانتي الباب وقبل أن يخرج يلتفت ويقول بميكافيلية:
- إنها صديقتي!

- وصل دانتي إلى الساحة نحو الثانية عشرة والنصف ظهرًا. جاء يركض حافيًا وهو يقطر عرقًا.
- اسمع يا دون. ذهبت للبحث عنك في المقصف. حسبت أنك لن تأتي إلى الساحة.
- ولماذا لن آتي إلى الساحة؟
- لأن أقارب متعهد الأفلام قد يرونك وأنت تلتقط الصور.

- هذا لا يهمني، والآن بالنسبة إلى موضوعنا: كيف سار الأمر مع جارتك؟

- قالت إنها ستسعد بالتقاط صورة معي، لكن ليس في الساحة، وأن أسأل حضرتك ما إذا كنت قادرًا على الذهاب إلى بيتها في الخامسة مساءً.

- في موعد الجنازة نفسه؟

- هذا ما قالته.

في اللحظة نفسها التي اتجه فيها الموكب إلى المدافن، ترك المصور الساحة وسار إلى بيت خوسيفينا وهو يحمل كل أدواته. لم يرتد المئزر. ارتدى عقب الغداء أفضل ملابسه وهو يفكر في إبهار الفتاة. حين وصل إلى البيت ودق بابها، ورآها تقف تحت إطاره بعد أن تحممت للتو، وهي ترتدي فستانًا أبيض، شبه شفاف، وعلى وجهها ابتسامة تجعلها تبدو كأنها تطفو، بدت له كأنها طيف من قصة خيالية.

جلس دانتلي في غرفة المعيشة وهو يأكل بعضًا من المثلجات التي يصنعها مصنع الثلج. غسل وجهه جيدًا، وصفف شعره، بل وارتدى حذاء.

قال المصور وحرك شعره ليفسد تصفيفه:

- يا للأناقة!

بينما يُركب الآلة ويُجهزها، قالت خوسيفينا، التي كانت قد عرضت عليه شرب عصير ليمون، من المطبخ:

- ليس دانتلي وحده. حضرتك أيضًا أنيق جدًا.

بعد أن قدمت له كوب عصير الليمون، شكرته.

- لماذا الشكر؟

- لأنك لم تصور السهرة على جثمان متعهد الأفلام. حكى لي دانتي.
مع أنه من المؤلم أن يعرف الجميع.

قال المصور:

- لكنه دفع حياته ثمنًا لهذا، كما يجب أن يكون الأمر.

ثم غير الموضوع:

- هل جدتك في الجنازة؟

- لا. إنها في مصنع الثلج. عليها أن تراجع كمية هائلة من الأوراق

بخصوص شراكتها مع متعهد الأفلام، ولديها وقت طويل.

قالت عبارتها الأخيرة هذه وابتسمت.

بقيا بمفردهما.

بمجرد أن أمسك دانتي الصورة في يديه، انبهر إلى درجة أنه شكره
وانطلق يركض. تساءل المصور: هل الأمر وما فيه أنني لست الشخص
الذي اتفق مع هذا الطفل، وأنها هي من اتفقت معه؟
ابتسم من مجرد التفكير في الأمر.

جلسا في غرفة المعيشة. هي على الأريكة، وهو فوق أحد مقاعد
الصالون. حين خرج دانتي، استقر الصمت بينهما. نظرا إلى بعضهما
من دون أن يقولوا شيئاً. كان صمتا مفعماً بالتوتر، ذلك الصمت الذي
يبرز ما يقولانه بنظراتهما. كسرتة بسؤال بدا كرصاصة مباغته:

- وهل لك أنت أيضًا ألف حب مثل بدرو إنفانتي في الأفلام؟

إنها المرة الأولى التي تُخاطبه فيها بـ«أنت»!

حينئذٍ، تحدث معها المصور عن زوجته الراحلة، المرأة الوحيدة المهمة في حياته. قال لها كم أحبها، وحكى لها عن معاناتها الطويلة. لم تقل خوسيفينا شيئاً. ظلت تنتظر إليه.

ترك مسألة ابتسامه زوجته للنهاية. الابتسامه التي لم يجدها في أي امرأة أخرى.

قال وهو ينظر إلى عينيها:

- إلا الآن. ربما ابتسامتها من عالم آخر، لكن ابتسامتك على النقيض من عالم لم يوجد من قبل قط.

فتحت خوسيفينا فمها لتقول شيئاً، لكنها بدلاً من هذا وقفت وذهبت إلى المطبخ، أو بالأصح هربت إلى المطبخ.

- سأعد لك عصير ليمون آخر.

بينما تقطع الليمون كادت تجرح إصبعها. حين عادت إلى غرفة المعيشة وهي تحمل كوب ليمون قالت الآن إنها صارت متأكدة من أنه من يكتب قصاصات الورق.

- لم أنف هذا قط.

- هل أنت شاعر بخلاف كونك مصوراً؟

- أنا قارئ جيد.

- هل تعرف؟ بما أنك هنا مع ببغاءك، سيروقني معرفة ما يقوله حظي فيما يتبقى من هذا اليوم.

قال المصور:

- بكل سرور.

- لكن لا تحسب أنني أومن بهذه الأشياء. هذا فقط كي أقرأ واحدة أخرى من عباراتك.

أراد المصور أن يقول إنه في كل قصاصة ورقية أبيات من قصيدة غنائية غرامية عظيمة، لكنه صمت، وبدلاً من هذا وقف وتوجه نحو الآلة:
- هيا يا «زيتونة»! إلى العمل! دعنا نرَ حظ خوسيفينا!

صرخ الببغاء:

- شُف حظك! شُف حظك!

حين سمعت خوسيفينا الببغاء لم تقدر على تمالك نفسها وضحكت كطفلة.

أخرج الببغاء قصاصة. تلقتها خوسيفينا، فردتها وقرأتها. في البداية، فتحت عينيها باندهاش، ثم تضرجت بحمرة الخجل. بعدئذٍ، نظرت إلى المصور، بطريقة أخرى. وبدأت تقترب منه.

لم يعرف ما إذا كانت تفعلها لتقبيله أم لصفعه. حين أوشك على معرفة الأمر، وصلت دونيا إنكارناثيون.
قالت الورقة:

«لو أغرم مصور بك
فلن تموتي أبداً».

من دون أن يحلم بالأمر أو أي شيء من هذا القبيل، استيقظ المصور في ذلك الصباح وهو لديه قناعة مطلقة بأنها ستأتي لرؤيته في الساحة. قضى النهار بطوله في انتظار لحظة ظهورها، حتى وإن كانت ستظهر

لصفحه بسبب العبارة المكتوبة على القصاصة في اليوم السابق. وصلت خوسيفينا، بالتزامن مع غروب الشمس، حين ضاعت كل آماله بالفعل. جلسا يتحدثان تحت تعريشة الساحة، حيث تمكن من إبقاء نظرتة على كاميراه، مع أنه في تلك الساعة لم يأت أحد تقريبًا.

قالت له خوسيفينا: «لو أن مسألة الأمس هذه إعلان حب، فعليَّ أن أمنحك كل التقدير المستحق في هذا العالم، فهي طريقة فريدة جدًا». مع ذلك، أوضحت له وهي تبتسم، بعد أن علمت بالفعل تأثير ابتساماتها، أنه إذا كان المصور حقًا مغرمًا بها، فعليه أن يخبرها كيف جعل الببغاء يختار هذه القصاصة تحديدًا.

قالت بلهفة طفولية:

- عليك أنت أن تكشف لي الخدعة!

غلبت العاطفة المصور. لم تأت خوسيفينا إلى الساحة لضربه على وجهه، وإنما لرؤيته فحسب. جاءت وهي أجمل مما كانت عليه في مساء اليوم السابق، وحثته مخاطبتها له بلفظ «أنت»، لا «حضرتك»، ووصفها طريقة إعلان حبه بالفريدة عن طريق ورقة الحظ تحديدًا على مواصلة المحاولة.

قال المصور:

- لا وجود لخدعة.

سألته خوسيفينا، من دون أن تتوقف عن الابتسام، ما إذا كان السيد جلين ماركوس، أفضل مصور لحظي في تشيلي، يسعى إلى إقناعها بأن ما يفعله مجرد سحر.

همس هو:

- الحب ساحر!

مقاعد التعريشة الخشبية ضيقة، ولهذا حين جلسا صارا متجاورين بشكل كبير. في تصرف جريء، أمسك المصور يديها وفيما يتحدث معها قرب وجهه من وجهها. لم تفعل شيئاً لتفاديه أو ردعه، وبينما تتلامس شفثاهما، وقفت خوسيفينا:

- آسفة! اعدرني!

وانطلقت راكضة.

ككل أيام الجمعة، وهو يوم صرف المكافآت، تجول الكثير من الناس في الشوارع واجتمعوا في الساحة. لم يتوقف المصور عن صناعة الصور، وباله مشغول دائماً بالناصية التي اعتادت خوسيفينا أن تظهر عندها.

في ذلك الصباح، في السينما، التي أغلقت حداً، أعلنت لافتة أن العروض ستُستأنف في اليوم التالي، يوم السبت، الموافق الحادي والثلاثين. سيُعرض الفيلم الأخير لبدرو إنفانتي، الذي عُرض لأول مرة في المكسيك بعد عشرة أيام على وفاته، واسمه «بابلو وكارولينا».

ظهر في ذيل إعلان اللافتة توضيح يقول إنه سيُعرض في حفلة السهرة فحسب، وإن بيع التذاكر سيبدأ في الثانية ظهرًا.

لماذا حفل السهرة فحسب؟

ما عرفناه هو أن الشركة بحثت عن عارض جديد، وفي تلك الأثناء طلبت من مرشد المقاعد أن يضطلع بمسؤولية تشغيل آلة العرض.

قال مُرشد المقاعد إنه لا يشعر بقدرته على أداء هذه المهمة.

بهذه الطريقة اضطروا إلى تأجير محترف من المدينة، لكنه لم يكن سيقدّر إلا على الوصول في مساء اليوم التالي.

بينما يتجهز المصور للذهاب إلى الغداء، وصلت دونيا إنكارناثيون إلى الساحة. جاءت وهي نادمة. لم تعرف ما يتحتم عليها فعله. قالت إن حفيدتها تحولت حين علمت بمسألة فيلم بدرو إنفانتي، وإنها قالت لها بهدوء كبير إنه من الأفضل لها ألا تذهب لمشاهدة الفيلم.

- آه لو رأيت حضرتك الطريقة التي نظرت إليّ بها!

سمعتها المصور في صمت.

- هل تعرف يا دون؟ أنا لا أريد أن تسقط طفلي مرة أخرى في جنون عشق صورة فيلمية. رجاء، ساعدني حضرتك على إنقاذها من هذا الهوس. أطلب منك هذا لأنك وجدت طريقة للتعامل معها، ولأنك الرجل الوحيد الذي سمحت له بالاقتراب منها. لهذا سيروقني أن تأتي إلينا غداً لشرب الشاي، ودعنا نر ما إذا كنا سنقنعها نحن الاثنين.

- اعتمدي عليّ يا دونيا إنكارناثيون.

- ولكيلا تغدو زيارتك غريبة جداً، قلت لها اليوم إنني أفكر في أن تلتقط لي صورة. قالت إنها فكرة جيدة. لهذا أنتظر حضرتك غداً.

- بالطبع يا دونيا إنكارناثيون، لكن يجب أن أكون صريحاً مع حضرتك: سأفعل كل ما في وسعي من أجل خوسيفينا لا لأنك طلبت مني هذا، وإنما لأنني مغرم بها.

- وهل تعتقد يا حضرة الرجل المحترم أنني لم أدرك هذا؟ أتعرف؟ أفضل أن تغرم ابنتي برجل من شحم ولحم، على أن تفقد عقلها بسبب صورة لرجل ميت.

في صباح ذلك السبت، وصل المصور إلى الساحة في وقت متأخر أكثر من المعتاد. بدا ممتقًا. عمل من دون حماس ولاحظنا هذا. لقد أغرم «بدر» إنفانتى الصور» كأنه صبي في مدرسة. هذا ما قلناه ونحن نضحك. قالت أخريات إن المغرمة هي خوسيفينا. قال البعض الآخر بتعقيد أخصائيي الاجتماع إن كلاهما مغرم، لكنه لا يريد الارتباط، لأنه مجرد عابر سبيل هنا كما يعرف الجميع. أما بالنسبة إليها، فهي لا تريد أن تغرم بسبب ما عاشته. في النهاية، خلصنا إلى أن أحدًا لا يعرف بأي طريقة شيطانية سينتهي الجزء الثاني من مسلسل «عروس بدر» إنفانتى».

بعد الغداء، لم يعد المصور إلى الساحة. لم ينم القيلولة كما هي العادة. ظل يكتب قصاصات ورقية جديدة ويهدم نفسه. في الخامسة مساءً، وهو يرتدي أفضل ملابسه، سار نحو بيت خوسيفينا وهو لا يحمل شيئًا إلا آله على ظهره، و«زيتونة» على كتفه.

لما فتحت الباب، غمزت دونيا إنكارناثيون له وأفسحت له الطريق. جلست خوسيفينا في غرفة المعيشة، بجمالها الدائم، وهي تتصفح مجلة. لما رآته يدخل، وقفت وحيته بطريقة رسمية جدًا. لما حياها «زيتونة» بصافرة، عجزت عن الحفاظ على جدتها وضحكت بكل خواطرها، لكنها عادت بعدئذٍ لتنهمك في قراءة المجلة.

بينما يُركب ويُجهز المصور آله، قالت الدونيا إن حفيدتها من اختارت فستان الصورة.

- ألا تعتقد حضرتك أن ذوق طفلي جميل؟

- بالطبع يا دونيا إنكارناثيون، كل ما هو جميل يجد نظيره.

نظرت إليه خوسيفينا الجالسة على المقعد من فوق المجلة.

أرادت الدونيا أن تتصور إلى جوار إبريق من الزجاج هو عبارة عن نسخة من أباريق إتروريا. اقترح عليها المصور أن تلتقط الصورة وهي جالسة على مقعد الصالون بطريقة حفيدتها الفخمة نفسها.

قال:

- إنها وضعية أنيقة وطبيعية.
فنظرت إليه خوسيفينا مرة ثانية.

الصورة مثالية. نظرت دونيا إنكارناثيون إليها، ثم أعادت النظر مرة ثانية، كأنها طفلة سعيدة بلعبتها الجديدة.

سألت حفيدتها:

- ألا تريدين صورة لك يا طفلي؟
قالت إن الموجودة لديها تكفي.

طلبت الدونيا أن يصنع لها نسخة كي تُهديها إلى طفلتها.
وبينما ينشغل المصور بهذه المهمة، ألحت الجدة على حفيدتها في مسألة الصورة الأخرى.

- لا يا جدتي! شكرًا.
- وألا تريدين أن يسحب الببغاء حظك؟
قالت خوسيفينا بنبرة مستسلمة:

- حسنًا قد يكون شائقا معرفة ما يُخبئه لي الحظ فيما يتبقى من يومي.

نظرت بمواربة إلى المصور:

- هل يُمكنني؟

- بالطبع يا خوسيفينا، بل ولمحو الشكوك، مري أنت بنفسك «زيتونة».

اقتربت خوسيفينا من البغاء.

- وما الذي أقوله له؟

- هذا: شُف لي حظي!

أمرته خوسيفينا وهي مرتبكة نوعًا ما:

- شُف لي حظي يا «زيتونة».

صرخ البغاء:

- شُف حظك! شُف حظك!

بعدئذ نقر الصندوق الصغير، وأخرج قصاصة من الورق ومد رقبته ذات الريش المنفوش ناحيتها. دق الباب في اللحظة ذاتها التي أمسكت فيها خوسيفينا الورقة. فتحت الجدة الباب وسُمع صوت دانتى وهو يسأل عن الآنسة خوسيفينا.

- الأمر وما فيه أننى أجلب إليها تذكرة السينما التي أرسلتني لشرائها.

انطلقت راكضة للإمساك بالتذكرة، من دون أن تفرد ورقة الحظ.

رجتها الجدة:

- رجاء يا طفلي. لا تذهبي لمشاهدة هذا الفيلم. سيمرضك. قلت لك

هذا طوال اليوم.

- عليّ أن أذهب يا جدتي.

ذهبت الجدة، التي أصابها الإنهاك من كثرة رجائها طوال اليوم،

للبيكاء في غرفتها.

فك المصور الكاميرا وفيما يستعد للرحيل، اقترب من خوسيفينا.
نظر إليها في عينيها وقال:

- اعذريني، لكن عليّ أن أقولها لك مرة ثانية: أنا مغرم بك، بل إننا
صرنا نخاطب بعضنا بلفظ «أنت». إنني مغرم إلى درجة أنني في
هذه الأيام شعرت بنفسني قادرًا على القتل من أجلك.
نظرت إليه في صمت.

سار نحو الباب، وحين وضع يده على المقبض، التفت:
- بالنسبة إلى مسألة الذهاب إلى السينما من عدمها، فافعلي ما
يروقك.

استمرت خوسيفينا في النظر إليه.
لكنها لم تقل شيئًا.
وحيثُ خرج.

في تلك الليلة، رأينا خوسيفينا تخرج من باب بيتها خلصة. رأيناها
تسير بخطوات حاسمة عبر الشوارع الترابية وهي تجتاز الساحة الغارقة
في الظلال المشعشة وتصل إلى السينما. بدأ حفل السهرة في التاسعة
والنصف. وصلت في ذلك الموعد بالضبط. أصابت الحيرة الأهالي الذين
رأوها تدخل، فأَي جنون ستفعله خوسيفينا الآن! رأيناها في الردهة
تشتري علبة من الفشار، وبعد أن صارت داخل الصالة، ذهبت لتجلس
في الصف الأخير للقاعة، على عكس ما فعلته سلفًا.

بعد العشاء، جلس المصور يشرب زجاجتين من الجعة مع رئيس
الوردية بمفردهما. كان بستانني الساحة مريضًا. لاحقًا، وصل إلى غرفته
نحو العاشرة وخمس دقائق.

بينما يُحضر تجهيزات صور اليوم التالي، دق الباب.
إنها خوسيفينا.

قالت الفتاة وهي تكاد تدفعه لتدخل:

- لماذا كل هذه الدهشة هذا يا حضرة المصور؟

وهذا لأنه وقف كأبله أمام الباب ويده فوق التراباس.

- بما أنك حاولت إقناعي بأنه لا وجود لأي خدعة في القصصات التي ظلمت تغازلني بها، وإنما أن كل هذا سحر بحث للغرام، فعليك أن تعرف ما حدث لي للتو.

حككت له أنها ذهبت إلى السينما على الرغم من رجاء جدتها، لكنها بعد عشرين دقيقة شعرت بالملل إلى حد التثاؤب وأدركت أنها حين نظرت إلى الممثل رأت «بدر» إنفانتي الصور»، وأنها ذات لحظة حين شرعت تأكل الفشار من فرط ملها سقطت إحداها عبر فتحة صدرها، وعثرت وهي تُخرجها على قصاصة الحظ التي نستها بالكامل.

- ولأنني عجزت وسط عتمة الصالة عن رؤيتها، خرجت إلى الردهة، وفردت القصاصة وقرأتها و.. ها أنا ذي هنا!

أخرجت القصاصة من صدرها وأشهرتها أمام عينيه. عليه ألا يسألها عن ماهية العبارة لأنها لا تُفكر في إظهارها له!

- قلت لي بالأمس إن الحب ساحر، وهذا حقيقي. لا بد أن شيئاً ما في السحر موجود في كل هذا، لأن عبارتك أخرجتني من السينما وجاءت بي إلى هنا وأنا أكاد أطفو.

قال المصور، وهو لا يزال مندهشاً، إن الحب معجزة، أكثر من كونه ساحراً.

- فبالصورة ذاتها التي يُصلي بها الغريق ويجذف كي تتحقق المعجزة وينجو، لا بُد على العاشق أن يحب ويصارع في الوقت نفسه كي تتحقق معجزته، بل وأن يستخدم كل التكتيكات والاستراتيجيات والمناورات الحربية، وهذا ما ظللت أفعله من أجلك يا خوسيفينا.

بدرت منها حركة شديدة الإثارة، وهي شيء بين الابتسامة العفيفة والإيماءة الموحية، ثم ارتمت عليه وعانقته وقبلته بشغف. استغرق المصور بضع ثوان في إبداء رد فعل والتجاوب مع كمين القبلات هذا، لكنه حين فعلها، شعرت هي بأن «بدرو إنفانتي الصور»، يُقبلها بالطريقة نفسها التي حلمت مرات كثيرة أن بدرو إنفانتي الأفلام يُقبل بها. ومع أنها تخيلت دائماً الممثل وهو حليق وتفوح منه رائحة العطر، فإن أكثر ما أثارها في الرجل الذي تبادلت معه القبل هي تلك الأشواك البارزة من لحيته التي عمرها أربعة أيام، ولسانه القططي الغليظ، وأنفاسه التي تفوح منها رائحة الجعة.

حين أبعدت شفتيها للتنفس، تراجع هو إلى الوراء:

- هل ستأتي الصفعة الآن؟

نظرت إليه خوسيفينا بعينين صفراوين لأنثى سنورية في موسم التزاوج، ثم دفعته ليسقط على ظهره على الفراش وارتمت فوقه. انتهى المطاف بالقصاصة فوق الكومود. لم يُزعج المصور نفسه بقراءتها. عرف جيداً ما تقوله. لم تذهب هباء ساعتا القيلولة اللتان ضحى بهما لكتابة العبارة نفسها على مئة قصاصة في الصندوق:

«تعال لي لترقدي معي. لن نمارس الغرام

بل إن الغرام من سيتمرس فينا».

عن صور موجودة وضائعة (6)

الخلفية كنيسة من الزنك. يجلس العروسان على مقعد حجري. في اللحظة الأولى، قد تدفعنا الصورة، التي لم تُضَبَط بِؤرتها جيدًا، إلى الاعتقاد بأن هذا موقع فيلم وأنه بدرو إنفانتي وأنها ممثلة مكسيكية. مع ذلك، فهذه هي الساحة الصغيرة لمستوطنة «لوس دونيس». يتذكر المرء أن العروس، بجمالها الذي لا يُنسى، تظهر حافية في صورة أخرى ذات جودة فنية أعلى. تبدو هذه كأن مبتدئاً قد التقطها. سيخلص المرء هنا إلى أن هذا الثنائي قد تزوج للتو ويقف لالتقاط صورة يُورثها لذريته. تسند الفتاة، التي ترتدي فستان العرس، رأسها إلى كتف زوجها وتبتسم بسعادة.

ما يلفت الانتباه في هذه الصورة هو أن العريس الجاد، بقدر جدية بدلته القاتمة، يعانقها بطريقة يبدو معها كأنه يخشى أن تبدأ في الطفو، برقة فستانها، وترتفع في الهواء، وتتيه إلى الأبد، في هذه السماوات الشفافة لصحراء أتاكاما.

كلمة المترجم

يعود إيرنان ريبيرا ليتيلير مرة ثانية في كتاب «رجال وقرى» إلى ملعبه المفضل الذي يُبدع فيه بالطول والعرض، أي عالم مستوطنات الملح الصخري التشيلية، فيقدم لنا ثلاث روايات قصيرة مختلفة على أصعدة الحكمة والشخصيات ومستويات اللغة، لكن يجمعها عامل مشترك موجود في كل إنتاجه الروائي: شعور القارئ أنه أمام شخصيات حقيقية من لحم ودم، مهما كان مدى غرابتها أو تفردا أو منظورها إلى الحياة.

أظهر النص الأصلي للعمل على امتداد رواياته القصيرة الثلاث التي جمعتها تيمة وصول رجل ما إلى قرية (أو لنقل رجلين وامرأة في حالة الرواية الثانية) تحديات ترجمية كثيرة وتنوعاً كبيراً في مستويات وطبقات اللغة، لهذا صار واجباً أن أعكس هذا في ترجمتي له، وألا أترك نفسي أنقاد إلى صياغته بلغة معيارية موحدة قد تُفقد شاعريته في أحيان أو خفة ظله في أحيان أخرى، أو حتى طابعه الشعبي، في كثير من المواقف.

ولهذا أود أن أستغل هذه الصفحات لا للحديث عن أي إطار تاريخي أو تأطيري يتعلق بعالم مستوطنات الملح الصخري، كما فعلت سلفاً في كلمتي التي أعقبت ترجمتي لرواية «العصامي» للكاتب نفسه، أو الإسهاب في معلومات أخرى غير التنويه البسيط الذي وضعته في مطلع الكتاب، وإنما لأتحدث عن بعض الإشكاليات التي قابلتني أثناء الترجمة وال طول التي لجأت إليها، من أجل تحقيق ذلك الغرض الأسمى وشبه المستحيل، ألا وهو الحفاظ على ما تيسر من روح النص الأصلي لغوياً.

شكلت الأسماء والألقاب والمسميات عنصراً هاماً في روح النص، بداية من عنوان الرواية الأولى: «رجل يصل إلى النعيم السامي». لعل القارئ قد لاحظ أن هذا هو العنوان الوحيد الذي عربت فيه اسم القرية أو المستوطنة، لكن هذا جاء لغرض فني كامن في ثنايا النص وكشفت عنه شخصية دون أورسيتينيو حين قالت: «بحثوا عن أسماء تتعارض مع قحولة المكان وترفع من معنويات الناس»، وأخذ يعدد بضعة أمثلة بذكر اسم شوارع مثل «الألف بهجة» و«كرمة البحر». لنتخيل الآن أن أسماء المستوطنة وكل الشوارع قد كُتبت بمنطوقها الصوتي لا عبر ترجمة معناها إلى العربية، فكانت ستغدو هكذا «آلتا جراثيا» و«ميل ديليثياس» و«بينيا ديل مار»، فكيف سيفهم القارئ المعنى الحقيقي وراء الاسم أو طبيعته الشعرية التي تتعارض مع قحولة المكان؟

ثمة شبه بين الأسلوب الذي اتبعته في ترجمة اسم المستوطنة وبعض شوارعها وما فعلته مع اسم العازف الشاب الذي جاء في النص بالإسبانية «Tristán el triste». حتى وإن لم يُجد القارئ الإسبانية، فلا بد أنه لاحظ الجناس بين كلمتي «Tristán» و«Triste» وهذه الموسيقى

الخفية الكامنة بين الكلمتين في ذلك النص الذي تُعد الموسيقى والحديث عنها أحد أعمده الرئيسة. «Tristán» هو الاسم و«Triste» هي صفة بمعنى «حزين». بينما أترجم، استبعدت خيار كتابة المنطوق الصوتي «تريستان إل تريستي»، لأنه لن يحمل إحياء صفة الحزن بالنسبة إلى القارئ، ثم استبعدت خيار كتابة «تريستان الحزين»، لأنه ليس موسيقيًا مثل الاسم حين يُقرأ بالإسبانية، وهكذا استقررت على «تريستان الحزان»، لأنه أولاً يعكس المعنى، وثانيًا فيه شيء من الموسيقى الموجودة في الاسم بالنص الأصلي، حتى وإن اختلف الأمر قليلًا، واستبدلنا موسيقى القافية بموسيقى الجنس.

تمتد الإشكاليات الترجمية في النص لتشمل آفاقًا أخرى. لن أتحدث عن مسألة أن لغةً ومفرداتٍ خاصةٍ قد تولدت في عالم الملح الصخري في تشيلي وأدت لاحقًا إلى إصدار قواميس خاصة بها نظرًا إلى تفردا، وإنما عن المزيج الذي يقدمه ليتيلير بين طبقات ومستويات لغوية مختلفة، يتراوح فيها الفصح مع الشعري والشعبي، وهذا فعلاً كان أصعب ما في عملية الترجمة، فبين تعبيرات عامية يستحيل فهمها إن ترجمت حرفياً، وتعبيرات أخرى يُمكن ترجمتها لكنها قد تفقد طابعها الشعبي المرح إن كُتبت من دون ملاحظة العامية، ومفردات لا وجود لمقابل لها في العربية، وأخرى تحمل معاني مزدوجة، قد تفسد خلطة ليتيلير إن لم يتحل المترجم بالحذر والفتنة اللازمة، أو أن هذا هو ظني. في الحقيقة، لو أردت أن أسرد كل الإشكاليات التي واجهتني في هذه النقطة، فربما سأحتاج إلى كتاب كامل، لهذا سأكتفي بضرب بضعة أمثلة قد تثير اهتمام القارئ وتُساعد في فهم الآلية التي اتبعتها في هذه المسألة. لنأخذ المشهد الذي غطس فيه الدون وتريستان في

مقعدى الصالون حين قال الأول بالإسبانية للثاني: *Está pensando en la inmortalidad del cangrejo?* ورد عليه الثاني: *Estaba pensando en la importancia del agua en la práctica de la navegación* وهما عبارتان إن تُرجمتا حرفياً فستكونان: «هل تفكر في خلود السلطعون؟»، و«كنت أفكر في أهمية الماء في ممارسة الإبحار»، وهما أيضاً عبارتان إن قرأهما أي شخص بالعربية، لألقى الترجمة في أول مقلب قمامة. الأمر وما فيه أن تعبير «التفكير في خلود السلطعون» يُستخدم بصورة ساخرة بالإسبانية حينما يكون شخص ما سارحاً في الملكوت أو غير منتبه لما يُقال، فيما أن الرد الذي استخدمه تريستان، جاء للمزاح بثنائية وجود حيوان بحري في البحر، وفكرة الماء والإبحار. لهذا لجأت إلى تفصيح تعبير «مين اللي خد عقلك؟» أو «اللي واخذ عقلك» بالعامية المصرية ووضعه في صيغة سؤال: «من الذي أخذ عقلك؟» (وهي عبارة قد تُقال لشخص غير منتبه) واستخدام رد مزاح من تريستان يبدو سخيلاً ولا يروق الدون عبر تعبير «العقل زينة»، للحفاظ على ثنائية التلاعب بالكلمات نفسها الموجود في النص الأصلي في البداية، لكنني استثقلت المسألة لاحقاً وغيرتهما إلى ثنائية «سرحان» و«حزنان» لأنها أخف وفيها التلاعب بالكلمات نفسها.

ان استمررنا في مسألة الثنائيات والتبعات التي قد تنجم أو لا تنجم عن ترجمة اسم أو كلمة بشكل قد يُفقد النص خفته أو مفهومه، فسأضرب مثلاً بلقب ضابط الشرطة العسكرية في الرواية الثانية «رجل يصل إلى تريكلور». لقب الضابط بالإسبانية هو «Ajicito» وهو في الأصل تصغير لكلمة «Ají» وهو أحد أنواع ثمار الفلفل الموجود في أمريكا اللاتينية. في البداية قررت كتابة المنطوق الصوتي للاسم هكذا

«أخيثيتو»، لكن لاحقاً وبسبب عبارة ساخرة قالها أنخل سالومون في حوار مع إيبا لا سكالا بعد الإفراج عنه هو و«خوان ابن لا أحد»، قررت تعديل الاسم وكتابته «فلفل». تتعلق المسألة بعبارة «Debe haber quedado como un locoto»، أو بالأصح بكلمة «locoto»، وهو معجون يصنع من ثمار هذا الفلفل، أي أنه يشبه معجون «الهريسة» الحار الذي يصنع من الفلفل الأحمر الحريف في العالم العربي، ولكي تستقيم الثنائية وتبدو السخرية حاضرة، كما أرادها المؤلف، استقررت على ترجمة اسم الضابط «فلفل».

وإن مضيئنا في النقاط المتعلقة بخفة الدم والنكات والتعبيرات العامية، فلدينا مثلاً ذلك الموقف الذي يتحدث فيه أنخل سالومون مع الشماس، حين يأتي الأخير على ذكر الأرمدة، فيرد عليه الأول بمزحة جعلته ينفجر ضحكاً بوصف أمه بأنها «حريقة سجائر»، وهو تعبير يبدو مضحكاً إن كان الحديث عن سيدة عجوز، وجاء في النص الإسباني بصيغة مشابهة لكن وفقاً لثقافة مختلفة إذ قال: «Fuma como una chimenea»، والتي إن ترجمت حرفياً فستعني «تدخن كمدخنة».

يمكن القول باختصار إن بعض الأجزاء استوجبت توطيئاً جزئياً لتعبيرات معينة ظهرت في النص (وليس كلها) للحفاظ على تلك الروح الخفيفة المازحة والنقاط المتعلقة بالتلاعب بالكلمات، والتي هي في الأصل من السمات المميزة لأسلوب المؤلف التي أكسبته حب قراء الإسبانية، وأردت أن أبقى عليها في الترجمة.

جدير بالذكر أيضاً أنني قد اندهشت من التطابق شبه المليمري الموجود بين بعض التعبيرات العامية القادمة من عالم مستوطنات الملح الصخري التشيلي والعامية المصرية، ومنها مثلاً تعبير «el

«alquitrán de nuestra rutina». لا يحتاج الأمر إلى أن يجيد القارئ الإسبانية، يكفيهِ فقط أن يقرأ كلمة «el alquitrán» وسيعرف أن معناها «القطران». أتحدث هنا عن رواية «رجل يصل إلى دونيس»، حين تقول الرواية «عاشتنا القطران».

كذلك، كانت هنالك بعض الكلمات التي لا وجود لها في الإسبانية العادية، لكنها تخص عالم الملح الصخري، ووجب عليّ بالتبعية أن أبتكر لها مقابلًا في العربية مثل «شيلي الرواسب» أو «حمالي المتفجرات»، لأن العمل في مناجم الملح الصخري كان قائمًا على وجود تخصصات بين هؤلاء العمال، ما أدى إلى ولادة مفردات جديدة تخصها.

في إطار مشابه تأتي كلمة «charlatán» التي مثلت كابوسًا حقيقيًا لي، لعدة أسباب أولها أن المعاني القاموسية التي تظهر لها هي «مشعوذ»، «محتال»، «دجال»، «ثرثار». لكن المشكلة أن ما يُمارسه أنخل سالومون ليس دجلًا ولا شعوذة بالمعنى المتعارف عليه في العالم العربي. يذهب الناس البسطاء إلى الدجالين والمشعوذين في ثقافتنا في مقارهم السرية. تحوط هؤلاء هالة من الدخان فيما يطالبون زبائنهم برجل نملة وورك بعوضة، لكن صاحبنا هذا، بطل الرواية الثانية، يتجول بين المدن والقرى والمستوطنات، ويقف في الأسواق ويعرض بضائع وتعاويذ على الملأ. إذن فالمرود الثقافي والإيحاء الأولي لقراءة كلمة «دجال» بالعربية سيكون مختلفًا. فكرت في استخدام لفظ «دلال» على أساس أنه يقف في الساحات وينادي ويدل على بضاعته، لكن استبعدته لأنه سيكون بعيدًا، إلى أن استقررت في النهاية على إضافة كلمة «أعاجيب» إلى جوار كلمة «دجال»، لأن الرجل لا يمارس هنا دجلًا أو شعوذة بمفهومها في ثقافتنا، وإنما يستخدم الأعاجيب التي معه

من قصص وبضائع، بغرض التكبسب من وراء المغفلين وصافي النية. الكلمة نفسها، كما قلنا سلفاً، تعني «ثرثاراً»، وفي أحد الأجزاء يستخدمها ليتيلير للإيحاء بالمعنيين، حين يتحدث عن ماضي أنخل سالومون ويقول إنه وُلد ليمتهن هذه المهنة، ويخبرنا بأنه تحدث مبكراً وكان سابقاً لسنه وأجاد الألعاب والخداع. وهنا نجد شقّي الثرثرة-الخداع، ولهذه الأسباب خلصت إلى الدمج بين ترجمتي الكلمة في الجملة التي تقول: «وُلد أنخل سالومون ليصبح دجالاً ثرثاراً بائعاً للأعاجيب».

من ضمن الأمثلة الأخرى في هذا الصدد، تعبير «palo blanco» الذي يظهر في النص الإسباني، وترجمته الحرفية «العصا البيضاء»، لكن يُقصد به في الأصل الشخص الذي يساعد محتالاً أو نصاباً، عبر تهيئة الأجواء له لممارسة خداعه، وهي الوظيفة التي أداها «خوان ابن لا أحد» لمساندة أنخل سالومون. لا وجود لكلمة عربية تمنح هذا المعنى، حتى وإن كانت عامية ومن أصل غير عربي. فكرت في كلمة «ناضورجي»، لكن خلصت إلى أنها ليست مناسبة، لأن وظيفته هي مراقبة الأجواء، لا تجهيزها لممارسة خدعة، حال وصلت الشرطة. في النهاية، خلصت إلى استخدام كلمة «سَنِيد» التي فيها شيء من روح العامية، يوازي التعبير الوارد في النص الأصلي، وهي في الأصل فصحي. كلمة فيها شيء ما من الغرابة وربما روح الاحتيال، يُناسب أول مرة ظهرت فيها في النص حين قالت إيبا لا سكالا: «بالطبع! إنه سَنِيدُك! لم أر شيئاً مثل هذا من قبل». لنتخيل أنها قالت: «بالطبع! إنه مُساعدك! لم أر شيئاً مثل هذا من قبل». يا سلام! لماذا لم تر «مساعدًا» لشخص ما من قبل؟ لكن «سَنِيد» فيها كما قلنا شيء من الخفة والغرابة.

لا أريد أن أطيل على القارئ بأمثلة أكثر من هذه، لأنها كثيرة، لكنني كما سبق وأشارت أردت أن أمنحه بعضاً من اللّمحات حول النهج الذي حاولت اتباعه كي يقرأ العمل قدر الإمكان بروحه الأصلية، مع أنني أعرف أن الوصول بنسبة 100% إلى هذا الغرض شيء مستحيل، لكنني على الأقل حاولت، وأرجو أن يكون الله قد وفقني في هذا.

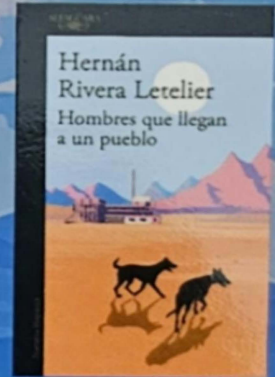


رجال وقرى

ثلاث روايات قصيرة بأسلوب إيرنان ريبيرا ليتليير الكلاسيكي، أبطالها رجال ضائعون يصلون إلى مستوطنات الملح الصخري في صحراء أتاكاما التشيلية لاكتشاف جوانب جديدة مختلفة من أنفسهم ومن العالم.

في هذه الروايات الثلاث القصيرة القريبة من القلب، يعود ليتليير إلى العالم الذي لم يكتب عنه أحد بمثل مهارته وأستاذيته، ويقدم لنا أبطالاً شديدي التنافر والتقارب في الوقت ذاته: عازف كمان، ومصور، ودلال للأعاجيب.

يصلون جميعاً إلى مناطق مختلفة في مستوطنات الملح الصخري، ولا يكتشفون العالم الذي صار فيه استغلال العمال والعنف واقعاً راسخاً فحسب، بل أيضاً أهمية الحب والصداقة والشهامة، عبر ثلاث حكايات يتمازج فيها الحزن مع الفرح، والواقع مع الأساطير، والحياة مع الموت.



ع. ا. ف. محمود هاشم



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

